عشرة أعداد بعد...



يعرف الناشرون وأصحاب المجلات الإصدارات عموما، ثقل حمل كل عدد أو كتاب جديد.

ما معنى أن يضاف رقم إلى أرقام سابقة، يجمع بينها العنوان والكتاب وهيئة التحرير ، وفلسفة المؤسسين.

أهي صخرة «سيزيف» التي ما أن تضعها في قمة الجبل من على كتفك المرهق حتى تسبقك عائدة من حيث بدأ صعودك، لتعيد وتعود وتعيد إلى ما لا نهاية؟

أم هي هذا الصاروخ الذي يحمل قمرا بشريا ليقذف في مدار فضائي ما، فيؤدي مهمات معرفية ما.. ينطلق الصاروخ، فيعود فيقال له ذاكم القمر لا يكفي، ها قمر جديد، وتظل العملية في تكرار لا متناه؟

إننا نعد ببطء كبير.

سنة 1990 قلنا هذا رقم واحد وفرحنا به فرحا شديدا، وتكررت الأرقام. ولم ننتبه إلا ونحن نقول هذا رقم **عشرة**.

نقول هذا في 1995. بعد 5 سنوات. نقول باعتزاز كبير وبفرح طفولي : لقد وصلنا في العد إلى عشرة يا أمنا. يا أمنا الثقافة يا أمنا اللغة العربية يا أمنا الجاحظية.

بلا موظفين متفرغين لهذا العمل العظيم، وبلا ميزانية ثابتة من أحد، وبلا أسرة تحرير متواصلة، حتى أننا نعلن بين كل عددين تقريبا عن اسم رئيس تحرير جديد، وبلا تعويض عن المساهمات للكتاب.

أكثر من كل ذلك، ثمن توزيع المجلة لا يعود إلينا، فشبكات التوزيع في الجزائر ليس فيها تواتر، القطاع العام مفلس والقطاع الخاص، تواتره كاذب.

ومع ذلك ما أن نعد رقما جديدا، حتى نشرع في التدرب على رقم تال.

نجمع المحاضرات التي ألقيت من على منبر الجاحظية، نلقي نظرة على ما وصلنا من مجلات عربية، نعلم علم اليقين أنها لن تصل القارئ الجزائري، فنأخذ منها ما نرى أنه يتطلع إليه.

قصيد من هنا، قصة من هناك، ويقوى أملنا في النطق بالرقم الجديد.

نكاية في الذين لا يكتبون.

نكاية في الذين لا يقرأون.

نكاية في الذين يحسدونا على التعب.

نكاية في جميع الذين لا يؤمنون بأن التاريخ لا يسير إلا إلى الأمام، حتى وإن تعطل قليلا.

ننطق بالرقم الجديد، مشددين على كل حرف من حروفه.

أحيانا نتلقى من المؤسسات الرسمية رسالة شكر، نظل ننتظر أن تترجم إلى دعم مادي، إلى طلب كمية توجه للمكتبات العمومية على المستوى الوطني أو إلى سفاراتنا التي تشكو لا أقول شح المادة الثقافية من «البلاد»، إنما انعدام هذه المادة كليا.

وعندما نيأس نقول أيضا نكاية في رسالة الشكر هذه، نشرع في العد. (مع الاعتذار الحقيقي لوزير التربية الدكتور عمر صخري على دعمه الفعال الذي لن ينساه له ولوزارة التربية تاريخ الثقافة الجزائرية).

اليوم تعلمنا العد.

لأننا نطبع بمطبعة الجاحظية، مثلما كنا نصفف ونخرج بوحدة تصفيف الجاحظية.

وسيتأكد الجميع من أن الجاحظيين تعلموا جيدا العد، وبإمكانهم أن ينطقوا بعدة أرقام في السنة الواحدة.

فقط.

عندما يتوفر لدينا ثمن الورق.

عندما تشرع الأمة في العد معنا.

سيقول أحفادنا مثلما قال قراء الهلال المصرية أخيرا «هذا رقم **ألف**.

وما ذلك على الله بعزيز.

ط. وطار

اللحظة الجزائرية بين قدر المعنى وواجب المفهوم



بقلم المرحوم بختي بن عودة

لنقـــر أولا أن الفكر ناقص،
النقصان مؤكد ضمن رغبة النسيان،
والهجوم المتأتي بمفردات مغايرة قد لا يسجل
حالتين أساسيتين، لنقل من جهة قدر (Destin)
المعنى ومن جهة أخرى واجب المفهوم.

لا نقترح فرضا يقصي كل الإقصاء نشيد الوعي، جنون الإختلاف، وربما ضربنا صفحا ككل صفح عن الرئة التي تضمن ما يسميه الخطيبي «السلم الألسني» تتربى المفارقات، تتعاضد الأهواء، يسحب العقل اعتماده لدى التطابق المفيد "L'utilité de l'identique".

لننظر إلى ذلك في أخطاء التعبير، أي في عجز الإنسان الجزائري عن صياغة جملة مفيدة وبالتالي ذات دلالة. الجملة تلك هي حدث خطابي أي نوع من الموقف تجاه مشكلة أو ظاهرة، حضور أو غياب، كفاية ما لإنتاج الجمالية المعقولة، أي علاقة ما باللغة، العالم، الغيب، الزمن، المعرفة وهلم جرا.

وربما ظل ذلك مبررا فقط، المبرر الذي لا يمر إلى الآخرين من دون سند عنيف أو عدواني، والشتات نفسه للجملة المنطوقة (سلطة الشفوي) تكون قد قطعت شوطا معتبرا من عدم التجانس. إنها إذن العلامة الأولى على ارتباك الذات وتاريخيتها. ارتباك من الطراز الذي يدمر السلالة بالجمع، أي التمايزات الضرورية لكل مشروع يتحمل أعباء التجاوز. إذن ستكون الذات غير قادرة على استيعاب نفسها وهي التي لم تنفصل بعد عن الأنا. طرفان مختلفان والحد بينهما ليس انثروبولوجيا فقط، إنه لغوي-انطولوجي.

هناك قبل كل شيء احتفال خائن باللسان حركة ضد التاريخ لم تتملص

بعد من التشوهات، اقصد الذاكرة غير المتناسقة، الجندة للهوية الخيالية كما لو أنها قائمة على ما يسميه إيتيان باليبار بالإثنية الخيالية هي الأخرى: (L'Ethnicité fictive).

من هنا سنفهم جدوى التأمل في قدر المعنى وفي مساراته، في ما يشبهه وما لا يشبهه. كما لو أن حركة ما غير عادية ستحول الرهان على هذا الصعيد إلى جدل من النوع الجذري، قراءة في الجذور كما في الإمتدادات. وهنا فقط نعود إلى إلحاحية الفحوى، إلى راهن ظل يترقب الكارثة ليفرض منطقه الخاص.

ليس الصعب هو التوصل إلى فرض انسجام كلي بين الأفكار والمرجعيات، أي بين الخطابات وسلالاتها الكثيرة، وهي لا تحدد بالبساطة المتخيلة أي بضربة نرد، ولا بهوى مسيس وغير متجذر في حقبة لها أولوياتها الإجرائية بما هي مكان لكل الفروق المكنة.

لن نفهم ما يتأزم سوى بالتفكير فيه، واعتباره مجالا لعبور متفطن إلى أدوات العبور، أي المعرفة والشك، واستحضار يقظ في الوقت ذاته العسكري واللاهوتاني، أنها تبددت عبر التاريخ، أو أن الأسماء التي تدل عليها ليست قادرة على الإنبعاث.

إن خصوصية هذا الفضاء (الجزائر) لا تنتمي إلى الوحدة المريضة بتطابقاتها ونسياناتها المشروخة ولا إلى شرعياتها التي تتفادى الغيرية العالمة (L'alterité savante) ذلك أن «إيكوسيوم» هي كل الحضورات والأناشيد المشروطة بدم الجماعات الصبورة والمضحية وغير الجشعة. ثمة الصبورات (Patiences) وثمة أكاليلها التي تتنور في أخلاقيات حديثة ولا تتطلب سوى الفحص التحليلي لها بانتزاع حق الإعتراف وحق التساكن الجليل.

إن مفهوم الـ (Retombée) أي «الإنعكاس» مثلا، الذي يفتتح به المفكر الكوبي سيفيرو ساردواي كتابه «باروكو»، يكون قد هلل لترابطات العلم والإلتماعة الاستطيقية وهي ترابطات لا يدركها السياسي المثلث بهذه السهولة. هي نفسها ليست مبسوطة للوهلة الأولى، للعقل الواحد كسذاجة وتهاون، عجز وكسل، ولربما «خروجا من التاريخ» على حد تعبير فوزي منصور.

لماذا الإنعكاس؟ لأن الهجوم قد بدأ، وها هو العصر يتجدد في النوبات كما القفزات، ومن هيدغر بنقده للتقنية إلى جول ليبوفتسكي بنقده للفراغ، نكون ربما حتى رفقة دومينيك لوكور في «ضد الخوف، من العلم إلى

الأخلاق، المغامرة اللانهائية، قد عرفنا ولو بشكل نسبي ومحدود، أن نسبة اختراق هذا العصر هو الضرورة الفكرية في حجم استراتيجيات مقارنة وهجرات مقلوبة في اتجاه تلك التواريخ الطازجة. هكذا تتجدد الهوية، هكذا تصبح موضوعا لصيرورة لا أفقا لرهان متعجرف.

إن الخسارات الممكن تفاديها (Evitables) ضرورية هي الأخرى، مثلما هو ضروري حرص الذات المفكرة على ذلك الغي، ذلك الشره، وهي تتأمل ما تراه وما لا تراه ما الذي بإمكانه أن يترسخ في ما وراء مبدأ الهوية، أن يفلت من قبضة العادي، وما لازم القيمة المغايرة في هروبها، سواء تعلق الأمر بحقل التحاب [Aimance] أو الإعتقاد، أو الرجولة أو الوطنية أو التقدم أو العقلانية.

كيف نعيد تفكير هذا اللسان مثل واجب المفهوم المشار إليه، لأن ما يترسخ هو ما لا نتفق عليه، لا نؤيد جماعيا أو مسبقا خطواته وحظوظه، ذلك الذي يتعمق بالريح والخلخلة من الداخل، في ما نعتبره دوما ومن نقد حضارة لا تعمى، حضارة لا عماوة (Aveuglement) بعدها.

النقد يبدأ من أصغر خلية، بل قل بنية، ومن الحرص على التمييز بين الأنا والذات. لنستوضح إذن الأمر في مهامه العريضة، حتى ولو اعتبرنا الحداثة جسدا متعدد الأصوات (Polyphonique) وإلا ما معنى أن نرغب في مساءلة اللامفكر فيه (L'impensé) الجزائر هي ما يشبه الجزر المتباعدة، ليس الجزر (عكس المد)، حركة ضروسة، مقدامة، والمكان المترف هو ما نذهب إليه بالإختلافات الطيبة وغير المتعجلة، لأن حدوده مرئية.

لنقل إذن ماهي طبيعة الدليل (Signe) في الجزائر؟ ما هي ترنحاته المكنة، وربما وجبت المقارنة إقليميا وعالميا، وقد نفهم من خلال ذلك التشكلات اللامتجانسة لهذا الفضاء، لهذا التداخل بين المرئي واللامرئي.

بروتوكول القراءة هو هذا، على الأقل في ما يهمنا ويهم مصيرها، وليس شرطا أن نذهب نحو ائتلاف المفردات السوسيولوجية والأنثروبولوجية لنقر بصحة الطرح. إذن ماهي العوامل التي تجعل من الدليل يتعرض للتغير وربما للإنكسار أو العطالة؟ النظام الثقافي مثلا لم يبلور على صعيد الإعلام (وهو وجه من وجوهه البارزة) مثلا، لغة نقدية تتعامل مع الإختصاص في حقل الكتابة النظرية والتفكيرية مثلا وتفكك الخطابات المائعة والتي تداهم الراهن.

هناك اختلالات غريبة ما بين تحليل اللامفكر فيه وتفسيره، وقد لا يجوز الإثنان معا. هناك مركزية منغلقة على ذاتها لا وجود لما يماثلها على الأقل غربيا. الإنشاء يأكل الإنشاء وزمن العبارة هو عدم مردوديتها، أي خيبتها.

ومرة أخرى يقص حد العلم خارج التواصل الممكن الناتج عن اللاتواصلية (Incommunicabilité) غرابة من دون معنى، يرشحها أيضا الخط المشوه والباحث في مداخل المؤسسات والحوانيت والأوراق وغيرها عن تناغم، يبرز إلى حين اتفاق الرسم والمسمى. إذن يطرح الدال (Signifiant) إعوجاجه في ما يشبه المدينة، حيث عدم الإنصات لجهة واحدة كاليغرافيا مثلا يساعد في فهم الكثير من الإضطرابات الخاصة بمفهوم الإبداعية في الجزائر. المدينة عندنا ليست قصيدة أي ليست جسدا حضاريا ذا دلالة، هي القرية المتمدنة بعسر وهي تخفي مجتمعات سرية (Société secréte) تعمل في الإتجاه المعاكس للمدنيّة. لذلك لا نملك معماريا مفكرا يربط بين صورة الهندسة ودلالية النص، بين المسكن (بالمفهوم الهيدغري) والحضور في الرجفة الكونية للدليل الشعري. كما لا نملك محللا نفسانيا (Psychanaliste) يحلل الرغبة وعلاقتها بالتجسيدات المادية للمعنى أو الروح، ويهيء للكتابة كمعمار مناخا يستثمر فيه تراتب الكائن كذات وليس كفرد أي كرقم.

إن اللاوعي يقول جول دولوز «ليس مسرحا، بل مصنعا، آلة الإنتاج، فاللاوعي لا يهذي ببابا-ماما، بل يهذي بالأعراق، القبائل، القارات، التاريخ والجغرافيا، دائما بالحقل الإجتماعي» إذن ليس من السهل أن نتكلم على التشييد، ما نشيده ضد قياس الزمن ومتطلبات المحتاجين هو الوعي فقط، أي هو ما اتفقنا عليه من فوق بعيدا عن الفكر القابل للسكنى (Pensée habit-able)إنه المزيد من الإنحرافات لأنه القرية عموديا في غياب المدنية [La cité] وفي غياب الليل لا الظلمة. ثقافيا إذن تظهر الكثير من الأخطاء، بل من مزايا الأخطاء، لأننا نتبصر من موقع نقدي ماهو ناقص، مايظل قدرا وشبه مصير، قوة من دون غائية هي دوما ضالة وعمياء.

كان نيتشه يقول بأن الفنان أو الفيلسوف هما طبيبا الحضارة، وهي مسألة تورط جسما معرفيا بكامله، لا ينظر إلى نفسه سوى بالنظر إلى غيره، لأن مبدأ التماهي (L'identification) مطروح في الجزائر من خلال هذه المسائل.

إن انهيار النسق السبعيني بكل ضجيجه يؤكد هذه النقطة، ولا يلح عليها ليشير إلى ماض كان، بل ليؤرخ له، ليعيد إليه ماء الطبيعة الأولى.

ثمة هوامش متبقاة، تستدعي التأمل في ماهو لغة أي طاقة تلفظية [Energie d'énonciation] وهي التي توفر لنا الخطاب (Discours) لنرى كيف أن إشعاع صيغة "حاشاك" التي تهيمن على التخاطب اليومي كوصف هي الرديف الآخر لسالبية الناطقين بها، والتي تورط بدورها عدم القدرة على إبداع المختلف بما هو صراع فعلي مع الصيرورة. صيغة مثقلة بالماضوية وهي

غير بعيدة من صيغة «الله غالب يا الطالب» فهي تجسيد للتوكل.

هناك من خلال التلفظ قابلية ما، وهي القابلية التي تفسر غياب المغامرة والتجريب، بمعنى الخوف من الذي لا نملك معرفة عنه خارج اليقين، أي ضمانات السماء.

الجانب الآخر لمثل هذه الصيغ (Formules) هو الإستسلام الشبه تام لما هو قائم، "مكتوب" أي عدم المراجعة المتسائلة للثقافات المتوارثة في مجال المنقول وهي شفوية أخرى.

يقول رولاند بارت «مسكون بشغف دائم (ووهمي) لوضع سؤال على أي حدث، مهما ضئل، لاسؤال الطفل : لماذا؟ وإنما سؤال الإغريق القديم، سؤال المعنى، كأن كل الأشياء تنتفض بالمعنى : ما معنى ذلك؟ ومهما يكن الثمن، ينبغي تحويل الحدث إلى فكرة، إلى وصف، إلى تأويل، وبإيجاز ينبغي أن نعثر له على إسم مغاير لإسمه».

قد نتفطن من هذه الوجهة إلى ثراءات ما يفوق الإعتبار السريع لمسألة المعنى، هكذا جزائريا، كما لو أن السؤال الأساسي بل والضروري سيكون هو : كيف تتمعن الجزائر؟ كيف تحصل على معاني مغايرة وغير منضبطة لما هو حركة خارجية لا ترسم بشفافيتها لا هذا الأفق ولا ذاك.

من وجهة دلالية، سيفجر الإختيار نظرية ممكنة لقلب القائم من هذه الزاوية، ويطرح جدية المعرفة وصرامتها، ويفرض عودة إلى ماهو بسيط، أي بالتساؤل عن فظاعة الإختزال "المركزية القضيبية" للسياسي المثلث، عند إرباك الطبيعة واستصدار فتنتها، عن هيمنة الواحد الغبي، عند تلعثم الثقافي، عن حدة التضليل، عن التباس الحقيقة.

إن ذلك يؤكد أن مرحلة ما قد انتهت وكان من المفروض أن تنتهي، أن ترغب في النهاية ذاتها، وما الكائن اليوم سوى مجموعة تأرجحات، غابة من المواقف والإنثناءات. والنصوص هي الأخرى تتوفر على هذا النصيب، على هذا الحي الذي لم يختر موته.

إن المناهج التي تخلخل أنسجة اليقين وتحدق في مجازاتها وبلاغاتها، مؤهلة لأن تغير من مواقع النظر، وأن تتربع على حسرات المجموعات البشرية، وأن تسجل عمق الفتوحات الفلسفية والتحليلية.

عصر آخر سيوفره ما دعونا بواجب المفهوم [Le devoir du concept] وهو عصر اليقظة الشرسة، التقاط الحساسيات الصموتة أو الخجولة وتحرير بوتقة التنوير.

إنه (بصراحة) من واجبنا أن نهيء فكريا المجال الخصب للإنصات إلى روح الأنـــوار (Les lumiéres) إذن الحركـة الدؤوبة للتنوير والتخلص من وداعة الوهم، تلك الوداعة التي لا تتفق مع المهمة النقدية للعقل [Raison] فما هو مقصود يشترط اجتهادات لا تدع مجالا للشك، في حقل المخيلة الجزائرية ولغاتها الممكنة، والتي ليست لا بالسهلة ولا بالمستحيلة.

وربما ذهبنا إلى إعادة تفكير من نحن، ما مواصفات هذه الحالة من جنون العظمة والأنافة الساطعة، وقلنا بالسفر الذي يتواضع لرنين ما هو كوني، حيث قراءة الإنسان تبدأ من قبوله مبدأ التنازل، التداول، التقييم، التأمل وليس النبذ أو القذف.

إذا كانت الجزائر تفكر بهذه الكيفية، أي وفقا لخيارات الحداثة المتزنة والعارفة، فإنها ستفكر أساسات الرسم وتحقق الفرق التاريخي والنفسي بين Je و Moi† إنه فرق يسقط من حساباتها الكثير من المغالطات ويسمح بتحريك تنظيمات ذاتية على المستوى الإجتماعي تراهن بلا شك على استيعاب تاريخية الإسم، وعلى جعل الخيال قانونا يوميا لإنتاج المعنى، وبالتالي تأجيل تلك السوء تفاهمات التي طالما غذت ذهنية جيل يقتات من الحنين إلى تفاضليات مريضة، غير عابئ بما هو عليه هذا المكان من شروخ وتململات الحداثة رهان معقد وضحيته الأولى هي بداهة الوجود، ولذلك فإن الإشتغال عليه يرهق تضامنات بكاملها ويقصي هشاشاتها التي نمت في حضن الواحد والأب والفكرة. إن المسألة معقدة وهي شبيهة بتلك الدمية الروسية، ولكنها تتوفر على عناصر لتجليات لها في حصاد التنوير المعمم أفقيا وعموديا الكثير مما ينبغي أن نفرح به.

إن اللسان لا يساوي التقنية والجسد لا يساوي الكمبيوتر، ولكن الحاجة إلى وعي هذه الإختلافات ضرورية لتفادي بؤس ووهم التحديث. إن هذا الأخير يتم على هامش وداخل ما يمكن تسميته بالتقنية التي تفكر [La technique qui pense] لنبدأ في هذا المسعى ولنكف عن اعتبار المعنى سجنا للمصائر، ونرى إلى الذي سيجيء من زاوية القوة التي يتمتع بها واجب المفهوم ضمن المراجعات التي يتعرض لها نسق الحداثات هنا وهناك.

وهران : أوت 1974

دراسات أدبية

عن الأدب الجزائري

أحمد منور

ملامح القصة القصيرة الجزائرية في السبعينات



نجيب العوفي

حضور الأدب الجزائري في المغرب

جمال فغالي

أعوان السرد في رواية رمل المايا

حضور الأدب الجزائري في المغرب (مقاربة وصفية أولية)

نجيب العوفي

العنوان المقترح لهذه المداخلة التي انتدبتني لها (الجمعية الثقافية الجاحظية) تكليفاً وتشريفاً، هو بالنص والفص، حضور الأدب الجزائري في المغرب.

عنوان مغر ومورط في آن، يستدرجنا إلى موضوع بالغ الأهمية والحساسية، يتعلق بمسألة التواصل الثقافي والإبداعي بين البلدين الشقيقين، المغرب والجزائر، ويفتح أمامنا أفق انتظار واسع مثقل بالأسئلة والتداعيات، حول طبيعة هذا التواصل ودرجته وحظوظه، وتجلياته وإشكالاته.

وهو عنوان أو موضوع لايكتمل إلا بشقه الضمني وهو حضور الأدب المغربي في الجزائر.

فالحضوران معاً يشكلان وجهين لعملة واحدة، أو تنويعين على وتر واحد، ولايستقيم لأحد الحضورين حضور، فيما أتصور، بمعزل عن الآخر. وماينسحب على أحدهما سلباً أو إيجاباً، ينسحب على الآخر.

أعني بهذا تحديداً، أن أيّ حديث عن حضور الأدب الجزائري في المغرب، يقتضي أو يتوجب أن يقتضي حديثاً موازياً ومحايثاً عن قسيمه ونظيره، وهو حضور الأدب المغربي في الجزائر، وذلك بحكم العلاقة التواصلية والجدلية المفترضة بين الطرفين، وبخاصة في حالة المغرب/ الجزائر كأقنوم تاريخي وجغرافي وعائلي وثيق الأواصر ملتحم الشاغل والمشاعر.

والسؤال الأولي والفضولي الذي يبادهنا به عنوان هذه المداخلة بادئ ذي بدء هو/ هل ثمة فعلاً، حضور للأدب الجزائري في المغرب؟!

هنا، وعلى عتبات السؤال الأولي، تتبدّى حساسية وجراحة الموضوع الذي تجازف هذه المداخلة/ الورقة بخوض غماره وارتياد مغاليقه وأسراره.

هنا يكتسي الموضوع طابعاً إشكالياً ويغدو سؤالاً مورطاً. ذلك أننا إن نفينا هذا الحضور، وقعنا في إثم العقوق والنكران. وإن أثبتنا هذا الحضور كان علينا أن نشفع هذا الإثبات بالقرينة والبرهان. وهو أمر يقتضي دقة فائقة في التحري والإستقصاء، تجنباً لكل سهوة أو هفوة قد تسيء إلى عملية الإثبات.

وفي إمكاني القول مبدئياً، وفيما يشبه المصادرة الأولية، بأن الأدب الجزائري في المغرب، حاضر وغائب في آن. وتلك بحق، هي مفارقة هذا الأدب.

تلك هي صميم إشكاليته، على مستوى سوق تداوله وتلقيه.

هو أدب حاضر في المغرب، على هذا النحو أو ذاك، وإلى هذا المدى أو ذاك، وبهذه الطريقة أو تلك، بحكم أنه ليس مجهولاً تماماً في المغرب، وأن له أصداء وتراجيع متفاوتة في الذاكرة الثقافية المغربية. وتبدو هذه الأصداء والتراجيع جلية وبينة عند فئة مخصوصة ومحدودة من القراء المغاربة، وهي فئة القراء المهتمين بتطور الأدب المغاربي والمنفتحين على عوالمه أو بعض عوالمه. وواضح أني أعني هنا النخبة المثقفة التي تشكل الثقافة هاجساً أساسياً لديها، في حل من الحدود والسدود القطرية والإقليمية. ولربما عنيت في هذا الصدد بالأحرى، نخبة النخبة وصفوة الصفوة.

وهو أدب غائب أو شبه غائب في المغرب، إذا احتكمنا إلى الكثرة الكاثرة من القراء المغاربة، وقمنا باستقراء سوق القراءة وجس أنباضها. وتبدو النتيجة مؤذية ومؤلمة حقاً، حين يقف عموم القراء المتأدبين المغاربة حيارى خُرساً أمام مقولة الأدب الجزائري المعاصر، لايعرفون أصله من فصله ولايستبينون خيطه الأبيض من خيطه الأسود، من حيث يَصنع ويبدع هذا الأدب على مرمى حجر منهم. هذا في الوقت الذي يعرفون فيه غير قليل عن خبايا آداب تفصلهم عنها قارات ومحيطات.

وتلك مفارقة أخرى محزنة، غنية بالدلالات والمرارات. فمن يلوم من، في المطاف الأخير.؟

ومأعلة هذه «القطيعة» القسرية والتعيسة رغم قرب الدار واستحكام الرحم والجوار؟!

لا مراء في أن علة هذا الوضع الثقافي الشاذ والمختل، ترتد أول ماترتد، إلى ذلك الداء العضال الذي ماينفك ينخر الجسم العربي من الماء إلى الماء، كابحاً لطاقاته وموهناً لحيويته ومناعته، ألا وهو هيمنة «السياسي» على «الثقافي» وتحكمه فيه، ترهيباً أو ترغيباً، وفقاً لأحوال طقسه ومزاجه، وهي أحوال كما نعلم شديدة التقلب والتلون، على نحو تراجيكوميدي يثير الضحك والبكا يريد الجسم العربي أن يتحرك ثقافياً على سجيته وهواه، وينعش دورته

الدموية الطبيعية، حتى إذا اشتكى منه عضو تداعت له بقية الأعضاء بالسهر والحمى. وتأبى السياسة إلا أن تعطل هذه الدورة. تأبى إلا أن تقطع أوصال هذا الجسم طرائق قدداً، حتى لايحس عضو بالذي يليه.

وكذلك كان، حقيقة لا مجازاً.

وفي حالة المغرب/ الجزائر، مدار هذه المداخلة، كان لهيمنة السياسي على الثقافي وتهميشه له، مضاعفات وبيلة مانفك نعاني من أوزارها وآثارها حتى اليوم. فالآباء يغرسون والأبناء يضرسون.

كانت حرب الحدود المفتعلة أو بالأحرى حرب الرمال المفتعلة سنة 1963، شؤماً على البلدين. إذ مأن انطلقت حمائم الحرية والسلام في سماء البلدين عقب استقلال الجزائر، حتى داهمها غراب البين ناشراً ظلاله الكالحة الثقيلة.

ولم تكد حرب الرمال تضع أوزارها، حتى تلتها حرب نفسية وسياسية أخرى ناجمة «عن مسألة الصحراء الغربية سنة 1975.وكانت شؤماً ثانياً على البلدين، استطال ليله وويله بالقياس إلى سابقه.

وفي كلا الحالين، كان الساسة وأولو الأمر منا، يخططون ويبرمجون. وكانت شعوبنا تؤدي الثمن غالياً، بدمائها وأرواحها واستقرارها. وكانت الثقافة أيضاً وأساساً، كبش فداء في هذه المحرقة/ المهزلة، حيث انتصب بين الإخوة المثقفين والمبدعين في كل من المغرب والجزائر، مايشبه جدار برلين سياسي يحول دون التواصل والتفاعل، وأصبح كل من المبدع المغربي والمبدع الجزائري قريبين على بعد وبعيدين على قرب. وكم من أسماء جزائرية مبدعة كانت تطرق أسماعنا طرقاً على امتداد السنوات الماضيات، ونتشوق إلى إبداعها ونتاجها، فيعز الوصال.

كنا نشتم هذه الأسماء ولانفتركها. فهي منا روحياً، أقرب من حبل الوريد، لكنها، سياسياً، أنأى من الرجع البعيد. لست هنا أنكأ ماضياً ولّى لأجل النكء، ولا أستثير شجوناً ثاوية لمجرد الاستثارة، بل لأقدم فحسب تبريراً وتفسيراً للظاهرة/ المفارقة التي أومأت إليها منذ قليل، وهي غربة الأدب الجزائري لدى عموم القراء المغاربة، من طلبة ومتعلمين وأوساط مثقفين، وهم المجال الحيوي لفعل القراءة والتلقي، حسب السوسيولوجيات الحديثة للقراءة والكتابة.

هذه الظاهرة/ المفارقة إذن، هي وليدة ظروف قسرية وهجينة، لم يكن للقارئ المغربي ولا للكاتب الجزائري ضلع فيها. هي ثمرة مرة لغراس خاطئ وسيئ. هي أنصع دليل على جناية السياسي على الثقافي وتقزيمه له.

وليس كالتاريخ حكَمًا وفيصلاً في تفسير وتقليل مثل هذه الظواهر الشاذة المعقدة. وتصحيح مثل هذه

الظواهر وردُّها إلى جادتها وسويتها، يبتدئ بمعرفة جذورها واستيعاء صيرورتها الخاطئة، أي يبتدئ باستنطاق حفريات التاريخ وجلاء غوامضه، وكشف الملابسات الملتبسة التي أفرخت مثل هذه الظواهر. وأن تعي فقد بدأت تتحرر، كما قال ماركس.

وثمة الآن، بلاشك، نية صادقة وجهد جاد لتصحيح الوضع ورأب الصدع ووضع عربة الثقافة المغاربية على سكتها الطبيعية. وهو جهد بدأ يؤتي بعض أكله فعلاً في السنوات الأخيرة، لكنه مع ذلك يبقى جهداً شاقاً شائكاً، يحتاج إلى عزائم ماضية وعقول يقظة وواعية، لأن السياسي، كما عودنا دائماً، سرعان مايلتف على هذه الجهود ليجهضها في مهدها. ولقائي معكم هنا يأتي في هذا السياق.

والأدب الجزائري الذي أستقطر حوله هذه التأملات والملاحظات هو، من قبل ومن بعد، أدبان/ أدب مكتوب باللغة العربية وأدب مكتوب باللغة الفرنسية.

وهذا مظهر آخر لمعاناة الأدب الجزائري وتوزعه اللساني، لانعدم له نظيراً في الأدب المغربي، لكن بنسبة أقل آيلة إلى التلاشي بالتدريج.

وعلى الرغم من أن مناط اهتمامي في هذه المداخلة، هو الأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية، فإن للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، مع ذلك، شأناً خاصاً وحساساً لايمكن إغضاض الطرف عنه والمرور عليه مر كرام. ذلك أن الأدب الجزائري المفرنس كان سبّاقاً إلى الظهور والإنتشار والإشعاع من الأدب الجزائري المعرب، وذلك لظروف كولونيالية معقدة وممنهجة لاتخفى عن الأذهان.

وألفت الانتباه هنا إلى أنني أستعمل كلمة «أدب» في مساق هذه الملاحظات والتأملات، بدلالتها الجمالية والنسقية الحديثة التي تحيل إلى أجناس وخطابات محددة، كالشعر والقصة القصيرة والرواية والمسرحية والنقد، والتي تسمها معاً سمة «الحداثة» والجدة الأدبية والإبداعية. بهذا المعنى يغدو الأدب الجزائري المفرنس سباقاً إلى الظهور والانتشار، باعتباره الحامل اللساني الأول لأشواق وتطلعات الإبداع الجزائري المعاصر، والقيثارة المستعارة التي وقع عليها لحونه وشجونه. ولعل هذا أحد الأسباب العميقة التي جعلت وتجعل الكتابة باللغة العربية «معجزة في الجزائر» على حد تعبير الباحث والشاعر أبي القاسم سعد الله(1)، نظراً لاستفحال اللسان الفرنسي وإيغاله في سرقة اللسان العربي وحتى اللسان الدارج. وقد نضيف إلى هذه الملحوظة تعقيباً واستطراداً، بأن الكتابة باللغة الفرنسية، إبان سنوات الجمر والاحتلال الطويلة، تعد أيضاً معجزة في الجزائر، وشكلاً من أشكال التحدي الثقافي والمعنوي، ولو بلغة المستعمر ذاتها.

يقول الباحث المغربي الدكتور عبد

الكبير الخطيبي في كتابه (الرواية المغاربية (Le roman maghrébin) الصادر بالفرنسية عن ماسيرو سنة 1968، والمترجم إلى العربية بقلم محمد برادة سنة 1971/

| فمن المعلوم أن الأدب، بالنسبة للجزائريين، لم يكن له وزن أمام مذابح سطيف، وقالمة، أو أمام الانتفاضة الحاسمة يوم فاتح نوفمبر. وبإمكاننا أن نبتسم الآن حينما نعيد قراءة تلك الجملة التي كتبها جاك سيناك «إذا كان الشعب الجزائري يخوض الحرب فلأنه أيضاً يطالب بالحق في شعره، وبحقوقه في الشعر»(2).

أستشهد هنا قصداً بكتاب (الرواية المغاربية) للخطيبي، لأنه، في حدود علمي، أول كتاب مغربي ذي طابع منهجي، يهتم بقراءة وتحليل نماذج من الرواية الجزائرية المفرنسة، في قرن واحد مع نماذج من الرواية المغربية والرواية التونسية، مفرنسة ومعربة. وشكّل الكتاب بذلك، أول صدى مسموع ومدون لحضور الأدب الجزائري في المغرب، والنماذج الروائية الجزائرية التي قرأها الخطيبي هي لكل من/ مولود فرعون ومولود معمري ومحمد ديب وآسيا جبار ومالك حداد وكاتب ياسين وهنري كريا. كان لهذه الكوكبة من المبدعين الجزائريين، على نحو خاص، حضور معين في الساحة الثقافية المغربية، على امتداد الستينات والسبعينات. كانوا معروفين لدى القارئ المغربي المثقف ومقروئين من لدنه، وذلك لسببين/ أولهما أنهم كانوا يمثلون «نجوم» الإبداع الجزائري المعاصر ونماذجه الاستثنائية. كانوا يمثلون مفارقة : أدباء جزائريون ينفثون لواعجهم وهمومهم بلغة المستعمر ويكتبون أدباً «هجيناً» وجديراً بالقراءة. وثانيهما أنهم كانوا يكتبون باللغة الفرنسية. والفرنسية في حد ذاتها سلطة وجواز مرور إلى كل الجهات، دونما ضابط أو رابط.

وإذا كانت الكتابة باللغة الفرنسية إبان سنوات الاحتلال الطويلة والوبيلة «معجزة» كما أسلفنا وشكلاً من أشكال التحدي والتصدي، فإن الاستمرار والإصرار على الكتابة بها بعد الاستقلال، يغدوان «مهزلة» وشكلاً من أشكال النكوص والنكول بالمفهوم الفرويدي الموسع.

وانطلاقاً من قناعتي الخاصة، أعتبر الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية بعد الاستقلال، كصنوه المغربي، وليداً «هجيناً» إن لم أقل «خلاسياً» يفتقد دفء الأبوة والهوية، إذ يفتقد هوية اللسان والعبارة. واللغة، كما قال هيدجر، هي مسكن الذات وموئلها الحميم. ولقد عانى كبار الأدباء الجزائريين المفرنسين من لواسع هذه «الشيزوفرينيا» اللسانية واستشعروا فداحة هذا التناوح والمزدوج بين مايختلج به الوجدان ومايختلج به اللسان. فتوقفوا عن الكتابة أو جاهروا بما يفيد معاناتهم وعدم رضاهم.

نستحضر هنا الموقفين الجريئين لكل من مالك حداد ومحمد ديب. يقول مالك حداد بعد توقفه عن الكتابة عشية 1962/ [أرفض أن أكتب بلغة أشعر أني منفي فيها.](3) ويقول محمد ديب في رسالة له إلى المثقفين الجزائريين/ | إن الذي يكتب بلغة غيره كمن يوجه إلى صدره رصاصة. إن المخيلة الغربية تضعنا في رتبة أدنى من الخادمات البرتغالية.](4).

ونثمن في هذا الصدد أيضاً الموقف الأدبي الشجاع للكاتب الجزائري رشيد بوجدرة الذي كتب روايته (التفكك) بلغة عربية جميلة، بعد ست روايات بالفرنسية. لقد وعى هؤلاء المبدعون الكبار، بأن الجزائر عربية ولا يمكن أن تكون إلا عربية، ولا يمكن أن تتكلم إلا عربية. ولا بدع، فالثورة الجزائرية الماجدة والصامدة، بقدر ماكانت ذياداً عن أرض الجزائر، كانت ذياداً أيضاً عن عروبة الجزائر. وأستحضر هنا الكلمات المضيئة التي سطرها الباحث الجزائري أبو القاسم سعد الله سنة 1966 في مقالة له بعنوان (الجزائر والقومية العربية) مضمنة في كتابه (منطلقات فكرية). يقول بالنص/ | والنتيجة هي أن مقاومة الشعب العربي في الجزائر منذ 1830، تعتبر أول مظهر من مظاهر القومية العربية بمعناها الحديث. وهكذا فباستعمال المنطق التالي يمكن التوصل إلى هاتين المعادلتين :

المعادلة الأولى :

(أ) كانت الجزائر عام ١٨٣٠ جزءاً من الوطن العربي.

(ب) كل اعتداء على جزء من هذا الوطن يعتبر اعتداء على كله.

(جـ) إذن، فالاعتداء على الجزائر اعتداء على الوطن العربي.

المعادلة الثانية :

(أ) المقاومة في الجزائر التي تلت الاحتلال الفرنسي كانت رد فعل ضد الخطر الأجنبي.

(ب) كل حركة مقاومة عربية ضد الخطر الأجنبي هي حركة قومية.

(جـ) إذن فالمقاومة العربية في الجزائر حركة قومية.

ومن هنا يظهر أن الجزائر كانت مركز ميلاد القومية العربية وأن عام 1830 كان عاماً حاسماً في التاريخ العربي الحديث](5). هل ترانا هنا، نحيد من حيث لانحتسب عن محور موضوعنا (حضور الأدب الجزائري في المغرب)، ونجنح بعيداً لنستعيد أحلامنا القومية الذابلة، بحرارة الكلمات؟!

ليس الأمر كذلك. فنحن واقعون في صلب الموضوع ومسوقون بقياده و الحديث ذو شجون.

والأدب الجزائري المكتوب بالعربية، هو الذي سيستعيد للجزائر هويتها العربية الحق، بعد أن استعادت لها الثورة هويتها الترابية والوطنية. هو الذي سيفك الحبسة والعجمة واللكنة عن اللسان الجزائري، ويطلقه بأعذب

وأشجى المعزوفات والتغاريد.

وأول ماشنّف أسماعنا، في المغرب من معزوفات وتغاريد هذا الأدب الجزائري العربي الناهض، الذي بدأ يسوي نوتاته على الألسن والأقلام، هو صوت الشاعر الفحل مفدي زكريا، الذي يعد بحق صنّاجة الثورة الجزائرية ومفجر كنوز الحرف الجزائري العربي وسط طوفان الفرانكفونية. كان ذلك أواخر الخمسينات وأوائل الستينات. وكانت قصائد بل حمم ديوانه الملحمي (اللهب المقدس) تلهب الأسماع والألسن والأفئدة، وتقدم صورة صوتية جديدة وجهيرة للثورة الجزائرية وللإبداع الجزائري في آن، كان الرجل اكتشافاً جميلاً بالنسبة إلينا. فهاهي ذي الجزائر الغارقة في اللهب المقدس من جهة، وطوفان الفرانكفونية العرم من جهة ثانية، تستطلع شاعراً عربياً أصيلاً يُسامت شعراء العرب ويوقع على وتر الثورة أنغاماً إبداعية جديدة مستلة من صميم هويتها وأصالتها ولهاتها. وكانت قصائده لذلك من محفوظات تلامذتنا وطلابنا خلال هذه الفترة. وقد ظل الإسم عالقاً بالأذهان إلى اليوم، كأحد «إحيائيي» وباعثي الشعر العربي في الجزائر. ولعله كذلك، في المنظور الجزائري. فبقدر ماكان الرجل يشدو للثورة الجزائرية بلسان عربي مبين، كان في الآن ذاته يرهص ويؤسس لثورة ثقافية وأدبية جديدة في الجزائر. كان القطر الذي يسبق الغيث.

وبعد استقلال الجزائر وسكون اللهب المقدس، بدأ الأدب الجزائري العربي الحديث يفرك أعينه للنور الجديد، ويتلمس أولى خطاه على الطريق. وبدأت معالم الخارطة الأدبية تتضح بالتدريج. فتوالدت وتوالت الأسماء والدلاء، وتكاثرت النصوص والخطابات، مابين شعر وقصة ورواية ومسرح ونقد وتنظير وتأريخ. ونشطت بالتدريج حركة الطبع والنشر مابين جريدة ومجلة وكتاب. وقد كان من المفترض بل من المفروض أن يمتد هذا الإشعاع الأدبي الناهض إلى البلد الجار والمتاخم/ المغرب. كان من المفترض بل من المفروض أن يكون لهذا الأدب الوليد حضور ما في المغرب، والأقارب أولى.

بيد أن الظروف السياسية السيئة التي كدرت صفو البلدين منذ ١٩٦٣، حالت دون ذلك التواصل الثقافي والروحي الحميم بين البلدين، وفرضت على كليهما أن يدور في فلكه الخاص، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وهكذا بقينا طوال الستينات والسبعينات لا نلتقط من حركية الإبداع الجزائري سوى أصداء خافتة وظلال باهتة، لاتكاد تغني وتسمن من جوع، كنا لا نلتقط منه سوى ماتجود به بعض المجلات الشرقية وبعض دور النشر العربية، بين حين وآخر. أي أننا كنا نلتقط أصداء الأدب الجزائري بـ «وسيط» غير جزائري.

ويهمني هنا أن أحكي تجربة شخصية بسيطة ودالة في هذا السياق، ذلك أني إلى أواخر الستينات لم أكن قد قرأت شيئاً منتظماً ودالاً من الأدب الجزائري، فيما خلا ديوان زكريا الآنف الذكر، وبعض مقالات عابرة. وفي إحدى الأماسي الشتوية وأنا أغشى مكتبة عتيقة منزوية في أحد الأزقة الشعبية في مدينة تطوان، وقع بين يدي صدفة كتيب جزائري أحمر اللون يحمل عنوان (نماذج بشرية) لمؤلفه أحمد رضا حوحو من سلسلة (كتاب البعث) وكان يحمل تاريخ 1955، وقد أدفأني اكتشاف هذا الكتيب في تلك الأمسية الشتوية المقرورة حين قرأت اسم الجزائر بين صحائفه. وأتيت على صوره القصصية ليلتها مباشرة. وفرحت بالاكتشاف والقراءة. وقد ظل هذا الكتيب الجزائري يتيماً أو شبه يتيم في مكتبتي، إلى أن آنست وحشته بعدئذ كتب جزائرية وافرة من دور نشر عربية، منذ أواسط السبعينيات حتى الآن.

أخلص من هذه الواقعة الشخصية والبسيطة، إلى مسألة أساسية وجوهرية في موضوع هذه المقاربة المتعلقة بحضور الأدب الجزائري في المغرب. ذلك أن أي حضور أدبي في أي مكان وأي زمان، يشترط ويقتضي بداهة قنوات ووسائط لهذا الحضور. هذه القنوات والوسائط يمكن إجمالها واختزالها فيما يلي/

- الكتاب
- المجلة
- الجريدة
- الملتقيات الثقافية
- التواصل الإعلامي
- التواصل الجامعي.

وقبل أن نسأل عن حضور الأدب الجزائري في المغرب، يتوجب بادئ ذي بدء، أن نسأل عن مدى حضور هذه القنوات والوسائط التي لايستقيم حضور في غيابها، فهي معابر وجسور كل حضور.

ومن المؤسف حقاً، أن الكتب والمجلات والجرائد الجزائرية تكاد تكون منعدمة إن لم أقل إنها منعدمة فعلاً في السوق الثقافية المغربية، هذا في الوقت الذي تمتلئ فيه رفوف المكتبات وواجهات الأكشاك بكتب ومجلات وجرائد من كل فجّ عميق. وهذا أيضاً في الوقت الذي نهلل فيه لوحدة المغرب العربي، وللإتحاد المغاربي. وصدق شوقي/

حرام على بلابله الروح/ حلال على الطير من كل جنس.

نحن نعلم أن في الجزائر مؤسسات نشطة ومحترمة للطبع والنشر، / نذكر منها على سبيل المثال/

- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- المؤسسة الوطنية للكتاب.
- المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار.

- دار البعث بقسطنطينة.

إضافة إلى/

- ديوان المطبوعات الجامعية.

ونحن نعلم أيضاً، أن هذه المؤسسات قد احتضنت وأفرخت للسوق أهم عصارة الأدب الجزائري الحديث. احتضنت أهم الأسماء، بيد أن القارئ المغربي لم يتعرف مؤخراً على الطاهر وطار وواسيني الأعرج وعبد الملك مرتاض ومحمد مصايف وأبي القاسم سعد الله وصالح خرفي ومحمد بلقاسم خمار وعبد الله خليفة الركيبي ومحمد ساري وعبد الحميد بن هدوقة والأدرع الشريف وحسين خمري والأقلام النسوية أحلام مستغانمي ودليلة مرسلي وكريستيان عاشور وزينب بوعلي ونجاة خدة ويوبا ثابتة إلا عن طريق/ دار الهلال (القاهرة) ودار الحداثة، ودار العلم للملايين، ودار ابن رشد (بيروت) والدار العربية للكتاب (ليبيا- تونس)، ومنشورات اتحاد الكتاب العرب، ودار الجرمق (دمشق)... إلخ.

أو عن طريق مجلات مثل/ الحياة الثقافية- الآداب- دراسات عربية- وكلمات... إلخ.

وحتى مطبوعات الجمعية الثقافية الجاحظية التي تنفث هذه الهموم في كنفها وضيافتها، لا تصل إلا لمن رحم ربك.

ومعذور هذا القارئ المغربي، إذن، إن جهل بقية الأسماء المبدعة الفاعلة في حقل الأدب الجزائري، شعراً ونثراً. وهي أسماء لها جميل العطاء، خاصة في الشعر والقصة القصيرة، أمثال أحمد حمدي ويوسف سبتي وعياش يحياوي- وبوزيد حرز الله- وحمري بحري- وربيعة جلطي وعمار مرياش (في مجال الشعر)، وأمين الزاوي- ومحمد صالح حرز الله- وعمار بلحسن- وأحمد منور- ومرزاق بقطاش- وجيلالي خلاص- والحبيب السائح (في مجال القصة والرواية)...

ذلك أن هؤلاء وأمثالهم لم تواتهم قنوات ووسائط المرور والحضور، ولايكاد يعرفهم ويقرأ لهم سوى القلة القليلة من القراء. سوى النخبة التي تتلقى نتاجاتهم بهذه الطريقة أو تلك، وكأننا مقبلون أو مجبرون في وضع كهذا، على التداول «السري» للإبداع، كما تتداول المناشير السرية المحظورة.

من هنا نستعيد ماسبق أن ذكرناه، من أن الأدب الجزائري حاضر لدى النخبة والخاصة أكثر من حضوره لدى عامة وجمهور القراء.

ذلك ماعنيناه من أن الأدب الجزائري حاضر وغائب في آن، في المغرب.

ومع ذلك، فإن هذا الحضور المحدود والجزئي، على المستوى الكمي، قد ترك أثراً عميقاً وصدى باهراً، على المستوى الكيفي والأدبي- وأخص هنا بالذكر، وعلى سبيل المثال، الأثر العميق والصدى الباهر اللذين تركتهما، الروايات الرائدة والرائعة لكل من

الطاهر وطار/

- اللاّز- الزلزال- عرس بغل- الحوات والقصر- العشق والموت في الزمن الحراشي.

وواسيني الأعرج/

- وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر- نوار اللوز- ماتبقى من سيرة لخضر حمروش.

وعبد الحميد بن هدوقة/

- ريح الجنوب- نهاية الأمس- بان الصبح- الجازية والدراويش.

وجيلالي خلاص/

- نوارس الشفق- نسمة بحر- رائحة الكلب- حمائم الشفق.

وأيضاً، البحوث والقراءات الأدبية الجادة والجديدة لكل من عبد الملك مرتاض- وحسين خمري- ومحمد ساري- ورشيد بن مالك- ومصطفى فاسي- ومخلوف عامر- ومحمد بوشحيط- وأحمد شريبط... ولعبد الملك مرتاض، خاصة، ذكر حسن في وسطنا الجامعي والأدبي، وقد ساعده على ذلك، علاوة على كفاءته وألمعيته النقدية، اختراقه للسياج الإقليمي على مستوى طبع ونشر أعماله الأدبية، كما هو حاصل بالنسبة لقيدوم، الرواية الجزائرية وسفيرها المتجول، الطاهر وطار.

وقد ساهمت الملتقيات الثقافية بين الأدباء الجزائريين والمغاربة، بدءاً من الثمانينيات فصعداً، في ردم الهوة وتجسير الفجوة بين هؤلاء الأدباء، وعوضت إلى حد، ذلك الفراغ القاحل الناتج عن غياب الكتب والمطبوعات. وقد اضطلعت هذه الملتقيات الثقافية بوظيفة مزدوجة، يتمثل شقها الأول في تحقيق التواصل الأدبي بين الطرفين على مستوى الأعمال والنصوص، ويتمثل شقها الثاني في تحقيق التعارف المباشر والحميم على مستوى الذوات والشخوص، مما أتاح فرصاً ثمينة لتبادل الآراء والتجارب، وتطارح الهموم والشجون فوق طاولة واحدة، وبلا حسيب أو رقيب. ونعيد إلى الذاكرة هنا، أن المؤتمر التأسيسي لإتحاد كتاب المغرب المنعقد بالرباط سنة ١٩٦١، كان في نواته وأصله، مؤتمراً تأسيسياً واستراتيجياً لاتحاد كتاب المغرب العربي، الذي ضم آنئذ كلاً من المغرب والجزائر وتونس وليبيا. وقد مثل الجزائر في هذا المؤتمر الفقيد مولود معمري الذي تشاء الصدف أن يرحل عنا، وهو في طريق أوبته من آخر ملتقى أدبي يحضره بين الأدباء الجزائريين والمغاربة في وجدة سنة ١٩٨٩، وقد رحل الرجل، وجزء صغير من حلمه الكبير آخذ في التحقق.

كان هذا المؤتمر التأسيسي هو الملتقى الرمزي الأول بين الأدباء المغاربة قاطبته، كان نواة وبؤرة لمشروع ثقافي نبيل وجليل. ومن أسف مرة أخرى، فإن لوثة السياسة أودت به في مهده وفرطت عقده. وعاد كل إلى

بلده خاسئاً وهو حسير.

وقد كان لابد من انتظار طويل، امتد إلى أواخر الثمانينيات، لتعود المياه المحبوسة إلى مجاريها الطبيعية ويتجدد الوصال من بعد انفصال. أعني بهذا تحديداً، الملتقى الأدبي الذي جمع بين الأدباء المغاربة والجزائريين في شتنبر 1989، بمدينة وجدة، كنقطة تماس بين البلدين، وأنا أتحدث في هذا السياق عن حضور الأدب والأدباء الجزائريين في المغرب، دونما التفات إلى الوجه الثاني المتمثل في حضور الأدب والأدباء المغاربة في الجزائر، وهو ماكرسته ملتقيات موازية داخل التراب الجزائري.

وقد كان ملتقى وجدة، بحق، تجربة فريدة من نوعها. فقد ضم إلى طاولة واحدة أدباء مغاربة يقرأون أدباء جزائريين، وأدباء جزائريين يقرأون أدباء مغاربة، وكان الملتقى بذلك، شبيهاً بالتئام الشمل العائلي من بعد طول غياب، وفرصة باهرة لاقتراح الآراء وتبادل الخبرة والمعرفة والمكاشفة.

وهكذا توزعت قراءات هذا الملتقى على الشكل التالي/

أولاً : في المقترب المغربي/

عبد الحميد عقار/ تحولات الرواية الجزائرية.

- محمد برادة/ «شرف القبيلة»، ملحمة الثبات والتحول.

- حسن بحراوي/ الرواية والواقع، قراءة في «زمن النمرود».

- محمد الهرادي/ «التفكك» : الكتابة بأفق مفتوح.

- محمد الدغمومي/ ملاحظات نقدية في «نهاية الأمس».

- سعيد يقطين/ السيرة والرواية : «نوار اللوز» نموذجاً.

- بنعيس بوحمالة/ قراءة في ديوان «الكتابة في لحظة عري».

ثانياً : في المقترب الجزائري/

- واسيني الأعرج/ «أحلام بقرة»، العجائبية/ التأويل/ التناص

- مخلوف عامر/ «عين الفرس» واقع الحكاية وحكاية الواقع.

- رشيد بن مالك/ قراءة سيميائية في رواية «العشاء السفلي».

- مصطفى فاسي/ «محاولة عيش» والمجتمع السفلي.

- محمد ساري/ في طبيعة الصراع والرؤية للعالم في «بدرزمانه».

- الحبيب السائح/ فعل الذاكرة «جنون الكلمات» : قراءة في «الماء المالح».

- محمد بوشحيط/ الإحساس بضغط الواقع في مجموعة «الصمت الناطق».

- أحمد حمدي/ قراءة في «نشيد البجع» (6).

- عمار بن زايد/ موقف النقد من رسالة الأدب في الجزائر.

واضح من هذا الجدول، أن حضور الجزائريين في هذا الملتقى كان مكثفاً وراجحاً، بالقياس إلى الحضور المغربي (تسع قراءات جزائرية في مقابل سبع قراءات مغربية)، الشيء الذي ينم عن مدى حضور الأدب المغربي في الجزائر، وهو الوجه الخلفي لموضوعنا، ومدى استعداد الأدباء الجزائريين للتواصل والحوار.

وقد أتاحت لنا هذه القراءات المزدوجة كشوفاً أدبية ومعرفية غنية، ومكّننا من اصطياد عصفورين بحجر واحد، كما يقال.

ففي المقترب المغربي، كنا نقترب من المتخيل السردي والشعري الجزائري، ونلج عوالمه ونتحسس أهم تيماته وأنساقه ولغاته وإشكالاته. وسد المقترب بذلك، ثلمة فراغية قائمة وساعد على تنوير القارئ المغربي المتوسط وتحسيسه ببعض عوالم الإبداع الجزائري الحديث.

وفي المقترب الجزائري، كنا نقترب من المتصور المنهجي الجزائري وطرائق اشتغاله ونسق رؤيته وطبيعة مصطلحه وجهازه المفاهيمي. ومهما نتفق أو نختلف مع آليات ومعطيات هذا المتصور المنهجي، فقد أبان الجزائريون في قراءاتهم لنماذج من الأدب المغربي، عن كفاءات عالية في المقاربة والتحليل وفقه النصوص. وكان ثمة مشابه بين نمط القراءة عندهم ونمط القراءة عند زملائهم المغاربة. ولا بدع في ذلك، فهم على السواء ينهلون من مرجعية منهجية ونظرية موحدة، ويحاولون اصطناع واستثمار أحدث المناهج والنماذج في تحليل الخطاب.

لم أتحدث هنا، عن دور المؤسسة الإعلامية في تحقيق التواصل الثقافي والأدبي بين البلدين، لأن آخر مايمكن أن يدور في خلد هذه المؤسسة، هو أن تكرس جزءاً من نشاطها لتيسير وتثمير هذا التواصل، بل إن هذه المؤسسة كانت على الدوام، همزة قطع أكثر مما كانت همزة وصل.

كما لن أتحدث عن دور المؤسسة الجامعية في تحقيق هذا التواصل لأن جامعاتنا للأسف، فاقدة لاستقلالها الإداري والقانوني وخاضعة لمؤسسة الدولة تحصي عليها الأنفاس. والهامش المتاح لها لا يسمح لها إلا بتحقيق جزء يسير من هذا التواصل، في شكل مبادرات فردية وطوعية يقوم بها بعض الأساتذة المهمومين بهاجس التواصل، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

من هنا تبقى المبادرات الطوعية والذاتية التي يقوم بها الأدباء أنفسهم، سواء في المغرب أو في الجزائر، خير قناة وأداة لتذويب الجليد المصطنع بين الطرفين، وتمتين عرى التواصل والتفاعل بينهما. ومن هنا نشدد ونؤكد على فاعلية الملتقيات الثقافية وضرورة تنميتها وتنشيط وتيرتها، لتتخذ لها مع الأيام صيغة أشمل وأكمل وتبتعث من جديد ذلك المشروع

الوجودي التأسيسي الذي خطت أحرفه الأولى في الرباط سنة 1961، مشروع اتحاد كتاب وأدباء المغرب العربي وهي الدعوة ذاتها التي جاهر بها الأستاذ محمد بلقاسم خمار الأمين العام لاتحاد الكتاب والأدباء الجزائريين، في الندوة التي انعقدت بمدينة المحمدية حول (الإبداع والديمقراطية) في نوفمبر 1993، والتي نص فيها على ضرورة و[أهمية تكوين رابطة كتاب وأدباء المغرب [العربي، لتوحيد الجهد وتدعيم الديمقراطية والإبداع(7) والديمقراطية، من قبل ومن بعد، هي الحلقة المفقودة والضالة المنشودة في سياق مجتمعاتنا العربية الراهنة، مشرقاً ومغرباً.

هي ذلك الشيء المراوغ الزائغ الذي يأتي ولا يأتي، وفي ظني. أن الإشكال الديمقراطي والاجتماعي، بكل تعقيداته والتباساته وانعكاساته، هو التيمة المركزية الثاوية في شغاف الأدب الجزائري المعاصر، بعد تيمة الثورة الملحمية، بكل تعقيداتها والتباساتها وانعكاساتها أيضاً.

وليس الأدب الجزائري نسيج وحده في هذا.

فالإشكال الديمقراطي والإجتماعي، هو عقدة مجتمعاتنا وعقدة آدابنا وأحلامنا، من المحيط إلى الخليج، إن الديمقراطية، بعبارة، هي الإشكال الوحيد الذي يوحدنا، وهي الإشكال الوحيد الذي يفرقنا.

فتحية للأدب الجزائري.

وتحية للأدباء الجزائريين، الحاضرين منهم والغائبين. وتحية للجزائر البطلة التي خرجت من ليل الإستعمار إليهم ظافرة منتصرة، والتي لايخامرني شك في أنها ستخرج من محنها وفتنها الظرفية الراهنة، كما يخرج الذهب الإبريز، من بواتق النار.

الرباط في، 1994/1/4.

نجيب العوفي.

البرنامج\البرنامج\البرنامج\البرنامج\البرنامج\ا\ال برنامج\البرنامج\البرنامج\إحالات

1- عن/ المشهد الثقافي بالجزائر (حوار مع الشاعر الجزائري عياش يحياوي- جريدة أنوال- 1993/11/19

2- عبد الكبير الخطيبي، الرواية المغربية، ترجمة/ محمد براد منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي.ط1.

عدد2- الرباط 1971. ويلاحظ أن الترجمة الصحيحة لعنوان الكتاب Le roman maghrébin (الرواية المغاربية) وليس (الرواية المغربية).

3- عن/ عياش يحياوي في، المشهد الثقافي بالجزائر.

4- عن/ عياش يحياوي في، المشهد الثقافي بالجزائر.

5- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب- ليبيا- تونس- ط2 1982، ص.109-110.

6- نصوص القراءات، منشورة بمجلة (آفاق) المغربية. ع. 1. 1990.

7- عن جريدة (الإتحاد الاشتراكي)-2/ 1

أحمد منّور

ملامح القصة القصيرة الجزائرية في السبعينيات

ملامح عشرية السبعينيات في الجزائر عشرية متميزة على جميع المستويات، الإقتصادية والإجتماعية والثقافية، فقد عرفت على المستوى الإقتصادي نمواً كبيراً، بفضل عائدات البترول والغاز، سمح بوضع قاعدة صناعية قوية، وبتكوين جيش ضخم من العمال، يتوزع، على مختلف القطاعات الصناعية، كما عرفت هذه العشرية تطبيق مخطط الإصلاح الزراعي الجديد، أو ماكان يطلق عليه رسمياً اسم «الثورة الزراعية». وحتى وإن انتهت عملية تطبيق الإصلاح الزراعي إلى فشل ذريع، لأسباب ليس هذا مجال الخوض فيها، فإنها لعبت دوراً مهماً في تحول العلاقات في المجتمع الريفي، وفي تغيير الذهنيات والسلوكات والعادات. أما على مستوى البنية الثقافية، فقد بدأت سياسة ديمقراطية التعليم وإجباريته التي شرع في تطبيقها في تطبيقها بعد استعادة الإستقلال مباشرة تعطي أكلها، حيث أخرجت جيلاً جديداًمن المتعلمين، أصبح يشكل القاعدة العريضة من جمهور القراء، وأفرز من بين صفوفه كوكبة من الأدباء والفنانين، راح عددهم يزداد مع الأيام، وإنتاجهم ينمو ويتلاحق.

كل هذه العوامل كان لها تأثيرها المباشر وغير المباشر في رسم الخارطة الأدبية لمرحلة السبعينيات في الجزائر.

إن ماأنتجه أدباء هذه العشرية في مجال القصة يعد بحوالي خمسين

مجموعة قصصية، لحوالي ثلاثين قاصاً، صدر معظمها عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، في الفترة الممتدة مابين سنتي 1971 و1986، حيث ظل بعضها ينتظر الطبع لمدة بلغت أحياناً خمس سنوات(1).

نلاحظ منذ بداية العشرية تحولاً واضحاً واهتمامات القصاصين، من خلال الموضوعات المعالجة في قصصهم، يظهر ذلك جلياً في انصرافهم عن موضوع الثورة المسلحة الذي كان يشكل الموضوع الرئيسي لقصصهم في العشرية السابقة، إلى الموضوعات الآنية المتأثرة بما يجري في المحيط الإجتماعي والسياسي الذي كان قائماً آنذاك.

وهكذا لانعثر في مجموعة الدكتور أبو العيد دودو «دار الثلاثة» (1971) إلا على قصتين تتعلقان بالثورة المسلحة، من مجموع أحد عشر قصة(2)، ولانجد أكثر من ثلاث قصص تتعلق بنفس الموضوع في مجموعة «الكاتب» (1974) لعبد الحميد بن هدوقة(3)، ولايتناول الطاهر وطار في مجموعته «الشهداء يعودون هذا الأسبوع» (1974) موضوع الثورة إلا في قصة واحدة هي تلك التي تحمل المجموعة عنوانها، وهي لاتتناول الموضوع إلا من خلال علاقته بالحاضر(4). فالقصة كلها نقد للتجاوزات التي حدثت بعد الإستقلال باسم الثورة، وللانحرافات التي وقعت فيها الثورة باسم الشهداء.

وفي الوقت الذي غلب فيه على قصص مجموعة الدكتور دودو «دار الثلاثة» طابع الذكريات الشخصية، وتصوير أيام نشأته الأولى في الريف (قصة دار الثلاثة)، ثم أيام الدراسة في مدينة قسنطينة (يدي على صدري)، وفي فينا (سامر الحي)، نجد عبد الحميد بن هدوقة في مجموعة «الكاتب» يرتبط أكثر بالحاضر، ويولي عناية خاصة للموضوعات التي تتناول حياة الريف بشكل عام، وتصور أوضاع الفلاحين، وتذكر بدورهم الكبير في الكفاح المسلح، وتتناول أيضاً موضوع الهجرة إلى فرنسا، وهي ظاهرة اجتماعية مست سكان الريف أساساً، ونجمت عن الفقر المذقع، والأوضاع الصعبة التي كان يعيشها الفلاحون. ويمكن للقارئ هذه المجموعة أن يستنتج بسهولة أنها كانت صدى مباشراً لقرارات الثورة الزراعية التي شرع في تطبيقها سنة 1971.

أما الطاهر وطار، الذي كان سباقاً في معالجة موضوع الأرض في مجموعتيه السابقتين «دخان من قلبي»(5) و«الطعنات»(6)، فقد انتقل في مجموعة «الشهداء يعودون هذا الأسبوع» إلى نقد بعض السلوكات والظواهر الإجتماعية التي أفرزتها مرحلة مابعد الإستقلال، وتجلت تلك الظواهر والسلوكات في المهرجانات الفلكلورية التي كانت تقام هنا وهناك (رقصات الأسى)، وفي تصرفات بعض المسؤولين في الحزب والدولة (الزنجية

والضابط)، وتهافتهم على الملذات وتصيد الفرص، وفي انتهازية بعض من كانوا يسمون بالمثقفين الثوريين (اشتراكي حتى الموت)، وبعض الشعراء والفنانين (زوجة الشاعر) و(الرسام الكبير والشاعرة الناشئة).

ولأول مرة نجد في القصة الجزائرية- من خلال مجموعة وطار هذه- قصة تعني بتصوير الواقع السياسي العربي، وتنقد الوضع الذي خلفته هزيمة 1967، وذلك في قصة «الحوت لا يأكل». ومايميز هذه القصة أن كاتبها لايتبع في نقده طريقة الشجب والتنديد المباشر كما نجد عند بعض الكتاب العرب، ولكنه يعمد إلى استخدام السخرية، وإلى إبراز المفارقات الموجودة في الواقع العربي، والمسافة الشاسعة التي تفصل بين أقوال الزعماء العرب وأفعالهم.

وإلى جانب التطور الذي عرفه هؤلاء القصاصون على مستوى الموضوعات التي أصبحت تستحوذ على اهتمامهم، نجدهم يحققون، من جهة أخرى، تطوراً ملموساً على المستوى الفني، حيث استخدموا الرمز بكثرة، وبشكل موفق في معظم الأحيان، كما أظهروا براعة في تقطيع أجزاء القصة وتوزيعها توزيعاً فنياً يخرج بها عن التقطيع والتوزيع التقليديين الشائعين، وتعاملوا مع اللغة تعاملاً أفضل،وهكذا نجد لغة الدكتور أبو العيد دودو في مجموعة «دار الثلاثة» تزداد صفاء ورقة، وعباراته تصبح أكثر إشراقاً مما كانت عليه في «بحيرة الزيتون»،(7) إلى درجة الشعر الخالص أحياناً، وتعد قصة «سامر الحي» نموذجاً مثالياً على ذلك.

عبد الحميد بن هدوقة من جهته ابتعد في مجموعة الكاتب عن ذلك التصوير الرومنسي الحالم، والجمل الطويلة التي نجدها في مجموعيته السابقتين «ظلال جزائرية»(8) و«الأشعة السبعة»، (9)، فأصبح السرد لديه أكثر واقعية، وعبارته أقصر وأدق مما كانت عليه من قبل. وقد حاول في قصة «الفلاح» على سبيل المثال ، وعن قصد بيّن، أن يساوق بين إيقاع الفعل السريع في القصة وبين الجمل المعبرة عنه، فجاءت القصة من أولها إلى آخرها عبارة عن سلسلة من الجمل الفعلية القصيرة الموضوعة كلها في صيغة المضارع.

ويتأكد هذا الخط الذي راح يبتعد شيئاً فشيئاً عن موضوع الثورة ليتفاعل أكثر فأكثر مع الواقع المعيش في أعمال مجموعة جديدة من القصاصين الشباب، الذين برزوا في الساحة الأدبية على صفحات مجلة «آمال» التي احتضنت إنتاجات الشباب الصاعد وشجعه على الكتابة(10)، وكذلك جريدة «الشعب» التي فتحت صفحاتها الثقافية، وملحقها الأسبوعي الذي كان يشرف عليها الطاهر وطار، للعديد من الأقلام الشابة، ومنحت لها فرصة البروز.

من هؤلاء الشباب نجد محمد العالي

عرعار، ومرزاق بقطاش، وخلاص جيلالي، وقد تحولوا في عقد الثمانينيات إلى كتابة الرواية(11)، ومنهم أيضاً كاتب هذه السطور، والتحق بهم بعد ذلك قصاصون آخرون أمثال الأدرع الشريف، وعلاوة وهبي، ومحمد الصالح حرز الله، وعبد العزيز بوشفيرات، والعيد بن عروس، ومحمد مفلاح، وغيرهم ممن يضيق المجال بذكر أسمائهم جميعاً.

اهتم هؤلاء الشباب بنقد الواقع الإجتماعي، وصرفوا كثيراً من الجهد في إبراز التناقضات، وتشخيص الأمراض والإنحرافات الإجتماعية، وأظهروا تبرماً شديداً بحياة المدينة يذكرنا كثيراً بتبرم الرومانسيين بها.

ولايعود رفض المدينة والتبرم بها، في نظرنا إلى مفاسد المدينة، كما يبدو للوهلة الأولى، ولكن يعود إلى كون معظم القصاصين ينحدرون من أصول ريفية، نزح أهلهم إلى المدينة هروباً من جحيم الحرب أثناء الثورة، أو من أجل تعليم أبنائهم، بعد الإستقلال، تعليماً متوسطاً أو جامعياً يضمن لهم حياة أفضل من حياتهم هم، أو طمعاً في الإستفادة من رفاهية المدينة، والحصول على بعض المكاسب التي لايمكن الحصول عليها إلا فيها، وقد وجد هؤلاء الريفيون وأبناؤهم من بعدهم صعوبة كبيرة في التخلص من أخلاق القرية والتأقلم مع حياة المدينة، فانعكس ذلك في سلوكهم وفي تفكيرهم، وعبر عنه القصاصون برفضهم للمدينة وتبرمهم بالحياة فيها وبأخلاقيات أهلها.

ومايؤيد هذا الرأي ويؤكده، ذلك التجاوب الكبير الذي لقيته قرارات الإصلاح الزراعي لدى هؤلاء القصاصين في مطلع السبعينات، فقد كتبوا عشرات القصص والروايات في موضوع الأرض، وعلاقات الإقطاع التي كانت سائدة، وهجرة الفلاحين لأرضهم، ونزوحهم نحو الخارج أو نحو المدن الداخلية، وأصبح هذا الموضوع يشكل المحور الرئيسي لمعظم المجموعات القصصية والروايات التي صدرت في هذه الفترة، مثل ماكانت ثورة التحرير محوراً رئيسياً لكتاباتهم في العشرية السابقة. وقد برز هذا الإهتمام في قصص الحبيب السايح، ومحمد مفلاح، ومحمد حيدار وبشير خلف، وغيرهم كثير، في حين أننا لانجد أي اهتمام يذكر لدى القصاصين عامة عن علاقات العمل في المدينة، وحياة العمال ومشاغلهم ومشاكلهم في المصانع وورشات العمل باستثناء بعض قصص الأعرج واسيني(12)، مع أن التحول الذي حدث على هذا الصعيد كان أقوى وأعمق بكثير من التحول الذي وقع في بنية الحياة في الريف.

في هذه الفترة بدأت بعض الأسماء القصصية النسوية تظهر على صفحات المجلات والجرائد، وكانت زهور ونيسي من قبل، القاصة الوحيدة بين الرجال، حيث أصدرت مجموعتها الأولى «الرصيف النائم»(13) سنة 1967،

ونشرت مجموعتها الثانية «على الشاطئ الآخر»(14) سنة 1974. فالتحقت بها القاصة زليخا السعودي، حيث تألق اسمها ببعض القصص التي نشرتها في الأعداد الأولى لمجلة «آمال» التي أصدرتها وزارة الثقافة والإعلام سنة 1969، بإشراف الشاعر مالك حداد، وأظهرت القاصة من خلالها موهبة فذة، ونضجاً فنياً غير عادي، لكن سرعان ماانطفأت شمعتها، بوفاتها في مقتبل العمر، بنفس السرعة التي توهجت بها. ثم ظهرت، على التوالي، جميلة زنير، التي بدأت شاعرة ثم تحولت إلى القصة(15)، وهوارية بلال، المشهورة باسم «أم سهام»(16)، ونزيهة الزاوي(17).

ومن الطبيعي، بحكم أنهن نساء، أن يحتل وضع المرأة في المجتمع مكان الصدارة في قصصهن، ومن ثمة كانت معظم المشكلات التي عالجنها في أعمالهن تتعلق بالمرأة، لكن ليس المرأة هكذا بالمطلق، ولكن المرأة الريفية في الغالب، الفقيرة البسيطة، ربة البيت، أو الفلاحة، أو الخادمة، وفي وقت لاحق الموظفة، أو الطالبة، التي تعاني حسب الظروف، من اضطهاد المجتمع، أو ظلم الأقارب، أو نزوات الزوج، أو تحكم الأب أو الأخ فيها، أو من معاملة زملائها الرجال في العمل، أو من نظرة الناس إليها في الشارع، إلى غير ذلك من الحالات.

ومن هنا يمكننا الحديث عن وجود أدب نسائي في الجزائر له أدبياته وأدبياته، بدأت ملامحه تتشكل في قصص زهور ونيسي الأولى، ثم راحت تتعمق وتتجذر في الأعمال اللاحقة لهذه القاصة، وفي أعمال القاصات الأخريات اللائي التحقن بها.

ويتميز الأدب النسائي في الجزائر بكونه ذا منحى نقدي اجتماعي، يلتزم بقضايا المجتمع الكبرى، ويهدف إلى ترقية المرأة، والرفع من مستواها الإجتماعي والثقافي، حتى وإن كان هذا المنحنى لايخص الأدب النسائي وحده، فهو سمة شائعة في كل الأدب الجزائري الحديث بشكل عام، وأدب السبعينات بشكل خاص. ولهذا السبب شاع لدى الكثير من ممارسي النقد الصحفي رأي يقول بضعف أدب السبعينات على المستوى الفني بسبب عنايته الزائدة بالمضمون الإجتماعي. إلا أن هذا الرأي غير صحيح لا من الناحية المنطقية، ولا من الناحية الواقعية، فمن وجهة النظر الجدلية، لايمكن، كما هو معروف أن نأتي بأشكال فنية جديدة إذا لم تكن لدينا أفكار ومضامين جديدة، فالشكل الفني رهن بالمضمون وتابع له، ولايمكن لنا أن نبدع على مستوى الشكل إذا لم نبدع على مستوى المضامين، أما من الناحية الواقعية، وإضافة إلى ماسبق أن أوضحناه سابقاً بشأن قصص الثلاثي الرائد: دودو، وبن هدوقة، ووطار، يمكننا أن نضيف أنه من السهل على القارئ المتمعن أن يلحظ التمايز الشديد في شكل

قصص بعض الكتاب وتباين أدوات المعالجة الفنية عندهم، في نطاق المجموعة الواحدة، إلى درجة الإختلاف الكلي أحياناً. نجد ذلك بيناً على سبيل المثال في قصص عمار بلحسن، ومرزاق بقطاش، ومصطفى فاسي، وغيرهم. ويتأكد هذا التمايز أكثر فأكثر إذا أجرينا مقارنة على هذا المستوى بين مجموعة وأخرى لنفس القاص، كأن نقارن على سبيل المثال بين مجموعتي «الإبن الذي يجمع شتات الذاكرة»(18) لمحمد الصالح حرز الله و«التحديق من خارج الرقعة»(19) للقاص نفسه، أو بين مجموعتي «حرائق البحر»(20) و«فوانيس»(21) لعمار بلحسن، أو «حداد النوارس»(22) و«حكاية عبدو والجماجم»(23) لمصطفى فاسي.

إن من يجري مثل هذه المقارنة يستطيع أن يتأكد من تهافت ذلك الرأي القائل بضعف أدب السبعينيات على المستوى الفني. واسمحوا لي في هذا المقام أن أسوق كلمة كنت كتبتها ونشرتها ضمن مقال في جريدة النصر سنة 1986 عن مجموعة مصطفى فاسي «حكاية عبدو والجماجم والجبل» وكانت هذه المجموعة قد صدرت حديثاً آنذاك، حيث أقول :

«والواقع أن مجموعة مصطفى الجديدة، بالمقارنة مع مجموعتيه السابقتين (أعني الأضواء والفئران وحداد النوارس البيضاء)، تحمل أشياء كثيرة جديدة، ملفتة للنظر، ومثيرة للإهتمام، فقد صارت اللغة مكثفة ومتعددة الدلالات، وغنية من حيث الإيحاء، كما صارت الشخصيات مدروسة بعناية، وأبعادها النفسية مرسومة بصفة متقنة من الداخل،

ولذلك يحتل الحوار الداخلي المكان الأول في عملية الحكي، وينجر عنه التداعيات النفسية الكثيرة والتداخل المستمر بين الأزمنة، والتنقل السريع بين الماضي والحاضر. ويسيطر لأجل ذلك أيضاً، وفي أغلب قصص المجموعة، ضمير المتكلم، حيث يشخص البطل من ذاته شخصية أخرى يوجه إليها الخطاب». وأضيف، في مايشبه خلاصة المقارنة قائلاً :

«باختصار، يشعرك القاص بأنه يمسك بخيوط اللعبة القصصية، ويسيطر على قواعدها، ولكن، بعيداً عن أي نوع من المغامرة الشكلية الفارغة، أو القفز البهلواني الذي لاترتجى من ورائه أية فائدة إلا محاولة إبهار القارئ وكسب إعجابه بأي ثمن كما يفعل بعض القاصين.

أما من حيث الموضوعات التي يعالجها القاص، فنلاحظ، بالمقارنة دائماً مع مجموعتيه السابقتين، أن بعض الموضوعات لم تعد تحتل مركز الصدارة في قصصه، فقد اختفت أو كادت موضوعات الأرض، والهجرة، وعالم الريف بوجه عام، وحلت محلها موضوعات النقل، والسكن، والفوارق الطبقية، التي مافتئت مشكلاتها

تتفاقم في المدن، مع النزوح الريفي نحو المدن، والثراء السريع الذي ظهر على فئات معينة من المجتمع، وتغير القيم والمفاهيم الأخلاقية، وانتشار العديد من مظاهر المجتمع الإستهلاكي المستورد بصفة عامة»(24).

إنّ تأكدنا من هذا التطور النوعي الذي حققته القصة الجزائرية القصيرة في عشرية السبعينيات هو الذي يجعلنا نقول بكل ثقة، وبكل موضوعية أيضاً، أن تلك العشرية كانت من أزهى الفترات التي عرفتها القصة الجزائرية، وقد سجلت هذه القصة تراجعاً ملحوظاً ابتداء من منتصف الثمانينيات، إن على مستوى الكم أو النوع، وقد رصدت شيئاً من ذلك التراجع من خلال تتبعي لما نشر من المجاميع القصصية في سنة1989، وقدمته بعنوان «قراءة في المجاميع القصصية» وبعنوان فرعي هو «القصور عن التجاوز» في ندوة الجاحظية التي انعقدت بمسرح الهواء الطلق أيام 5، 6، 7، فبراير 1990 حول الكتاب الجزائري المنشور في سنة 1989، ونشر في العدد المزدوج 2و3 من مجلة التبيين الصادرة سنة 1990. ولاأريد أن أكرر هنا ماسبق أن قلته ونشرته من قبل، يضاف إلى هذا أن موضوع حديثنا اليوم هو «ملامح القصة الجزائرية في السبعينات»، وأتمنى أن أكون قد وفقت في رسم تلك الملامح، على أمل أن تكون هناك فرصة أخرى لتتبع ملامح القصة في التسعينات ومناقشة ماتطرحه من قضايا فنية وفكرية..

الإحالات:

(1) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ويرمز لها بالحروف الأربعة الأولى: ش.و.ن.ت وأصبح اسمها ابتداء من سنة1982 المؤسسة الوطنية للكتاب: م.و.ك. كانت تحتكر النشر والتوزيع والإستيراد والتصدير لكل أنواع الكتب والمنشورات إلى غاية 1989.

(2) د.أبو العيد دودو «دار الثلاثة»، ش.و.ن.ت. الجزائر 1971.

(3) عبد الحميد بن هدوقة «الكاتب» وقصص أخرى. ش.و.ن.ت الجزائر 1974.

(4) الطاهر وطار «الشهداء يعودون هذا الأسبوع». دار الحرية للطباعة. بغداد 1974.

(5) الطاهر وطار «دخان من قلبي» الشركة القومية للنشر والتوزيع. تونس 1962.

(6) الطاهر وطار «الطعنات». ش.و.ن.ت. الجزائر1969.

(7) د. أبو العيد دودو. «بحيرة الزيتون». ش.و.ن.ت الجزائر 1967.

(8) عبد الحميد بن هدوقة «ظلال جزائرية» دار الحداثة. بيروت1962.

(9) عبد الحميد بن هدوقة «الأشعة السبعة» الشركة القومية للنشر والتوزيع. تونس 1962.

(10) مجلة كانت تصدر عن وزارة الثقافة. أسسها الشاعر مالك حداد سنة 1969. صدر منها حوالي ستين عدداً.

(11) أصدر بقطاش لحد الآن ثلاث روايات، أما عرعار وخلاص فأصدر كل واحد منهما روايتين.

(12) الوحيد الذي كتب عن العمال هو الأعرج واسيني. راجع مجموعته القصصية «ألم الكتابة عن أحزان المنفى». المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980.

(13) زهور ونيسي «الرصيف النائم». ش.و.ن.ت. الجزائر 1967.

(14) زهور ونيسي «على الشاطئ الآخر» ش.و.ن.ت الجزائر 1974.

(15) جميلة زنير «دائرة الحلم والعواصف». م.و.ك، الجزائر 1983.

(16) هوارية بلال «الرصيف البيروتي» ش.و.ن.ت. الجزائر 1982.

(17) نزيهة زاوي درار «الطفولة والحلم» م.و.ك الجزائر ١٩٨٥.

(18) محمد الصالح حرز الله «الإبن الذي يجمع شتات الذاكرة»، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس1982.

(19) محمد الصالح حرز الله «التحديق من خارج الرقعة» دار الشهاب، باتنة- الجزائر 1985.

(20) عمار بلحسن «فوانيس». م.و.ك. الجزائر 1981.

(21) عمار بلحسن «فوانيس» م.و.ك. الجزائر 1991.

(22) مصطفى فاسي «حداد النوارس البيضاء» م.و.ك. 1984

23) مصطفى فاسي «حكاية عبدو والجماجم والجبل»، م.و.ك الجزائر 1985

(24) أحمد منور «التجديد في حكاية عبدو والجماجم» لمصطفى فاسي. جريدة «النصر» الصادرة بتاريخ 4مای 1986

جمال فوغالي

أعوان السرد في رواية رمل المالية

«إنّ التّاريخ والحقيقة ينبثقان من فم السّارد.»

- النّاقد فلاديمير كريزنسكي -

«ملاقي العلامات، مقالات في الرواية الحديثة»

ممّا تقدم أقصد المدخل التمهيدي- رأينا أن رواية «رمل المالية» فاجعة الليلة السابعة بعد الألف- رواية حداثية: تكسيراً متشظياً لعمودية السّرد والزّمن، تفكيكاً مقصوداً لمعمارية البنية الروائية، هيمنةً واضحة كأشد مايكون الوضوح لتقنية التأجيل، نزوعاً شعرياً خلاّقاً وأسلبة لغوية يتقاطع فيها الصوفي الرامز بالواقعي المبتذل غايته «تشخيص أدبي للغة»(1)، تداخلاً للأوصوات السردية وتعددا لأعوان السرد ملتحمة أصواتهم حتى لكأنها واحدة، ألوان الطيف تنعكسُ في موشور واحد هو «البشير الموريسكي» السارد والشخصية في أن ومركز المحكي وبؤرة الحكاية، توازياً للواقع والأسطوري، للتاريخي والمتخيل، هيمنة للتداعي والمونولوج الإستذكاري والمناجاة الداخلية، كل ذلك في تساوق وتناغم يمنح الرواية جدتها وطرافتها واكتنازها المعرفي وإضافتها للرواية العربية.

ولأنه - من العسير- أن نأتي على كل ذلك بالتحليل والدراسة، اقتصرنا- في هذا الفصل- على الحديث عن أعوان السرد، إنها الظاهرة المهيمنة، وليس ذلك بغريب، إذا علمنا أن رواية «رمل المالية» تنهضُ نهوضها المتخيل على عالم «ألف ليلة وليلة»، قصة إطارية تنفتح بعدها على أخرى وهذه على أخراة في متتالية من القصص يأخذ بعضها ببعض بأعوان للسرد يتعددون

تعددهم الفاعل، ينتشرون انتشارهم في المتن، يتناوبون فعل الحكي والبطولة.

يسيمون داخل المتن الحكائي، يحكون أنفسهم وحكاية البشير الموريسكي. الذاكرة والحلم والتاريخ المقموع عبر الأحقاب والأزمنة، تاريخ الفاجعة، وملحمة الإنسان الكادح في صراعه المستميت ضد السلطة القامعة والقمعية في آن والمجهضة للأحلام الفردية والجماعية على السواء!

وهكذا «فالسارد ليس مجرد مفهوم مغلق داخل النص، إنه يجسد حاجة الإنسانية إلى الرموز إلى الأساطير(-) السارد هو صوت الرموز ينهض في النص الروائي بدور المنظم للعلائق بين الوعي الفردي والوعي الجماعي. بين النزوع الرمزي لدى الجماعة وبين رمزية الواقع ورمزية اليوطوبيا، وأقوال السارد تعبر عن دورات السرد لدى الإنسانية تماماً مثلما تجسد أمواج البحر إيقاعات المد والجزر، الهدوء والصخب.»(2)

ولقد أفاض المنظرون والنقاد والدارسون والمهتمون بالسرديات الحديث عن «السارد»!، وتوسعوا في ذلك توسعهم النقدي، ومع ذلك فقد قصروا- إلى حدها- في الحديث عن المسرود له Narrataire رغم أهميته المؤكدة، ألم يقل عبد الفتاح كليطو: «فلولا المتلقي لما كان هناك سرد»(3).

إن السارد لابد منه في كل عمل سردي تخييلي، إن من أبدع وظائفه! القيام بالسرد، إنه «هذا الكائن الذي يمثل صوته محور الرواية، إذ يمكن ألاّ نسمع صوت المؤلف إطلاقاً، ولاصوت الشخصيات، ولكن بدون سارد لاتوجد رواية»(4) أليس بفضله «كانت الرواية شكلاً مدمراً ومستودعاً للإحالات»(5)، ولذلك «لجأ الروائيون المحدثون إلى زحزحة السارد عن موضعه الثابت ليمنعوه ضمن «مسافة جمالية» تتيح كشف ماهو تحت السّطح، وتمكن الذات المشروخة، المتشظية من أن تعبر عن استقلابها ومن أن تشكك في صلابة الواقع وتماسكه»(6)، مع التأكيد على أن «السارد والشخصيات أساساً كائنات من ورق. فلا يمكن أبداً الخلط بين المؤلف (المادي) للمحكي وسارد هذا المحكي»(7) للدلالة، أصلاً، على أن العالم الروائي عالم متخيل، يمنح وجوده من اللغة دون سواها، وهذه الترسيمة توضح ذلك:

النص السردي

المؤلف الحقيقي//المؤلف الضمني// السارد/// القارئ الضمني// القارئ الحقيقي

العالم المتخيل

إنّ «رمل الماية» متعددة الشخصيات الساردة، الفاعلة داخلياً للسرد، إنهم يتناوبون على القيام بالحكي، وهم أعوان للسرد على درجة كبيرة من الفعل ينهضون بمشاريعهم السردية، فالرواية في عمقها رواية فعل حتى طغى السرد وقل الوصف.

ولهذا التعدد المتداخل سنقتصر على أعوان السرد الفاعلين فعلاً سردياً ونحوياً، والذين يقوم عليهم ربهم عالم الرواية المتخيل المبني أساساً على

ثنائيات ضدية واضحة كأمتع مايكون الوضوح : القوالون والوراقون، الحكيم شهريار بن المقتدر والبشير الموريسكي، الحكماء/ العلماء السبعة ومؤرخو السلطة، دنيازاد وشهرزاد، ماريانة وماريوشا، عمال البر والقصر، الشيخ النينوي وسيدنا الخضر، غرناطة والجزائر...

هؤلاء، وغيرهم، الذين تقوم عليهم رواية «رمل المابة» تختلط أوصواتهم، ويتماهى بعضهم في بعضهم الآخر حتى تكاد لاتبين إلا بالقراءة الدقيقة المتكررة «إن الروائي هنا (مجموعة أصوات) متداخلة يصعبُ فرزها أحياناً وإسناد فعل من الأفعال أو قول من الأقوال لو استذكار من الاستذكارات لهذا الصوت دون ذاك إنها - فعلاً - هندسة لغوية (تدخل في مايسمى لعبة الكتابة)(8).

وقد اخترنا من أعوان السرد : دنيازاد والبشير الموريسكي وماريوشا والحكيم شهريار بن المقتدر، والسارد الكبّار النّاظم الداخلي «واسيني» على المستوى المتخيل.

إن الذي يجبُ أن نؤكد عليه هو أنّ الصوت الوحيد الذي يظلّ قائماً بذاته، خارجاً عن جميع الأصوات السردية الأخرى، أكادُ أقول منفياً في القصر مع الخدم والشماليين وفي ذاته ومع التاريخ وفي الرواية هو صوت شهرياً من المقتدر المعز لنفسه حاكم نوميدا- أمدوكال. إنه في وضعية السارد الخارج حكائياً، المتباين حكائياً Ex-Tradiégétique. إنه - قد يبدو عوناً سردياً فاعلاً على مستوى الحكي وموازاة بالبشير الموريسكي هذا السارد والشخصية والفاعل وموضوع الحكي في آن، إنه (الموريسكي) داخل محكائياً متماثلا حكائياً Homodiégétique- هو (شهريار) غريب عن الحكاية (على الأقل تؤويلياً)، فهو لايعرف شيئاً عن البشير ولا لمن دُنيازاد مؤطرة الحكي، وحينما أراد أن يجعل الحكاية تنتهي بما يريد أخفق إخفاقاً كلياً (موته شر ميتة مثلما التهم الحنش بوراس نفسه)، لقد كان مجبراً على معرفة الحروف السحرية التي تورث اللذة والابتهاج : «حين اختلطت الأشواق والألوان على الحكيم شهريار سألها عن سر الحرف الوهاج الذي نطق به الموريسكي الأخير مقدساً معتقاً مثل خمرة أندلسية مهربة في سفن القرصان الإيطالي»(9)

إن صوته يجيئ عبر السرد إمّا أمراً للوراقين الكذبة أو لدنيازاد أو محاورة مع البشير الموريكسي في المواجهة التلفزية أو متحدثاً مع نفسه فاضحاً لذاته ومُعرياً لدخيلته «لاشيء في هذا الولد مني. لايشبهني إلاّ في الرغبة القاتلة في الحئول على مفاتيح المدينة والبلاد. أبي حنان سينتابه وهو ينزع رأسي، قلتها لي، حتى أدخلها في سحر دهشتها الليلية. يادنيازاد. اكملي لي الليلة الواحدة بعد الألف من حكاية شهرزاد، ابتسمت ولم تمانع. قولي مالم تستطيع أختك قوله في الواحدة بعد الألف رممي التاريخ مثل الجنون الأندلسي. يقول ابن الجانين والمهابيل

إني لن أتخطى عتبة الليلة السابعة بعد الألف. سأبين له، إنهم هم الباقون داخل فراغات الليلة، وأقف أنا وحاشيتي خارج هذا الفراغ. سأتخطى إلى الليلة الثامنة لبيدأ عهد آخر.»(10)

إنه في حوار داخلي، عاجز عن المواجهة، تخفيه الليلة السابعة، وتفض مضجعه وليس له من ضحية غير دنيازاد «أبشري أيتها الأفعى. سأكون على صدرك بعد قليل، السكين ذو الحدين، ينام تحت وسادتك. عندما أصفق سيدخل الكفان. أقطع رأسك ورأس قرينك قمر الزمان وأسد فرجك إلى الأبد بقطنة ثقيلة وتنتهي الحكاية. حكايتك، وتبدأ قصة أخرى. مثلما أضاف سابقي ليلة للألف، سأضيف ليلة أبدية لرقم سبعة المشؤوم. سأنقل البلد عبر شعاع خفي إلى عصر آخر، لايستطيع أحد مقاومة إغراءاته حتى البشير الذي سيزداد جنونه وهباله»(11)

والسارد هنا (شهريارين المقتدر) في علاقة صراع ومواجهة -Confrontation- حادين بين دنيازاد وبينه من جهة لأنها مؤطرة الحكي، وبين البشير الموريسكي وبينه من جهة أخرى لأنه بؤرة الحكي والحكاية. والسلطة، أية سلطة، ترفض أن تكون تابعة ومهمشة، إنها- وقتئذ- تفقد مبرر وجودها كسلطة، ولذلك نرى شهريار الحفيد ينعت دنيازاد بدابة الغواية إسوة بأختها شهرزاد والبشير الموريسكي الذي هو- في رأيه- المجنون المغربي حيناً والخرافة حيناً آخر والمتوهم أحياناً أخرى!

إن التناوب السردي بين هؤلاء كان على أشده وخاصة بين البشير وشهريار، ولكن الغلبة كانت للبشير لأن السراد كثيرون الذين يحكون حكايته، فيظل شهريار وحيداً، يتآكل داخلياً من فصل إلى فصل حتى يوارى القبر! وقد قطع رأسه «قمر الزمان» الذي نصب نفسه «ماريشالاً» بعد أن رمى بجثة شهريار «إلى الأسود الموجودة منذ الجد الأول في أحد الدهاليز الأرضية»(12)

إن شهريار بلا قبر، ذلك أن بالصندوق «إحدى المحظيات ضبطت وهي تتأمل مشهد القتل من وراء الستائر وكتب على التابوت بخط رقعي عربي جميل وداخل مستطيل مذهب

هنا ينام ملك زمانه، حاكم جملكية نوميديا العظيم ومؤسسها، الحكيم، الحاكم بأمره شهريار بن المقتدر الذي استشهد في حادث طائرة، تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه، إنا لله وإنا إليه راجعون»(13)

دنيازاد مؤطرة السرد والحكاية، إنها العالم بكل شيء، تضيف وتعلق، وتنظم فعل السرد، أليست وريثة أختها شهرزاد، تقول حكاية البشير الموريسكي، وترتب شتات المعلومات التي وصلتها من العلماء/ الحكماء السبعة، ومن عبد الرحمن المجذوب، عنه: «ماحدث ياسيدي بعد ذلك هو أنه واصل عملية الحفر للخروج من المغارة التي كان يحلو له أن يسميها كهفاً. أخذ السطل أو ماتبقى من

السطل وبدأ يزيل كتل الأتربة حتى بدأت النسمات البحرية الباردة تتسرب بكميات هائلة مصحوبة بأشعة شمسية زرعت الكثير من الدفء في ذاكرته الباردة (...) قال له علماء المدينة فيما بعد إنه الكلب قطمير، كما وصلهم ذلك من إحدى روايات حسن البصري»(14)

و«دنيازاد، تفاحة الكتب المنوعة ولبوؤة المدن الشرسة، كانت تعرف السر الوهاج الذي يورث لذة الإنتهاج وتعرف أن البشير آخر السلالات القادم من أدخنة وهزائم غرناطة، ولاينطق عن الهوى»(15) هي ذي الساردة الإله صوتها يهيمن عبر الفصول ثم يتداخل متماهياً مع صوت البشير الذي يحكي حكايته/ فجيعته، إنها البادئة بالسرد «قالت: من أين أبدأ هذا الخوف. فالسراد يملأ القلب والمدينة ورؤوس العباد والنسيان يزحف باتجاه القصر والوجوه الحاكمة»(16). وكان البشير صوتاً لأصوات الحلاج وابن رشد وابن طفيل والصحابي الجليل أبي ذر الغفاري.

إنّ دنيازاد تحكي مالم تنقله أختها (شهرزاد) هذه التي روت تاريخ السلطة الأفاق، وهذه دنيازاد التي ظلت مغيبة أحقاباً وأزمنة تستعيد صوتها الفاعل لتعمق السؤال/ المأساة: «صرخ الموريسكي وهو يتأمل مشاهد الموت التي جاء بها سيدنا الخضر.

آخر الكذبات المدفونة بين طيات الكتب الصفراء. ياالله، ياالله لماذا تخليت عنّا؟ كانت نفسها صرخة النينوي، وقلبه صرخة الشيخ عندما خسر الدنيا التي خسرته وضعيته. قال في حمأة الحزن والشوق الذي لايجد طريقة للخروج والتجلي إلاّ لحظة الألم، بالله عليك أن تعرفنا مثلما نعرفك.»(17)

ودنيازاد تقدم وتؤخر، تقطع وتؤجل، تسبق الأحداث، ويأخذ السرد عندها أداة للتواصل وشد الإنتباه، نكلة بشهريار ونكاية بتسلطه وعجزه «ياسيد المقام العالي. كل شيء انتهى إلاّ المدينة والبحر والحائط المتآكل الذي هب إليه الموريسكي ولحقته ماريوشا، بعد أن غادرت الإجتماع السري ومارساً الحب في أحلى صوره على مرأى من البحر. قال لها في البداية. أنت لست لي. أنت للمجدوب. قالت أنا لكل المجاديب. سيدي عبد الرحمن عاد إلى رشده، وبقيت أنت المجدوب. لم يستطع أن يتفاداها، هبت نسمة بحرية فاضت المارية في عينيه- ومسحت ماريانة على رأسه بحنان. تأمل وجه ماريوشا كثيراً، أعطاها زهرة الكاسي التي كانت في يده وضعتها في فمها، قبل أن يعيدها إلى شعرها ويندفعا معاً في قبلة طويلة.»(18)

إنّ دنيازاد القائمة أساساً بفعل السرد، تحكي بواسطة محكي ثان حكاية هي غائبة عنها (حكاية البشير الموريسكي)، ولذلك فهي ساردٌ داخل حكائياً- متباين حكائياً، كشهرزاد تماماً وهي تحكي حكاية علاء الدين مثلاً(19)

ولذلك نجد دنيازاد تحكي كشاهدة ثم سرعان ماتتقمص الحكاية حتى لكأنها تصبح جزءاً منها، وإذا الضمير وقد كان «هو» يصبح «أنا»، تداخلاً لا ينِي يتردد من فصل إلى فصل. ثم يأخذ في التباعد والإنفصال بعودة البشير إلى الكهف (المغارة) ورحيل دنيازاد باتجاه لاندريه «هيا ياجليل القدر. ياقمر الزمان. الحكم لم يكتب لك... يبدو أن الزمن توقف عند هذه النقطة.

زمننا وزمن شهريار واحد يابني. كنّا نظن أنه بإمكانها تغيير مجرى الأشياء، لكن كل الأحداث تواكبت بشكل متواتر. قذائف المدافع تصل إلى القصر. وتخيلات الشماليين تقول إن المسألة مفاجئة وميئوس منها، لأن كل المعلومات المقدمة من طرف شهريار بن المقتدر لم تكن صحيحة. الحديث يطول. ولو فتحته قد لاتنتهي أبداً. هيا ياقمر الزمان. حزم نفسك نرحل. هناك طائرة مخصصة لنا ولأصدقائنا الشماليين».(20).

إنّ البشير الموريسكي الأخير وعلى مستوى سيميولوجية الإسم بشارة بالخلاص والإنتصار الذي لابد منه من محاكم التفتيش الجديدة، وإن عودته للكهف أو لكتب التاريخ، إيذان بأن التحرر من الزيف والعبودية وتعفن السلطة وإغراقها في القمع لابد أن يكون من البسطاء والضعفاء والعمال الذين لايشتد عودهم ولاتقوى إرادتهم إلاّ حينما يختمون بمنقذ، وقد كان البشير المنقذ والمخلص.

وعليه فالبشير هو أسّ السرد وجوهره، تتقاطع الأصوات السردية الأخرى وتلتقي من أجله، ويبقى هو الحكاية والحكي، إنه السارد المتماثل حكائيل Homodiégétique، إنه سارد وشخصية وفاعل وموضوع للمحكي، وهو يحكي حكايته لضمير المتكلم «أنا» فيصبح سارداً ذاتياً حكائيا Autodiégé-tique.

تتصارع داخله حيواتٌ كثيرةٌ: أبو ذر الغفاري المنفي إلى صحراء الربذة «الصحراء تملأ حلقي. الشمس فتتت العظام المتبقية. الدنيا صارحت مساحة من الخلاء. الأرض لم تعد أرضاً، والشمس لم تعد شمساً، الأرجل فقدت قدرتها على المشي. شيء مايصل حتى الأعماق، تجذبني باتجاه الأرض، لست أدري كم استمرت اللحظة، سبع سنين؟؟؟ سبعة قرون؟؟؟ سبعة أجيال؟؟؟ لا أعلم (...) مأساة قفز الربذة لم تنته بعدُ»(21)

والحلاّج «أخرجوك ياسيد العارفين، إني أراك الآن مثلما رأيتك في الإغفاءة التي دامت أكثر من ثلاثة قرون. تجر جسدك بصعوبة كبيرة. ثلاثة عشر قيْداً، من الرأس، إلى العنق، إلى اليدين والصدر والبطن والركاب والرجلين والأقدام كنت تحاول أن تستقبل موتك بأكبر فرح ممكن. وبأكبر نشوة((...)) وكان الله. وكنت أنت»(22).

والشيخ النينوي «وأنت ياسيد العشاق. النينوي ياشيخنا. كنت منهكاً ومتعباً.

ربطوك بقوة. زممت فمك. لم تقل ولاكلمة واحدة. كانت أحصنتهم وألبستهم السوداء تملأ عينيك، لكن صفاءك قهر ظلمة الليل وظلمة القبر، وظلمة الشوق المحزون. تحملت الألف جلدة. جسدك كان ضعيفاً ولكنه تعود أن يقاوم الفرحة والحزن. انسلخت قطع كثيرة، ولكنه ظل شامخاً، ويكرر دورة الكلمات الصعبة

- أنا الحق- أنا الحق. أنا الحق. أنا الحق»(23).

وابن رشد «أنينك أيها الرجل الطيب يصل القلب مفعماً بالعطش والمسك القرطبي وهم يحاولون رميك خارج أسوار المدينة التي حكمتها بالعدل والنور. قلت افصلوا ولاتجمعوا مالايجمع. لاتجمعوا بين المختلفين: عالم الطبيعة، وعالم مابعد الطبيعة. عالم الغيب وعالم الشهادة...)(24) الدنيا بعدك صارت رخيصة. ارفع صوتك يابن رشد عالياً. إنهم يتهمونك بالزندقة والإلحاد»(25)

وحمود الأشبيلي «وضعو لي وجهاً لوجه مع صديقي حمود الأشيلي كان ممزقاً بالكماشات الحامية والكلابات الحادة، صب الرصاص في جروحه. صرخ عالياً، لكنّ السماء كانت تضع الصمغ في أذنيها(...) احك عنّا في الأسواق الشعبية إن خرجت من هذا القبر حيّا.»(26)

وهكذا يتجلى البشير الموريكسي متعدداً، يستعيد ذاكرته من خلال الآخرين ومن خلال نفسه، وأحلامه واحتراقاته وعذاباته، أليسَ بطلاً ملحميّا؟!

إنّ البشير الموريكسي هو سارد التاريخ الذاكرة والحلم، وعليه فقد استعمل مونولوج الذاكرة، المونولوج الإستذكاريRémémoratif هذا الذي يُكر الزمن ولايعترف بوحداته، يتخاطاها ويتجاوزها، وأحياناً يُلغيها فتصبح الذاكرة مُطلقة.

إن البشير «مجرد قوال سرقت من قلبه مدينته التي عشقها. ويحكي الحكايات الكثيرة التي لم تفقد بريقها. وأقسم على رأس الذين سَقطوا في ذلك المساء البارد، والذين نزع لحمهم بالكماشات، أنه لن ينام على الحقيقة أبداً، تى لو خلعوا جلده ويديه ورأسه أنا ابن هذه الأسطورة التي مزقها كل واحد لمصلحته الخاصة، لم أربح منها سوى الحكاية»(27)

ولذلك ظل عبْر الرواية سارداً لهذه الحكاية، حكايته، تلك الفاجعة «النشيد الأندلسي مازالت حرارته تملأ قلبي وذاكرتي لقد أنشده جدي (...) ممزوجاً بعذابات الفجر الغرناطي الذي حين استيقظ في الصباح وجد نفسه وحيداً، وسط الفراغ(...) أنا ياسيدي منذ أن غادرتَ الكهف وأنا غارق في الرواية.»(28) وتغدُ وبذلك «رمل المايَة» رواية الحكاية بلا منازع «إن الرواية، بدون شك. لاتقول، هي نفسها، ماهي عليه، ولكنها تقول الّذي تُريده»(29)

ولقد حقّق البشير الموريكسي في سرده الّذي يريده : انتصار الحقيقة،

تعريه الكذبة والوراقين، تمجيد القوالين. ليعود أخيراً إلى الكهف، وماريومت كانت الشاهدة: «الذين رووا في الكتب القديمة عن عودته إلى الكهف لم يكونوا مخطئين أبداً.

فبالرغم من إلحاحات علماء المدينة وعمال البحر بضرورة الإستراحة عندهم إلاّ أنه أصر على مكان لم يتذكره إلاّ عندما وقف في النافذة المطلة على بحر المدينة»(30)

وظل شهيد المدينة «التي استعادت وجهها، بعد أن أخذوا تربة بيضاء ووضعوها في بوقال زجاجي كبير، وكتبوا عليه. هنا ينام الشهيد. البشير الموريكسي، قوال الأسواق الغرناطيّة»(31).

وهذه «ماريوشا» رفيقة البشير الموريكسي وصديقته، إنها السادة الشاهدة، إنها طالبة بالجامعة تدرس العلوم السياسية أحبت أستاذها، وحين اكتشفت أنه عميل للسلطة، لم تعد للدراسة أبداً وظلت تحكي حكاية الموريكسي كما جاءتها من العلماء السبعة وكما حكاها سيدي عبد الرحمن المجذوب، وكما عاشتها وهي مع البشير نفسه: «البشير ليس طفلاً ياعمي الطاووس. ليس إنساناً عادياً.» لقد خلق للعذاب. خلق لإنقاذ الآخرين من المسرحيّة السخيفة التي شيدت منذ أكثر من ثلاثة قرون. وربما أكثر من خمسة عشر قرناً. هو لايبيع الله، لإنقاذ ذاته، الله في دمه وفي عروقه، في عينيه وفي ذاكرته، في الملائكة التي لايحبها كثيراً، وفي الزبانية؛ في عيون من ريانة وفي البحر الذي شقه وحيداً، بالرغم من جهنمية القرصان الإيطالي.»(32)

إنها رفيقته منذ جاء من كهفه، وتحملت ماريوشا عبء الحكاية عنه، هي التي أحبته بكل ماتملك، وغنّت له إيقاع «رمل المايه» على أورتار «البانجو» «كان أيها السادة- تقول ماريوشا- يقضي كل أيامه، يروي في غرناطة الأخبار التي لم تحك. ولم يتجرأ الوراقون على قولها. هي قصة القوال الموريسكي الذي قتل الموت ولم يقتله. قاتل البحر ولم يخن ملحه. مزق الليل، لكن دتره في خلوته. رأته ماريانة، فقتلت عشيقها»(33)

إن ماريوشا شاهدة وهي أيضاً مشاركة في الأحداث لإسقاط القصر: «ويوم أردنا اقتحام المدينةالجديدة، كانوا هناك. ويوم بدأنا بناء سور المدينة، لم يتوقعوا، لا ليلاً ولانهاراً. وحين طلب منهم العمال وعلماء (حكماء) المدينة، بوضع قنابل حارقة، في البنك الوطني الموريسكي، هاجل المدينة الجديدة. قاموا بذلك بدون أي تردد، وحين دخلنا إلى الجهة اليمنى من السوق الداخلي كانوا هناك»(34).

ماريوشا التي تختلط في ذاكرة البشير، بمريانة الغجرية الغرناطية «بكارمن» البروسبير ميريمي P. Merimée- بعد أن تأكلت ذاكرته بالأقراص والسطل الألماني: «صرخت بحزن شديد. ذاكرتك ياالبشير، لاتتركها

تضيع. إنهم يقتحمون أسرارك بالقرص البرتقالي ياابن أمي. احك.. أنا معك، أنت لم تمت ولكنك شبهت لهم(...) مدّ يده. مددت يدي(...) كانت عيونه دافئة مثل الأنبياء(...) ودعني بعينيه وأنا أسحب من صدره بقوة. ربما كانت النهاية.»(35)

ومثلما ابتدأت دنيازاد سرد حكاية البشير الموريسكي، هي ذي ماريوشا تنهيها «قلت للعمال والعلماء هو ذا ينشد إني أسمع صوته الآتي من بعيد بكل أشواقه وأحزانه. هزوا رؤوسهم وأكدوا لي أنهم لم يسمعوا شيئاً. قالوا لي، اتبعينا ماريوشا. أكدت لهم بأني سأبقى في مكاني حتى الصباح. كان الأمير قطمير كما سماه سيدي عبد الرحمن المجذوب والبشير رواية حسن البصري عن كلب أهل الكهف، يروف بعيون حزينة يبدو أنه كان أكثرنا معرفة بالحقيقة.

طوال الليل لم أتذكر إلاّ كلمته، بعدما انغلق مخه وصعب عليه فك الألوان وتذكر أحداث «أيام الشدة الكبرى» قال: «متعب لاأعلمُ ماذا أكتب. فألواس قوس قزح غير واضحة»(36)

وهكذا يُصبح السّرد دائرة تحكي دورات الإنسانية، وكأنما التاريخ الإنساني يعيد نفسه- بشكل من الأشكال- في دورة كاملة، وكأنما الرواية في النهاية هي رواية داخل رواية.

ونصلُ أخيراً، للسّارد الكبار، الناظم الداخلي، ذلك المنظم الخفي، هو ذا يتجلّى في الفصل السّابع عشر، آخر الفصول كُلّها من الرواية، إنه «واسيني»، هكذا تقول ماريوشا بعد أن فتحت له الباب:

«- واسيني!!؟؟ لماذا خرجت اليوم؟ حالة الحصار أعلنت ابتداء من هذا الصباح!!؟؟»

- عندي دعوة من الأمن. أنا ذاهب إلى محاكم التفتيش المقدس ياماريوشا. لقد طلبوا بحرق رواية «فاجعة الليلة السابعة بعد الألف»، ومصادرتها هاهي ذي نسخة موجودة عندي، وضعتها داخل كيس بلاستيكي، وأغلقتها بإحكام»(37)

يبقى أن نتساءل، هل يعني هذا أن البشير الموريكسي على المستوى الرمزي يدخل كهف واسيني/ قلبه ومشاعره وهل، ليصبح واسيني في الرواية امتداداً للبشير، مثلما ستكون ماريوشا الرواية/ الحكاية، هي ماريوشا الواقع، وتغدو أخيراً الرواية دائرية تحكي فجيعتهم/ فجيعتنا جميعاً حتى الأبد؟!

أليس من حقنا أن نقول إننا جميعاً البشير الموريكسي بشكل من الأشكال؟! رُبما!

وهكذا يحقُّ أن نقول: «إن الروائي لايقول مايريده بواسطة أسلوبه الفردي الخاص ولكنه بواسطة مزج كامل لأسلوبه بأساليب الآخرين، أي بواسطة أسلوبٍ مؤسلبٍ»(38)

وهذه وضعية أعوان السّرد في مستواها وعلاقتها بالحكاية:

وهكذا نخلص إلى أن «تعــــدد الأصوات وتعدد الساردين داخل النص الواحـد ؛ وهو العنصـر الذي برز عند تعقد علائق الإنسان بالمجتمعات الحديثة المطبوعـة بالإستلاب واهتـزاز القـيم وتشظيهـا. فلم يعد السرد التـقليدي (السـارد العـالم بكل شيء، الأحـادي) قـادراً على تشخيص الواقع المتعـدد، المتقاطع، المتناقض، انطلاقاً من صوت السـارد وحـده(...) ومن ثم، يمكن أن نعتبر تعدد الساردين وتعدد الأصوات في الرواية الحديثة، استجابة جمالية (استيقية) لمقتضيات تنسيب الحقيقة، وترجمـة علاقـة الشك والإرتيـاب التي باتت تطبعُ مـوقف الإنسـان من ذاتـه، ومن الآخر، ومن العالم»(39)

المراجع
1 يمكن الرجوع إلى ، سمير الموزوقي/ جميل شاكر. مدخل إلى نظرية القصة. ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر)، الدار التونسية للنشر (تونس) د. طبعة، ص 107 ومابعدها.
4- عبد العالي بوطيب. مفهوم الرؤية السردية في الخطاب الروائي بين الإئتلاف والإختلاف. فصول م11-ع4. 1993 ص 68
5- عبد الحميد عقار. من أجل سيميائية تعاقبية الرواية. آفاق، اتحاد كتاب المغرب الرباط عدد 9.8. 1988 ص ، 172
6- محمد برادة الرواية أفقاً للشكل والخطاب- المتعددين، فصول م. 11ع 4. 1993 ص ،19
R. Barthés et autres. Poétique du récit.-7
(Introduction à l'analyse structurales des récits. Paris- Seuil 1977.P.40
. 8- منيب محمد البوريمي. الفضاء الروائي في الغربة- الإطار والدلالة- الدار البيضاء 1984 ص ، 82.
9- رمل المابة ص ،7
10- رمل المابة ص ،441- 442
11- رمل المابة ص ، 449.
12- رمل المابة ص ، 463.
13- رمل المابة ص ، 363.
14 - رمل المابة ص ، 48، 49
15- رمل المابة ص ، 5
16- رمل المابة ص ،5
17- رمل المابة ص ، 166.
18- رمل المابة ص ، 251.
19- ناجي مصطفى. نظرية السرد من جهة النظر إلى التبئير. الدار البيضاء. ط1989 ص ، 104
20- رمل المابة ص ، 481.
21- رمل المابة ص ، 36.
22- رمل المابة ص 160، 161
23 - رمل المابة ص 162.
24- رمل المابة ص 13، 14.
25- رمل المابة ص 17.
26- رمل المابة ص80
27- رمل المابة ص 242.
28- رمل المابة ص376، 371.
29- حميد لحميداني. أسلوبية الرواية، الدار البيضاء. ط1 1989. ص25
30 رمل المابة ص 498.
31 رمل المابة ص. 498.
32- رمل المابة ص ، 406
.33- رمل المابة ص ،283.
34- رمل المابة ص ، 107.
35- رمل المابة ص ، 436. 437
36- رمل المابة ص ، 499.
37- رمل المابة ص ،501
38- حميد لحميداني. أسلوبية الرواية. ص 35.
39- محـمـد برادة. الرواية أفـقـاً للشكل الخطاب التعدديـن. مجلة فصول. عدد4 شتاء 1993. ص 18-19

المراجع :
1-ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة بر (3.)، ص .133
2-عبد الحميد عقار، من أجل سيميائية تعاقبية الرواية، مجلة آفاق اتحاد كتاب المغرب، الرباط، عدد 9،8، خريف 1988 ص.169
3- د.عبد الفتاح كليطو، الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر 1988ص.33

دراسات في الفكر والمجتمع

في مواجهة الآخر

منصف بوزفور

كيفيات عمل أنظمة إنتاج المعرفة

قد يبدو عملنا نوع من الإستعارة لأنظمة إنتاج الإقتصاد، بحيث نطابق في هذه الإستعارة بينها وبين أنظمة إنتاج المعرفة.

لكن قد يتساءل القارئ عن جدية مثل هذا النظام ،مادامت المعرفة تبدو في كثير من الأحيان مستقلة عن المؤسسات. لكن مانوع هذه المؤسسات التي يستقل فيها الكاتب أو الفيلسوف أو المثقف عموماً خاصة ونحن إزاء مجتمع مدني باعتباره مجتمع الحاجات والحياة الملموسة للناس، وأن المثقف في إطارها عضو فعّال وسواء أكان هذا المثقف أستاذاً، أو محامياً أو إدارياً، أو عاملاً في مؤسسة إعلامية أو إنتاجية أو إدارية

إنّ هذا العضو الفعّال- يبرز دوره في إنتاج المعرفة- على مستوى من التنظيم تراعي فيه في المجتمعات السلطانية طبوعاً متوازية مع مصالح السلطة.

وتراعي فيه الفئات السياسية نظماً تسندها والفئات المستقلة ورغم هذا الإستقلال فإنّ عملها ينتظم في إطار الإنتاج المعرفي العام كالمعرفة الإسلامية والمعرفة الغربية.

ولو عدنا إلى التاريخ العربي الإسلامي، أو إلى المعتزلة خاصة.

نرى أن محنة «خلق القرآن» في

عهد المأمون كانت ثورة ثقافية شاملة جنّدت لها الدولة كل سلطتها. ولقد تساءل د. محمود عابد الجابري حول اعتبار الترجمة الواسعة عملاً محدداً أو متمماً، أو جزء أساسيا من الثورة الثقافية وهل يمكن اعتبار هذا التصور قد أنجز مستقلاً عن نظام إنتاجه؟

ولو عدنا إلى المدارس السنية نلاحظ أنها قد قامت على أساس المصالح المرسلة- حتى أن بعض الفقهاء كنجم الدين أبي القاسم جعف بن محمد الحلي (676هـ - 726هـ) يقول في كتابه «شرائع الإسلام» مالا يتناسب مع فقه إسلامي. فرغم أنه يعلن تحريم الربا من حيث المبدأ إلاأنه لايلبث أن يضيف: «على أنّ هنالك طريقة لتجنّب الربا. مثلا: زيد يبيع عمراً مكيالاً من القمح لقاء شيء ما، وعمرو من جانبه يبيع زيداً مكيالين من القمح لقاء شيء آخر، ولما كان الشيئان اللذان اتخذا وسيلة لإجراء العقدين تافهين القيمة، وكان قد أعطيا ثمناً للقمح، فإن الربا لم يقع، لأنّ الأشياء المتبادلة ليست متماثلة جنساً ولا وزناً».

نلاحظ أنّ بعض الفقهاء هم من أهالي مبدأ الإنتفاع. ولكنهم في نفس الوقت من عمال أنظمة إنتاج المعرفة. وهذا مثال آخر من موارد عصرنا الفكرية «لعلي نوح»(1) يقول السلفية واحدة من قضايا الفكر والثقافة في الفكر العربي: نعثر عليهما في مكتباتنا وكتبنا وتراثنا الديني، والإجتماعي والسياسي والإقتصادي. بل لدى مجموعة كبيرة من كتابنا في المرحلة المعاصرة. وتطرح برداء نظري منهجي، لفهم التراث والتاريخ العربي، بل والقضايا العربية المطروحة. والسلفية عنده جمود للفكر والواقع، بل موت له.

ويعتبر «علي نوح» أنّ أيمّة الإبداع هم المعتزلة وإخوان الصفا.

ويحدد الذين كرّسوا السلفية وعضدوا الشريعة ودافعوا عنها كأبي الحسن الأشعري، وابن تيمية وابن الجوزية والغزالي (وإن كان هذا الأخير قد كرّس الصوفية).

ويستمد «علي نوح» كمصدر له مؤلفات «طيب تيزيني» الذي يرى أنّ النص الوثوقي في دور المؤيد والمؤكد (للسلفية) في القرآن سورة آل عمران (آية 20) «فإن حاجوك فقل أسلم توجهي لله ومن اتبعن». وفي الحديث النبوي «إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ويكره لكم قيلاً وقالاً وكثرة السؤال ورضاعة المال».

باختصار السلفية دعوة للرجوع إلى الماضي (المجتمع البدائي) والتمسك بكل مافيه.

وقد برز في مرحلة من مراحل التاريخ العربي (العصر الوسيط) كرد على الأيديولوجية الشعبوية العنصرية المعادية للحرب، بزعامة الأريستوقراطية الفارسية، فأصبح من حق العرب الدفاع عن أنفسهم،

وثقافتهم، من حيث كونها الحصلة التي أنجز بناءها السلف الصالح.

لعل «علي نوح» من أولئك الإيديولوجيين الذين على شاكلة «عزيز العظمة»، خاصة وأنه من الذين يثقون ثقة كبيرة في فكر «طيب تيزيني».

مادام الفكر المتمشّ في الإيديولوجيا ليس إلاّ من رذاذ الواقع وأصله، دون الحاجة إلى الخوض في تفاصيل أو بنى هذا الأصل.

هذا الأصل الذي ينفر من أصل آخر ويعاديه. وبذا قام نظام إنتاج معرفي وإيديولوجي هناك إذن نظام [illegible] الإسلام وانتحادا على هذه [illegible] الذي يمثله الحنبلي فقه [illegible] في [illegible] الصالح.

ورغم «علي نوح» [illegible] بمصلحة جماعة معينة.

ونظام الإنتاج المعرفي كثير ما توجهه الأنظمة السياسية حتى الجماعة السلفية ذاتها توجهها سياسة نحو من يستغل التراث استغلالاً لاعقلانياً، ولكن يمثل جماعة سياسية عقلانية فالتيار السلفي في الفكر العربي المعاصر، هو التيار الذي انشغل أكثر من غيره بالتراث وإحيائه، واستثماره في إطار قراءة إيديولوجية سافرة، أساسها إسقاط صورة «المستقبل المنشود»، المستقبل الأيديولوجي، على الماضي، ثم «البرهنة».إنطلاقاً من عملية الإسقاط هذه، على أنّ ماتمّ في الماضي يمكن تحقيقه في المستقبل.

إنها قراءة إيديولوجية جدالية، كانت تبرر نفسها عندما كانت وسيلة لتأكيدات الذات وبعث الثقة فيها. إنها آلية للدفاع معروفة، وهي مشروعة فقط عندما تكون جزءاً من مشروع للتنفز والطفرة... لكن الذي حدث هو العكس تماماً. لقد أصبحت الوسيلة غاية، فالماضي الذي أعيد بناؤه بسرعة قصد الارتكاز عليه «للنهوض» أصبح هو نفسه مشروع النهضة. وهكذا أصبح المستقبل يقرأ بواسطة الماضي، لكن لا الماضي الذي كان بالفعل، بل الماضي كما كان ينبغي أن يكون، وبما أن هذا الأخير لم يتحقق على صعيد [illegible] صعيد الحلم، فإن صورة [illegible] ذلك هي نفسها [illegible] الماضي والسلف [illegible] جدارته ليس فقط [illegible] ومنسبة، بل كواقع حي [illegible] يستعيد أصل الأيديولوجي الذي كان في الماضي [illegible] مكافحاً ومناضلاً، لا يكتفي بخصوم الماضي، بل يبحث له عن خصوم في الحاضر المستقبل»(1)

هذا رأي من آراء دعاة التحديث الدكتور محمد عابد الجابري، الذي يمثل نظاماً إنتاجياً معرفياً معارضاً من حيث المبدأ للسلفية ومناضلاً في سبيل الحداثة، هذه الأخيرة التي يقول عنها :

«حداثة اليوم حداثة غازية كاسحة، إن لم تأخذ بها أخذتك، وإن لم تعمل جاهداً من أجل المساهمة في صنعها أو

على الأقل من أجل تبيئتها في واقعك وخصوصيتك، جرفتك واقتلعتك من جذورك أو همّشتك وألقت بك جانباً، خارج الحاضر والمستقبل، تجترّ الماضي، بل يجترّ الماضي نفسه فيك.

هكذا الفكر العربي.. تحدّد الخطابات وتحدد الخطب.. قد تثقل فينا هذه الطبوع حاسّة التركيز.

أما حاضرنا فتتحكم فيه أنظمة الإنتاج السياسية. فالسياسي لايمارس دوره في تأليف إيديولوجية خاصة للممارسة. ويعتبر ذلك من وظائف المفكر والمستشار. مثله مثل السياسي الأموي الذي نافح عن عقيدة الجبرية. فقضاء الله وقدره هو الذي جعل من معاوية رائد هذه الدولة. وهو الذي قضى بالفتنة.

وكان هذا القضاء يعضده السيف وتنصره القوّة.

ومثل السياسي العباسي الذي كان وراء العقلانية المعتزلة ووراء الترجمة ووراء الفلسفة، مستعيناً بالفرس في تعريف أمور دولته.

وهكذا الفكر عمل لاتطوّعه الأقلام بل يطوّع الأقلام.

لكنه ليس هجيناً وإنما هو مؤصّل عن طريق أنظمة الإنتاج. وهذه الأخيرة تتكون في إطار تاريخي له خصائص وسمات.

ومنذ أن انفتح فكرنا بالحديث عن الفكر الغربي- تعدّدت أنظمة الإنتاج بطرق مختلفة منها الإستعارة ومنها التبعية الجزئية والتبعية الكلية، ومنها توظيف المناهج والنتائج الغربية. ومنه من بقي على أصالته مناضلاً في فضاء تراثه عن طريق القلب والإبدال والتطويع والإرجاء والسحب. هذه الأدوات التي ذكرنا أن مصدرها العمل الأيدلولوجي في حدّ ذاته، وفي هذا الإطار يحدث الإسقاط وإبدال الوسائل بالغايات.

إلاّ أن نفس مايحدث في فضاء التراث يحدث كذلك في التحديث والعصرنة.. إنّه فكر يتّقي الشبهات بالأدوات كما أنّه فكر لاينشأ لمحض النشأة وإنما للسبيل، سبيل السياسة.

لامعنى إذن لخطاب يرى الفكر العربي الحديث والمعاصر هو في مجمله فكر لاتاريخي يفتقد إلى الحدّ الأدنى من الموضوعية، ولذلك كانت قراءته للتراث قراءة سلفية تنزّه الماضي وتقدّسه وتستمد منه الحلول الجاهزة لمشاكل الحاضر والمستقبل. وإذا كان هذا ينطبق بوضوح كامل على التيار الديني، فهو ينطبق أيضاً على التيارات الأخرى باعتبار أنه لكل منها سلفاً يتّكئ عليه ويستنجد به.

هكذا يقتبس العرب جميعاً مشروع نهضتهم من نوع الماضي،إما الماضي العربي الإسلامي، وإمّا «الماضي- الحاضر» الأوروبي، وإمّا التجربة الروسية أو الصينية أو... والقائمة طويلة.

إنّه النشاط الذهني الآلي الذي يبحث عن الحلول الجاهزة لكل المشاكل

المتسجدة، في «أصل» ما. مستخلصاً في الأخير بكون العقل العربي الراهن بنية ساهمت في تشكيلها عناصر متعددة على رأسها أسلوب «الممارسة النظرية» (النحوية والفقهية والكلامية) التي سادت في عصر الإنحطاط، الأسلوب الذي قوامه قياس الغائب على الشاهد بدون مراعاة الشروط التي تجعل هذا القياس منهجاً علمياً، لقد أصبح القياس في شكله الميكانيكي ذاك، العنصر اللامتغير (الثابت) في نشاط بنية العقل الذي يجمد الزمان ويلغي التطور ويجعل الماضي حاضراً وباستمرار في الفكر والوجدان ليمد الحاضر بالحلول الجاهزة.

إنّ لعبة الفكر أنه لايعضد بعضه ولذا كانت فيه توجهات تعمل ضمن نخب وكل نخبة لها نواة إيديولوجية تدور حولها ولذا فإنّ مشروع النهضة ليست أساساً بقدر ماهي غاية في حد ذاتها.

صحيح أن مايدور بواسطته الخطاب السلفي والخطاب الليبرالي والخطاب الماركسي وغيره من الخطابات هو «القياس» ولكن هذا القياس يحتاز بكونه نموذجياً، وليس قياس الشاهد على الغائب، تلك الأدوار الفقهية والكلامية في الفكر الإسلامي.

ولا يمكن بأي حال أن نطالب العمل الأيديولوجي بأن يتميز بصفة «العلموية». هذه الصفة التي حاولت الماركسية أن تكرسها في الأيديولوجيا الإشتراكية.

ولقد أقلق فكر النخب الأستاذ الجابري... لأنه فكر يفتقد إلى التاريخية بهذا التعدد.

لكن التاريخ يواصل سيره والنخب الفكرية تنتضد عبر هذه السيرورة. فلا مكان إذن لحياة لاتمتاز بالتاريخية، حتى تلك الحياة البدائية في أدغال إفريقيا واستراليا والبيرو والمكسيك.

فهل من النزاهة والعقلانية أن نرفض عصر الإنحطاط.. وهو ضمن تاريخيتنا كالظفر من اللحم

ورغم هذا يرى الجابري أن تجديد الفكر العربي أو العقل العربي هو كسر بنية العقل المنحدر إلينا من عصر الإنحطاط وأوّل مايجب كسره هو ثابتها البنيوي «القياس» في شكله الميكانيكي

وهذا يعني قطيعة أبيستيولوجية تامة مع نيةالعقل العربي في عصر الإنحطاط وامتداداتها إلى الفكر العربي الحديث والمعاصر.

وهذه القطيعة، لاتتناول موضوع المعرفة، ولذلك فلا علاقة لها إطلاقاً بالأطروحة الفاسدة المنادية بإلقاء التراث في المتاحف.

ولكن يتناول «الفعل العقلي» الذي هو نشاط يتم بطريقة ما وبواسطة أدوات هي المفاهيم وداخل حقل معرفي معين.

فقد يظل موضوع المعرفة هو هو، لكن طريقة معالجته والأدوات الذهنية التي تعتمدها هذه المعالجة والإشكالية

التي توجّهها والحقل المعرفي الذي تتم داخله، كل ذلك قد يختلف ويتغير.

وهكذا فإنّ القطيعة الأبيستيمولوجية هي التخلي عن الفهم التراثي للتراث ورواسبه وعلى رأس هذه الرواسب «القياس» النحوي- الفقهي- الكلامي في صورته الآلية اللاعلمية.

هناك قول ببناءات امتدادية يكرسها التاريخ.. هذه البناءات بعضها بسبب التخلف وبعضها الآخر سبب اللاتاريخية. بحيث أنّ الفعل العقلي يبقى هو نفسه ذاك الذي يعتمد على القياس. ونحن نتساءل بدورهما هل التخلّص عبر إحداثه القطيعة الأبيستيمولوجية يتم في إطار وخليفة القياس ومنعها من تأدية عملها، أم من البناء ككل؟

وهل كل أخطائنا الأبيستيمية منضّدة في إطار التاريخ؟ بحيث نشير إلى أخطاء التراث بكونه متسلسلاً من عصر الإنحطاط.

القطيعة إذن هي نقلة أداتية في الفعل العقلي. لكن هناك من يتحدث عن النقلة من إطار معرفي إلى آخر. وهي لا تعي قطيعة مطلقة، لأنه لايمكن تصوّر أنه خيط التطوّر ينقطع عن لحظة من التاريخ أو يتجمد عندها، إنّما القطيعة المعرفية في هذا المفهوم هي منعطف ثوري تنتقل فيه من لحظة إلى أخرى ومن مرحلة إلى أخرى متقدمة، ينفتح فيها طريق كان مسدوداً أو كان يبدو مسدوداً لعصر طويلة.

لقد تحرك العلم والفلسفة واللاهوت أي الأطر المعرفية كلها في العصر القديم، حول النظام الفلكي الذي شيّده «بطليموس» منذ مايقارب الألفي سنة والذي يقول بأنّ الأرض هي مركز الكون وجاء «كوبرنيك» (1473م-1543م) وقلب نظام الكون وقال بحركة الأرض حول الشمس فدخل بذلك علم الفلك منعرجاً جديداً

وهكذا نرى هذه العلاقة بين اللاهوت ونظام الكون- في التوجه الذي اتجه «فيلون الإسكندري» ليبرر الوحي المسيحي بل فساح الفلسفة اليونانية والأفلوطينية خاصة من أدوار لها لخدمة هذا الوحي

وأعاد الفقهاء المسيحيون إدخال الفلسفة الإغريقية في هيكل العقيدة المسيحية وتوسعوا في الأفكار التي طرحها «فيلون» حول العلاقات بين البرهان العقلاني»(1)

وكان ذلك تبعاً لنظام كوني سائد المعرفة به...

وأخذ بهذا النظام الفلاسفة المسلمون في عقول الأفلاك والكواكب... مستخلصين ذلك بطبيعة الحال من الفلسفة اليونانية- رغم أن علم الفلك عند العرب قد وجد عند «البيروني» و«البتّاني» مايبرزه كعلم أكثر موضوعية من الطرح اليوناني.

لقد كان العالم القديم يعتبر الأجرام

السماوية كائنات روحانية تختلف عن عالم الأرض- أي عالم الفساد فجاء «جاليلوا» (1564م- 1642م) فأكد مادية الأجرام السماوية عن طريق تيليسكو به وقضى على تصور تقسيم الكون إلى العالم الروحاني العلوي والعالم السفلي العادي الفاسد. وخرج بنظرية «كوبرنيك» من حيز الرياضيات الى حيز الوجود الطبيعي.

ثم تم الإنتقال من «جاليليو» إلى «نيوتن» ومن «نيوتن» إلى «أينشتين».. وكل هذه الإنتقالات لم تكن هادئة ومعبدة بل كانت إنتقالات كيفية أي ذات قطيعة أبيستيمولوجية جعلت بريق القديم أقلّ لمعاناً من الجديد(1)

- لوعدنا إلى القرآن في حدّ ذاته... نرى أن كل هذه النظم لاتمثّل بالنسبة للمعرفة القرآنية قطائع معرفية فالعلم يستجد ويكتشف.. والقرآن يدّعم الروح المؤمنة المكتشفة.

إن طبيعة هذا النص المقدّس لايمكن تجاوزها دون الإدلاء بتمييزها هذا.

نعود إلى القطيعة المعرفية سواء كانت أداتية أو كيفية لنقول أنّها من محصلات فعل التراكم حين ينتقل إلى الفعل الفاعل (الثوري)

لقد كان «توماس كون» يرى أنّ العلم ليس تراكمي، بل ثوري. فهو فعل واسع النتائج نسبي الدلالة... ونسبيته هي دالة ثوريته وانفتاحه على فضاء الإكتشاف.

والنهضة الأوروبية ترافقت إلى جانب العلم ترافقت كذلك مع انهيار النظام الإقطاعي وبزوغ الرأسمالية وانهيار فعالية النص الديني والكنيسة.

فالنص الديني لم يعد يتحمل تأويل ماينجزه العلم والعقل- رغم محاولات الفقهاء المسيحيون، منذ غيلون إلى زمن الإنهيار.

إنّه نص حامل للأسطورة.. هكذا يرى الغيللوجيون والفلاسفة الغرب... ولقد كان اهتمامهم بالأسطورة من هذا المنحنى، بل إنّ أبرز تطوّر عرفته الميثولوجيا عرفته في الغرب. فكانت أداة للتحليل النفسي والتحليل الإجتماعي. وكانت أداة في الفلسفة، واستخدمها البنيويون عبر تطويعاتهم الفكرية واستخدمت في الأنثروبولوجيا وفي علم اجتماع الثقافة.

لكننا نرى عكس هذا في القرآن، فهو نص لم يزل متساوقاً مع تطور العلم

ورغم هذا يرى عبد الهادي عبد الرحمان أنّ العلماء المسلمين- رغم مجهودهم الجبار وبسببه في نفس الوقت لم يتخطوا تلك الأنظمة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية السائدة، بل إستوعبتهم واستوعبوها لخدمة الأيديولوجية الإسلامية. وهكذا ظل نمط الإنتاج السائد في معظم المجتمعات الإسلامية محافظاً على مجمل خصائصه حتى بداية عصر الإستعمار الحديث.

فهل الأيديولوجية الإسلامية هي

سبب هذا التخلف؟

لاشكّ أن هناك نوع من الإختلاط بين المادة المعرفيّة ذاتها وبين الغايات التي تكرّس لها.

ذكرنا هذا لسبب أصيل تمرّ به هذه المجتمعات منذ اعتناقها لهذا الدين... فحاولت التوفيق بين سابق ما في ثقافتها وحضارتها وبين المعطيات الإسلامية... فكان أثر الهزدكية والهرمسية والزرادشتية في هذه الثقافة، وكان أثر الفنوصية والثقافات السريانية والهندية والبربرية.

إنّه احتفال توحّد ثقافات كبيرة في كنف هذا الدين. ولذا كانت المادة المعرفية الإسلامية في كل هذا هي الأساس ولذا كان الفقيه والعالم الديني والمتكلّم والمؤرخ والأديب هم أبرز من ظهروا في التاريخ ثم كان دور الفيلسوف والصوفي والطبيب وعالم الفلك...

كانوا يمثلون نظم إنتاج للمعرفة.. فكانوا ينتصرون للسياسي تارة، وللفرق والأحزاب تارة أخرى، وللشعوبيةتارة ثالثة وللزندقة والإلحاد في أحيان كثيرة.

ولم يكن عمل الدين الأضمن حدود (هي حدود الفقيه والمتكلم والمفسّر)

فما كان سائداً عبر هذا التاريخ... هو السلطان ونزاعاته.. إنّه السياسي الذي لايمارس الدين بل يوكل أمره إلى الفقيه والمتكلم والفيلسوف.

هي ذي صناعة الأيديولوجيا تختار لها من يجيد صنعها، وحسب الظروف التي تحتمها الأوضاع ولاتبارح عناصر الأيديويوجيا أماكن سكناها من دين وعلم وأسطورة إلاّ عندما تدخل مجال السياسية، فليس الإسلام إيديولوجياً إلاّ عندما يحار إلى استطلاع عناصر منه في السياسة.

فليس إسلام المأمون إيديولوجياً مع أنّ الإعتزال الذي شجّعه كان إيديولوجياً. وتضحى الألفاظ إيديولوجية عندما تتحرر من الأساور المقالية وغيرها التي تحددها تجد الإيديولوجيا سرّها خارج الأيديولوجيا، إذن، وفي عالم السياسة. إذ تستدعي الأيديولوجية أنماطاً مسبقة وشبه مبرمجة ومن وجهات العقل المستندة إلى أحكامها، أنماطاً تشكل دور إنه واع الإيديولوجيا في السياسة. ومع هذا، يبقى الإسلام قاعدة شعبية للتربيض السياسي. فالإسلام يبقى في حقيقته مستقلاً عن وهم تقيده بالسياسة. صحيح أنه فاعلية كبرى من الفاعليات الإجتماعية- لكنه فاعلية باعتبارها عقيدة وليس إيديولوجية. فالإيديولوجية يتناهي أمرها إلى الجمود والإضمحلال أو التحوّل إلى عقيدة : كالشيعة التي تحوّلت إلى عقيدة أما الأيديولوجيا الأموية والعباسية فبقيت من بعض التاريخ لكنه إذا كانت السياسة كالحياة العامة في الإسلام تقضي في بعض أمرها. بما هو دنيوي مرتبط بالمصالح والحاجات والأقضية فإن دور الفقيه

في الدولة كدور العقيدة لدى المعتقد.

فهل لنا أن نفصلها بحجّة التكامل بين الدنيا والآخرة لدى المسلم، وبأن ماهو دنيوي لاتتصرف فيه إلا بما هو دنيوي؟ رغم قولنا بهذا التكامل؟

رغم هذا فإنّ الدولة عبر التاريخ العربي الإسلامي كانت تستند بالدين، إلاّ أنها لاتسنده... بل مارست دورها في استقلال تام.

فلبّ النداء باستقلال الدولة عن الدين؟

إنها هذه الصورة المحتشمة التي تدعى بالقطيعة المعرفية الأداتية ورغم أن التراث هذا ليس مصطنعاً، بل هو تراكمي، وأنّ العمل فيه هو عمل المؤرخ والمحقق، فإننا نرى أن أدوار أخرى من العمل أسندت إلى الفيلسوف وعالم الإجتماع والسياسي لتحقيق هذا التراكم واستعماله في بناء نظام معرفي جديد لكن البعض لايرفضون التراث كتراث، وإنما يستخدمونه كمقابل للمعاصرة المنفتحة كلياً على الغرب للقول برأي ثالث: يحتفظ من التراث بالروح ويأخذ من المعاصرة الأداة وذلك لإبداع نظام ثالث بديل وسنحمل هذا عبر مااستخلصناه من مقال «محمد علي الكبيسي» حول «النموذج في الفكر العربي المعاصر»

لقد نشدت الحركة التراثية التي ظهرت في عصر النهضة إعادة إنتاج معرفتنا بذواتنا، وذلك بالإنخراط الواعي في مشروع حضاري يجسد لحظة «النمط النموذجي» على حد تعبير «ماكس فيبر» ويملأ فضاءنا، ويكون شبكة مرجعية لعلاقاتنا الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والفكرية.

وانتهى المشروع النهضوي بالسقوط بعودة نشيطة للتراث في العقد الأخير من هذا القرن.

هذا السقوط كان نتيجة نهضة عوجاء صادرة عن سيطرة دول المركز، تمكنّها من تسطير خطوط التبعية لجعلها سوق والنهضة في حقيقتها لم تكن نهضة حضارية بقدر ماكانت نهضة استهلاك بضائع دول المركز.

ولقد فكر محمد علي الكبيسي في بيان نموذج كل مايحدث في الفكر العربي واصطدامه بآليات الإجتماعي والسياسي والفكري والعلاقة المعقدة التي تشد بعضهم إلى بعض.

والنموذج الوسط الذي تتجمع فيه خيوط الترابط، فتتحول إلى مبادئ، ويتحوّل النموذج إلى كليّة تنتضد فيها هذه المبادئ. عندئذ يمكن أن ينفصل النموذج من خلال منطق تحليلي إلى نماذج فرعية، فيكون هناك نموذج علمي وآخر فلسفي وآخر ديني وآخر سياسي... إلخ. و

والنموذج رديف الكلية، ولايمكن ملاحظته في شكل أحداث مباشرة. لأنّه لايمثّل نظام التحولات وثوابتها في نفس الوقت.

لكن ثمة بنية من النظام تأخذ مكانها وراد البنية التحتية وماوراد

البنية الفوقية، هذه البنية هي النموذج وهي أقرب إلى نظام الترسيمة (Système de Schêmes) منه إلى الأيديولوجية، التي، وإن كانت تمثل بنية ذات هيمنة على حدّ تعبير (آلتوسيم)، فهي تعمل في وسط «أداتي»

أمّا بنية النموذج فتوجّه أعمال الأفراد باعتبارها «حلما» أو «أملاً» وليس اعتقاداً يصل إلى حدّ الدوغمائية ثم تحدث عن الحركة التراثية الجديدة التي مثّلت إشكالية المصالحة بين التراث وإنجازات العقل الأوروبي قاسماً مشتركاً بين روّاد عصر النهضة ومفكّري هذه الحركة، الذين استقطبوا من طرف دلالات المجتمع التقليدي من ناحية وبتر ميزات الحداثة من ناحية أخرى، شأنهم شأن النهضويين، لكنهم تميزوا برغبتهم في فتح آفاق مرجعية جديدة، تتميز عن نموذج البديل، هذا الذي يتحرك على خريطة معرفية مغايرة، يتداخل فيها المقروء مع المعيوش باعتبارهما فعل واحد، يحث التحولات لتنعقد وتكشف عن علاقة جديدة بيننا وبين العالم.

ونقرأ في هذا النموذج لغة النقد لأنه يعلن عن مقدم مرحلة جديدة، كما نقرأ فيه دلالة التصحيح لمسار الخطاب النهضوي.

وعند تحديد العلاقات بين خطاباتهم من ناحية، وبينهم وبين مرجعياتهم من ناحية أخرى تلك التي انطلقوا منها لمنحت هيكل النموذج البديل، نلاحظ أنّ المشكلة لم تعد لديهم مشكلة تحديد العلاقة بين التراث العربي الإسلامي والتراث الغربي. وليست مشكلة تغيير مرجعية بأخرى، بل هي مشكلة «إبداع» مرجعية جديدة. هذا هو النداء الذي توجّه به الخطاب العربي المعاصر من خلال العروي والجابري ومروة وحنفي، والذي أرادوه مدخلاً واقعياً للمجتمع الجديد من خلال إعادة تأسيس ظواهر التراث، عن طريق استخدام إنجازات العقل الأوروبي بدون إعجاف.

لقد فتحوا قارة جديدة على حدّ تعبير «ألتوسير» وهي قارة تأويل التراث ماضياً وحاضراً لاكتشاف ثوابته ومتميّزاته كشفاً يجعل من السهل مدّ جسور الحوار بين النص والنقد لقراءة مايعلنه، بل لقراءة مالا يعلنه. وكانت لحظتهم الأولى هي التاريخ

منصف بوزفور.

د. خضر زكريا

الحركات الإسلامية المعاصرة ومسألة التبعية

عندما صغت عنوان البحث على هذا النحو انطلقت من مقدمتين وفرضية :

المقدمة الأولى : هي أن التناقض الرئيسي في الوطن العربي اليوم ليس بين أنصار الأصالة وأنصار المعاصرة، وليس بين أنصار الإشتراكية وأنصار الرأسمالية. ولا بين أنصار الوحدة وأنصار التجزئة... بل هو بين أنصار التبعية وأنصار التحرر هو بين الفئات والقوى الإجتماعية التي ربطت مصالحها بمصالح الرأسمال الأجنبي وربطت مصيرها باستمرار وتكريس هيمنة قوى الرأسمالية العالمية على بلادنا، وبين الفئات والقوى الإجتماعية التي تتعارض مصالحها مع تلك المصالح وترى مصيرها مرتبطاً بتحرر البلاد من مختلف أشكال التبعية للنظام الرأسمالي العالمي.

المقدمة الثانية : إن الحركات الإسلامية المعاصرة، في خطابها النظري على الأقل، ترفض التغريب، وتدعو للتصدي للإستعمار والسيطرة الخارجية، وتعد الصراع مع الغرب صراعاً حضارياً تتصادم فيه القيم الإسلامية مع القيم الغربية. بل إن بعضها يربط فشل النهضة العربية بتقليد الغرب والتبعية له، حتى أن بعضها يذهب أبعد من ذلك فيشير إلى المصالح المتبادلة بين الفئات المهيمنة في الأقطار العربية والشركات

والدول الإستعمارية ويعدها سبباً فيما أصاب المسلمين من هزائم ومآس، وماتعيشه بلدانهم من تخلف وانحطاط.

والفرضية هي أنه إذا كان الأمر كذلك، فإن الحركات الإسلامية المعاصرة، باعتبارها تقف في الصف المعارض للتبعية، تشكل جزءاً من القوى الإجتماعية الوطنية التي تناضل من أجل حل التناقض الرئيسي المشار إليه لصالح التحرر والتقدم الإجتماعي، ويجب أن تشكل بالتالي عنصراً أساسياً من عناصر تحالف وطني تقدمي هي الأقطار العربية والإسلامية يضم جميع القوى الإجتماعية والسياسية التي تسعى لتحرير بلدانها من التبعية للنظام الرأسمالي العالمي، بوصفه المهمة الملحة الأولى، في المرحلة التاريخية الراهنة من حياة هذه الأقطار، بغض النظر عن الخلافات الأيديولوجية والعقائدية والسياسية والإقتصادية... الأخرى بين القوى التي تشكل عناصر التحالف المذكور.

غير أن التدقيق في فحوى كل من المقدمتين، وبخاصة التدقيق في المضمون الحقيقي لموقف معظم الحركات الإسلامية المعاصرة من الغرب، ومن مسألة التبعية له على وجه التحديد، لم يشجعني على تأكيد صحة الفرضية، على الأقل إذا لم يتطور خطاب هذه الحركات ونشاطها العملي جذرياً بحيث يصير عداؤها للأمبريالية جوهرياً، وتصير مسألة التحرر من التبعية هدفاً عملياً من أهدافها.

وإليكم التفاصيل :

أولاً : ماهي التبعية التي يشكل النضال من أجل التحرر منها مهمة أولية :

«التبعية ظرف موضوعي تشكل تاريخياً، ينطوي على مجموعة علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية وعسكرية، تعبر عن شكل معين من أشكال تقسيم العمل على الصعيد الدولي، يتم بمقتضاها توظيف موارد مجتمع معين (المجتمع المتخلف أو التابع) لخدمة مصالح مجتمع اخر أو مجتمعات أخرى (المجتمعات المتقدمة أو المتبوعة) تمثل مركز أو قلب النظام الرأسمالي العالمي(1) وقد تغيرت علاقات التبعية وآلياتها وأشكالها من حالة إلى أخرى ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى على الرغم من أن منظومة التبعية ظلت تعيد إنتاج نفسها باستمرار.

ففي المراحل الأولى استخدمت القوة العسكرية والأنظمة السياسيةالتي صنعها الإستعمار لفرض التبعية، وتكريس التقسيم الدولي للعمل، فكانت التبعية السياسية مدخلاً للتبعية الإقتصادية. أما بعد نيل الدول التابعة استقلالها السياسي فقد صار استمرار التبعية وتجددها يستند بصفة أساسية إلى آليات ذات طابع اقتصادي بالدرجة الأولى من خلال دمج اقتصاد البلدان التابعة في السوق الرأسمالي العالمي بعلاقات غير متكافئة

في جميع الميادين (التجارة الخارجية، القروض المالية، السيطرة على التكنولوجيا...)

ولعل المرحلة الراهنة من تطور نظام التبعية (الثمانينات بوجه خاص) تعتمد أكثر على آليات التبعية الثقافية والإعلامية ونشر قيم المجتمع الإستهلاكي وأنماط سلوكه في البلدان التابعة، من خلال الدور المتعاظم للشركات الإحتكارية الكبرى، وخاصة تلك التي تسمى الشركات متعددة (أو متعدية) الجنسيات والتي صارت تشكل «جوهر وقلب النظام الرأسمالي، إن هذه الشركات تلعب الدور الأساسي في صناعة القرارات الخاصة بالإنتاج، وتستند إلى شبكة من المؤسسات الدولية تعضد نشاطها سواء في المجال الإقتصادي (صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، منظمة التنمية والتعاون الدولي) أو في المجال العسكري (الأحلاف). كما تلعب دوراً هاماً في هذا المجال «المؤسسات التعليمية التي تساعد في إعداد الكفاءات اللازمة للشركات دولية النشاط والمؤسسات الدولية الأخرى والتي تشمل الجامعات الرئيسية والمعاهد البوليتكنيكية في الدول الرأسمالية والمعاهد التابعة لها أو المرتبطة بها في دول العالم الثالث، هذا فضلاً عن الصحف الدولية، ووكالات الأنباء، وشركات الإعلانات الدولية، وشبكات التلفزيون التي تلعب دوراً رئيسياً في نشر وجهات النظر التي تروج لمصالح الشركات الدولية النشاط»(2).

التبعية إذن منظومة متكاملة مكونة من العلاقات والبنيات الإقتصادية والسياسية والثقافية والإجتماعية المترابطة، أشير فيما يلي إلى بعض الأشكال التي تتجلى بها في الوطن العربي بغية إيضاح مدى ضخامة المشكلة وتعقدها وماتتطلبه من اهتمام من أية حركة سياية وطنية(3).

1- في ميدان التجارة الخارجية يتزايد تعامل الدول العربية مع الغرب الرأسمالي ويتناقض التعامل فيما بينها.

ونحن الآن نستورد أكثر من أرباع وارداتنا من الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية واليابان، ونصدر أكثر من 70٪ من مجموع صادراتنا إلى هذه الدول، بينما لايتجاوز حجم التبادل التجاري بين البلدان العربية 5٪ من تجارتها الدولية.

وتتكرس وتتعمق البنية القديمة للتجارة (تصدير المواد الخام واستيراد المواد المصنعة). فالمواد الخام تشكل اليوم 95٪ من الصادرات العربية (يشكل النفط 87٪ منها)، وتشكل المواد المصنعة والمواد الغذائية 85٪ من مستورداتنا.

2- نعم نستورد المواد الغذائية وبوتائر متزايدة على نحو مخيف، على الرغم مما يقال عن بلادنا بأنها زراعية، وعلى الرغم من أن نحو نصف المشتغلين فيها يعملون في القطاع الزراعي. فالإنتاج الزراعي يتناقص، أو يرواح في مكانه في أحسن الحالات،

بينما يتزايد عدد السكان ويتزايد استهلاك الغذاء وتتنوع أنماطه وأشكاله. فقد انخفض إنتاج القمح مثلاً في الوطن العربي من 7.5 مليون طن إلى أقل من 7 مليوناً خلال الفترة نفسها.

وفي عام 1980 استوردت البلدان العربية أغذية من الخارج بما قيمته 8 مليارات دولار، بينما يقدر أن تصل مستوردات الوطن العربي من الأغذية عام 2000 إلى أكثر من 200 مليار دولار. وهذا الإتجاه نحو تزايد الإعتماد على استيراد الغذاء بدلاً من إنتاجه ناجم عن آليات معقدة يكرسها نظام التبعية السائد في الأقطار العربية لخدمة المصالح المشتركة للفئات الحاكمة والدول والشركات الرأسمالية العالمية(*)

3- وفي ميدان الإنتاج الصناعي تتراجع قدرة البلاد العربية على تطوير أي من صناعاتها- التقليدية أو الحديثة- اعتماداً على إمكاناتها، وتصبح الصناعة أكثر فأكثر اعتماداً على الدول الرأسمالية المتقدمة، وتتطور الصناعات الهامشية ذات الدورة الإنتاجية السريعة، والتي تتجه أساساً لتلبية متطلبات الفئات المتوسطة والغنية من السكان (أنواع البسكويت والشوكولاته والشامبو والمشروبات المعلبة إلخ...)، وكلها تعتمد على مواد أولية أو وسيطة من الخارج، بينما تتخلف الصناعات التي كان يمكن لها أن تشكل قاعدة لتقدم صناعي حقيقي يعتمد بالدرجة الأولى على المواد الأولية المتوفرة محلياً. وهكذا تنشأ أشكال متعددة من التبعية الصناعية والتكنولوجية وتتزايد آليات تأثيرها تعقيداً:

أ- يتزايد استيراد وسائل العمل المعقدة تكنولوجياً بتكاليف مرتفعة جداً، وقطع الغيار اللازمة لها، وغالباً المواد الأولية والوسيطة اللازمة لتشغيلها،

ب- يتعاظم الإعتماد على الخبراء والفنيين الأجانب وتدفع لهم أجور مرتفعة جداً.

جـ- يؤدي استخدام الوسائل المتقدمة إلى الإستغناء عن أعداد متزايدة من الأيدي العاملة المحلية في قطاعات معينة دون أن يكون بالإمكان تشغيل هذه الأعداد في ميادين أخرى، فتتفاقم البطالة والبطالة المقنعة.

د- تنشأ بعض الصناعات «المتقدمة» على الأراضي العربية ولكنها محكومة باستراتيجية خارجية ولاتساهم في تنمية الإقتصاديات العربية، بل غالباً ماتشكل هذه الصناعات حلقات في سلسلة إنتاجية لاتكتمل إلا في الخارج، أو يكون إنشاؤها أساساً لتصريف آلات أو مواد وسيطة لم تعد لازمة في البلدان المتقدمة.

وهكذا يتم استخدام الأموال الفائضة في بعض الدول العربية المنتجة للنفط لتكريس وتعميق تبعيتها وتبعية البلدان الأخرى- غير النفطية- للنظام الرأسمالي إلى خزائن

الإحتكارات العالمية هي الإنفاق على التسلح.

لقد بلغت النفقات العسكرية لعشر دول عربية (مصر وسوريا والعراق والأردن ودول مجلس التعاون الخليجي) خلال 9 سنوات (1980-1988) أكثر من 463 مليار دولار كانت حصة العراق والسعودية ثلاثة أرباعها تقريباً (178,4 مليار نفقات العراق 163,3 مليار نفقات السعودية)(1) وهذه النفقات تتراوح بين 16و27 في المائة من إجمالي الدخل القومي للبلدان المذكورة (علماً بأن نسبة النفقات العسكرية في بلدان العالم الأخرى تتراوح بين 1و2٪ من دخلها القومي بما في ذلك دول حلف شمالي الأطلسي وحلف وارسو سابقاً)(2). ويعد العراق ثاني أكبر مستورد للسلاح في العالم (بعد الهند)، وتعد السعودية الثالثة في العالم الثالث والرابعة في العالم كله(*).

وبينما تبلغ حصة الفرد في العالم الثالث من قيمة واردات الأسلحة الرئيسية 19 دولاراً تبلغ في منطقة الشرق الأوسط 151 دولاراً (3) قد يقال أن ضرورات تحرير الأراضي المحتلة، والدفاع ضد نزعات إسرائيل التوسعية تفرض مثل هذه النفقات، لكننا نعرف جميعاً أن الدول الغربية، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية- المصدر الرئيسي للأسلحة إلى الشرق الأوسط- لاتعطي السلاح إلا بشروط تقييد استخدامه ضد إسرائيل. أضف إلى ذلك أن الأسلحة الحديثة هي من التعقيد بحيث تتطلب دائماً وجود «خبراء» أجانب لاستخدامها ولتدريب العسكريين المحليين، الذين يصعب استيعاب أكثرهم لها، كما يرى الخبراء العسكريون، الأمر الذي يزيد من فرص التأثير على الكوادر العسكرية المحلية، ويجعل القرار الحقيقي حول استخدام الأسلحة في يد الدول المصدرة للسلاح بالدرجة الأولى. كما أن الذخائر وقطع الغيار اللازمة عند خوض أية حرب لا بد وأن تأتي من الدول المصدرة للسلاح.

والتاريخ القريب يقدم لنا كثيراً من الشواهد على أن الأسلحة لاتعطى لبلداننا من أجل تحرير أراضيها ووقوفها في وجه العدوان الإسرائيلي بل لأغراض أخرى تماماً ، لقد بينت الحرب العراقية الإيرانية- التي دامت ثماني سنوات وكلفت البلدين أكثر من مائة مليار دولار ثمناً للأسلحة وحدها، وهو مايعادل نصف عائدات البلدين من النفط خلال أعوام الحرب الثمانية-(4) كيف أن الولايات المتحدة والدول الغربية الأخري كانت تسلح الطرفين ليدمر كل منهما الآخر. لقد استخدم الغرب العراق لضرب الثورة الإيرانية، واستخدام أجنحة في المؤسسة العسكرية الإيرانية لضرب الإتجاه المعادي للإمبريالية في تلك الثورة.

ثم رأت الولايات المتحدة وحلفاؤها أن الأوان قد آن لتدمير القوة

العسكرية العراقية التي ساهموا هم في خلقها. وهذا هو المعنى الأساسي لحرب الخليج الثانية. لم تستخدم الترسانة العسكرية السعودية التي أنفقت عليها كل تلك المليارات «للدفاع» عن الأراضي السعودية «فاظطرت» لاستخدام أكبر حشد عسكري عالمي عرفه التاريخ بقيادة أكبر دولة عظمى على الأرض «للدفاع» عن أراضيها و«تحرير» الكويت، وتدمير العراق.

لقد دخلت خزائن المركب الصناعي الحربي في الولايات المتحدة الأمريكية مبالغ قدرت بأكثر من 60 مليار دولار ثمناً للأسلحة والذخائرالتي استخدمت في الحرب خلال شهر واحد. وبعد الحرب مباشرة بدأت المفاوضات لعقد أكبر صفقات بيع السلاح في التاريخ للسعودية والكويت وغيرها من الدول التي أعجبت بالقدرة التدميرية الهائلة للأسلحة التي جربت لأول مرة في تلك الحرب.

5- وهكذا: يتراجع الإنتاج الزراعي والصناعي، وتعاظم الإستهلاك، وتزايد العجز في الميزان التجاري، والإنفاق الهائل على التسليح... تتزايد مديونية الأقطار العربية للغرب الصناعي، ويصبح العرب، الذين يمكلون أكثر ثروة عرفتها البشرية (النفط)، من أكثر شعوب العالم معاناة للتبعية المالية.

لقد ارتفعت مديونية بلدان العالم الثالث من 800 مليار دولار عام 1983 إلى أكثر من 1000 مليار دولار عام 1986(5) وإلى نحو 1300مليار دولار عام 1989.(6)

أما وتائر زيادة مديونية الأقطار العربية فهي أعلى من ذلك بكثير. وعلى سبيل المثال بلغت ديون مصر الخارجية 24 مليار دولار عام 1985م ثم ارتفعت إلى 38 ملياراً عام 1986(7) وإلى نحو 50 مليار عام 1989.

ولقد صارت معروفة للجميع الشروط التي يفرضها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي على البلدان المدينة لإعادة جدولة ديونها. وعلى رأس تلك الشروط رفع الدعم الحكومي عن سلع الإستهلاك الأساسية وبالتالي المزيد من إفقار جماهير الشعب. لقد قال الرئيس المصري حسني مبارك عن تلك الشروط أنها «غير معقولة»، وذكرت «الأهرام» أن عدداً من الشركات والمؤسسات الأمريكية تساهم في «الضغط على مصر بوضع شروط اقتصادية وسياسية للإستمرار في تقديم المساعدات الأمريكية، التي يذهب 85٪ منها لتسديد فوائد ديون مصر للولايات التحدة(1)، وقد اتضح الطابع السياسي لتلك الشروط بوجه خاص، أثناء حرب الخليج وبعدها.

6- ويسوّغ نظام التبعية إيديولوجياً ومعرفياً عن طريق المؤسسات الثقافية والإعلامية. فمع الرساميل و الغذاء والسلاح نستورد الأخبار والكتب والأفلام والمسلسلات والإعلانات، التي تعمل على تكوين عقولنا وأمزجتنا وأنماط حياتنا، بحيث تتلاءم مع هذا

النظام وتستجيب له، بل بحيث يصبح العيش بدونه أكثر فأكثر صعوبة.

والواقع أننا لم نعد بحاجة إلى «استيراد» الثقافة، فهي تبث بواسطة الأقمار الصناعية التي تسيطر عليها وكالات الأنباء التابعة بدورها للشركات متعددية الجنسية. وتقوم الفئات الحاكمة الحلية بتأكيد المفاهيم والقيم وأنماط السلوك التي تخدم استمرار سيطرتها على رعاياها. ويساعد انتشار الأمية، والإنشغال في المتاعب اليومية للحياة على عزوف الناس عن الثقافة الجادة. ويصبح المصدر «الثقافي» الوحيد هو التلفزيون، الذي يقوم عبر جميع برامجه، بما فيها برامج التسلية والترفيه، بالدور الأكبر في تكريس التبعية الثقافية، وبوجه خاص في نشر وتكريس وتعميق نمط الحياة الإستهلاكية المتخلفة التي نعيشها.

7- وينتج نظام التبعية طبقاته وفئاته الإجتماعية، التي تتكون مصالحها عبر تكريس وتعميق هذا النظام. تتسع الطبقات والفئات الطفيلية ويستشري خطرها، وتتضاءل أهمية الطبقات والفئات المنتجة. وهذه العملية تجري سواء بالنسبة للطبقات السائدة (المالكة) أو الطبقات المسودة المضطهدة. فالبرجوازية التي تقوم بدور الوسيط، الذي سهل للرأسمال الإحتكاري الأجنبي الهيمنة و التحكم بمفاتيح الإقتصاد الوطني، تصبح الطبقة الأهم بين الطبقات العليا، بينما يتضاءل، حتى يكاد ينعدم، دور البرجوازية الوطنية التي وظفت رساميلها في بعض الميادين الإنتاجية الوطنية في المرحلة التي تلت الإستقلال السياسي. وتضاؤل دور البرجوازية الوطنية خاصةو وتعاظم دور البرجوازيات الطفيلية، تتغير بنية الطبقة العاملة، ويصبح وزن البروليتاريا الصناعية العاملة في المؤسسات الوطنية أقل، بينما تتزايد أهمية فئات الطبقة العاملة المرتبطة بالقطاعات غير الإنتاجية. ومع تراجع الإنتاج الزراعي وعدم كفايته لتلبية الإحتياجات الأساسية للفلاحين، تتزايد هجرة الريفيين إلى المدن وتتعاظم أعداد المهمشين والباحثين عن العمل، «العاملين» في القطاعات غير النظامية.

ومع تزايد دور الدولة في الحياة الإقتصادية والإجتماعية، والتضخم الهائل للمؤسسة العسكرية، تتعاظم أهمية برجوازية الدولة، بمختلف فئاتها، تلك الفئات التي تنزع بطبيعتها إلى تسخير مؤسسات الدولة (بما فيه القطاع العام) لمصالحها الخاصة، وتحاول الإستئثار بقسم هام من الفائض الإقتصادي. وفي ظل غياب الرقابة الديمقراطية مع تزايد هيمنة الإحتكارات الأجنبية، تتحول هذه الفئة (أو الطبقة) إلى شريك أساسي للبرجوازية الإحتكارية الأجنبية،بل تصبح في بعض الحالات أهم سند اجتماعي محلي لتلك البرجوازية.

هذا وصف تحليلي سريع لحالة التبعية التي تعيشها البدان العربية- وغيرها من البلدان النامية بما فيها البلدان الإسلامية الأخرى- وهي الحالة التي بسببها نقول :

إن أولى الأولويات المطروحة أمام القوى السياسية الوطنية في البلاد العربية هي أولوية التخلص من التبعية.

وإن التناقض الرئيسي في الوطن العربي اليوم هو بين أنصار التبعية وأنصار التحرر.

وإن القوى الإجتماعية التي يجب أن تتحالف لحل هذا التناقض لصالح التحرر هي جميع الطبقات والفئات الإجتماعية التي تتناقض مصالحها مع استمرار حالة التبعية.

وهذه الحالة تطرح عدداً من الأسئلة الأساسية التي لابد لأية قوة سياسية تقدم نفسها كممثلة للجماعير الشعبية، وكمعادلة لقوى الإستعمار والسيطرة الأجنبية، من أن تطرحها، وتضع تصوراتها الخاصة بالإجابة عنها.

أسئلة عن كيفية معالجة أشكال التبعية : التجارية المالية والتكنولوجية والغذائية والعسكرية والثقافية... وعن طابع النظام السياسي القادر على تلك المعالجة.

- كيف نحل المسألة الزراعية وماهي الآليات الملائمة لتطور الأنتاج الزراعي؟

- ماهي الصناعات الملائمة لبلداننا، وماهي التكنولوجيا الملائمة، وكيف يمكن التخفيف من الإعتماد على الخارج في استيراد التكنولوجيا؟

- ماهي السياسات الإقتصادية والمالية التي تساعدنا على تخفيض عبء المديونية الخارجية تمهيداً للتخلص من التبعية المالية؟

- ماهي السياسات العسكرية الملائمة، وكيف نحل مسألة التسلح بحيث نتخلص، ولو تدريجياً، من التبعية العسكرية؟

- كيف نواجه سيل التدفق الإعلامي والثقافي الأجنبي دون أن نخسر الإنجازات الحضارية التي وصلت إليها البشرية؟

- ماهو شكل التنظيم السياسي للمجتمع، الملائم لواقع مجتمعاتنا، والذي يضمن أوسع مشاركة شعبية في النضال ضد الهيمنة الأجنبية ونظام التبعية الذي أنشأته وتعيد إنتاجه؟؟...

هذه بعض الأسئلة التي بحثت عن إجابات عنها في برامج الحركات الإسلامية المعاصرة، وكتب أو أحاديث أو خطب زعمائها، وفي السلوك العملي لبعض مؤسساتها، وحتى بعض الدول التي توصف «بالإسلامية»، علني أجد مايدعم فرضيتي حول إمكان، بل ضرورة تحالف جميع القوى الوطنية والتقدمية الأخرى مع هذه الحركات للنضال من أجل الخلاص من التبعية للنظام الرأسمالي العالمي.

فما هي الإجابات التي عثرت عليها؟.

ثانياً : ماهو موقف الحركات

الإسلامية المعاصرة من التبعية؟ :

1- لا بد من القول أولاً أن الحركات الإسلامية تختلف فيما بينها اختلافاً بيناً، وبالتالي لايجوز للباحث الحديث عنها وكأنها حركة سياسية واحدة(*). ولن نتوقف عند التباين بين الإتجاهات السنية والشيعية واختلافاتها حول مسألة «الإمامة» وغيرها من المسائل، على الرغم من أن عدداً من الباحثين يرى أن هذا التباين هام لتفسير الفروق بين الحركات الإسلامية المعاصرة. لكننا نفضل التأكيد على أهمية العوامل التاريخية التي ساهمت في تكوين كل من تلك الحركات (والتي يشكل المذهب واحداً منها فقط).

وعلى سبيل المثال نجد أن الحركات الإسلامية في بلدان المشرق العربي (وخاصة سورية) أكدت خلال الخمسينات على العروبة والإنتماء للأمة العربية ودعت إلى الوحدة العربية إلى جانب تأكيدها على الرابطة الإسلامية(12). بينما لانجد مثل هذا الخطاب لدى الحركات الإسلامية في بلدان المغرب العربي. ويبدو لنا أن الأمر متعلق بانتشار الفكر القومي العربي لدى معظم الحركات السياسية في المشرق العربي. والربط بين الوطنية والعروبة والرفض العام لأية دعوة لاتحمل طابعاً عربياً، وبالأخص بسبب وجود نسبة هامة من المسيحيين بين سكان أقطار المشرق، أما في المغرب «فالمشكلة غير مطروحة. فعندما نقول عربي نعني مسلم. وعندما نقول مسلم نعني عربي»(13). وعلى الرغم من تراجع الخطاب القومي العربي في أدبيات الحركات الإسلامية بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، فإننا مانزال نجد وصف «عربي» يرافق وصف «إسلامي» في أدبيات الحركات الإسلامية المشرقية»(14).

وبينما نجد بعض الحركات الإسلامية تدعو مباشرة إلى «الجهاد» لإسقاط الأنظمة «الكافرة» أو لإنهاء «الجاهلية» التي تعيشها الأقطار الإسلامية (الحركة الإسلامية في إيران، حزب الله في لبنان، منظمتا جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) والجهاد في مصر...)، وتؤكد على مبدأ «الحاكمية» على طريقة المودودي وسيد قطب، وتلح على وحدة القيادة وشمولية المهام التي يقوم بها الإمام أو الخليفة الملزم «برعاية الدين والدنيا في الأمة»(15) نجد حركات إسلامية أخرى تعترف «بالشرعية القانونية للدولة (القائمة) على اعتبار أنها مختارة من الشعب و«تسعى لممارسة حقها كطرف سياسي معترفة بغيرها من الأطراف السياسية الأخرى، مقدمة اختياراتها للنموذج الإجتماعي الذي تريد. فتخوض المعارك الإنتخابية وتضع مواطن أقدام لها في البرلمان ومؤسسات المجتمع، كالبلديات، وتشارك في الحكم ولو جزئياً لتدريب أفرادها على إدارة المؤسسات وعلى قيادة الجماهير وتعبئتها وتوعيتها بأهداف الحركة الإسلامية»(16).

بل إن حركة الإتجاه الإسلامي في تونس (النهضة حالياً) تقول أكثر من ذلك :

«إن حركة الإتجاه الإسلامي ليس عندها أي تحفظ تجاه أي طرف سياسي آخر سواء كان هذا الطرف إسلامياً أو غير إسلامي، إننا لم نقدم أنفسنا على أننا نمثل الإسلام... ولكن لنا رؤية للإسلام كما لغيرنا رؤيته، ولانرى مانعاً من تمثيله معنا. فإذا كانت أطراف أخرى لها تحفظات إزاء أي طرف أخر، يقبل الحوار، ويقبل الصراع الديمقراطي في البلاد ولا ينفي وجود غيره»(17).

ويرفض راشد الغنوشي (قائد الحركة الإسلامية التونسية) «التدين السفلي الإخواني، الوارد من المشرق الذي «يقوم أساساً على أولوية النص المطلقة على العقل (...) وعلى تأكيد شمولية الإسلام، ومبدأ حاكمية الله سبحانه، وتكفير الأنظمة القائمة والعمل على إزالتها(...) ، ويركز على التقوى والتوكل والإستعلاء الإيماني(..)، ويضخم الجانب العقائدي الأخلاقي على حساب الجوانب السياسية والإجتماعية(18).

وإجمالاً يمكن القول أن الحركات الإسلامية المعاصرة تختلف في طابعها الإجتماعي ومواقفها السياسية من منطقة جغرافية إلى أخرى (مشرق-مغرب)، ومن بلد إلى آخر، ومن منظمة إلى أخرى داخل البلد الواحد.

بل إن التباين يلاحظ أحياناً ضمن المنظمة الواحدة بين مرحلة وأخرى من مراحل عملها السياسي. فجماعة الإخوان المسلمين- أم الحركات الإسلامية المعاصرة في الأقطار العربية- تراوحت أساليب عملها في كل من مصر وسورية بين «الدعوة باللسان وبين القتل والإغتيال والإرهاب. ففي مصر تخلت جماعة الإخوان المسلمين عن «أسلوبها في امتلاك التنظيم السري وأدوات القتال أو أساليب الإغتيال» إلى محاربة الإنحراف والفساد عن طريق «الدعوة باللسان- أي تعليم الناس حاكمين ومحكومين الكتاب»، وشعار هذه الجماعة الآن «هو الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار مع الناس بالتي هي أحسن»(19).

وفي سورية خاضت جماعة الإخوان المسلمين الإنتخابات الديمقراطية عام 1954، جنباً إلى جنب مع حزب البعث والحزب الشيوعي وغيرهما، بينما شنت في أوائل الثمانينات حملة من الإرهاب والعنف الدموي في مختلف أنحاء البلاد بهدف الإستيلاء على السلطة السياسية.

وفي حين عارض قادة الإخوان المسلمين في مصر التأميمات والإصلاح الزراعي واقترحوا أن يكون الحد الأعلى لملكية الأرض 500 فدان، بينما حددتها ثورة 1952بـ 50 فداناً(20)، نجد مصطفى السباعي- أحد قادة الأخوان المسلمين في سوريا خلال

الخمسينات- يؤكد أن «الملكية في الإسلام مرتبطة دائماً بصيانة مصلحة الجماعة قبل كل شيء، لذا فإن الإسلام يحرم احتكار الثروة في أيدي زمرة من الناس «ويقر مبدأ» ملكية الدولة لقطاعات اقتصادية حساسة في حياة الأمة، كما يجوز لها التأميم في حالات استثنائية مثل الحروب والكوارث الطبيعية، أو لصيانة استقلال البلاد من التبعية»(21)

ويلاحظ الباحث العراقي فالح عبد الجبار بحق أنه «حتى في حالة رفع شعار متطابق، كشعار «الحكم الإسلامي» فإن هناك وجهات نظر متباينة، أو اجتهادات مختلفة بلغة الفقه، حول محتوى هذا الحكم الإسلامي نفسه(22).

2- وليس موقف الحركات الإسلامية من الغرب والقوى الأجنبية المهيمنة بوجه عام (وبالتالي من مسألة التبعية) أقل تبايناً.

فمنذ المعارك الوطنية الأولى ضد الإستعمار منذ أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن حتى يومنا هذا كان «رجال الدين، والحركات الدينية، كل حسب موقعه الطبقي ومصالحه الإجتماعية، يتخذ موقفاً وطنياً واضحاً يرفض السيطرة الكولونيالية ويكافحها، أو موقفاً رجعياً مماثلاً للإحتلال الكولونيالي، راضياً به»(23).

وبالمقابل فإن «تاريخ نشاط القوى الغربية، في المنطقة العربية بالذات، يتلخص في تشجيع وتنشيط التيار المحافظ من الأيديولوجيا الدينية، بكل السبل والأشكال، وقمع أي تيار راديكالي ينبعث من هذه الأيديولوجيا كأداة من أدوات الصراع الدولي (في حدود تجليه داخل رقعتنا الجغرافية). ليس هذا وحسب. فالقوى الغربية مسؤولة أيضاً، مسؤولية مباشرة، عن الحفاظ على الطابع الإقطاعي، أو شبه الإقطاعي لبلداننا، على امتداد مرحلة تاريخية طويلة نسبياً (منذ أواخر القرن الماضي وحتى بداية الستينات)، وهذا الطابع هو الأساس المادي، لبقاء واستمرارية التربة الخصبة للغيبية، وبالتالي التربة الخصبة لبقاء التيارات الدينية المحافظة، هنا أو هناك»(24).

ويؤكد عدد من الباحثين، في بلادنا، وفي الغرب بوجه خاص، على أهمية المساعدات المتنوعة التي تلقتها الجماعات الإسلامية من الغرب، بسبب التقاء مصالح هذه الجماعات مع الغرب في العمل ضد التيارات القومية واليسارية. وهذا ما أكدته تصريحات عدد من المسؤولين الأوربيين والأمريكيين، كتصريح بريجنسكي، مستشار الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي، عام 1980 بأن الولايات المتحدة الأمريكية «لاتخشى عملية البعث الإسلامي بل ترحب بها»(25)، كما تؤكده مصادر أخرى تحدثت عن هبات مالية سخية قدمت من الدول الغربية أو من مؤسسات تابعة لها في المنطقة العربية إلى بعض الجماعات الإسلامية (كهبة شركة قناة السويس إلى الأخوان المسلمين عند تأسيس

حركتهم عام 1928) (26).

وفي هذا الصدد يشير محمد عابد الجابري في بحثه عن «الحركة السلفية والجماعات الدينية المعاصرة في المغرب» إلى أن «الدول النفطية شجعت هذا التيار (الإسلامي المتمثل خاصة في الأخوان المسلمين في المشرق) واحتضنته، وأنفقت عليه بسخاء»(27). ويرى أن هذا شكل عاملاً أساسياً من العوامل التي ساعدت على انتشاء هذا التيار. ولم تكن تلك «المساعدات» بلا جدوى. فلقد قال عمر التلمساني- المرشد العام للأخوان المسلمين في مصر إنه على الرغم من إساءات أمريكا البالغة للإسلام «فمازلنا نعتبرهم (أي الأمريكين) أهل كتاب». وقد لخص أحد الباحثين الإسلاميين موقف الأخوان من أمريكا خلال حقبة السبعينات، استناداً إلى مقالات التلمساني، في النقاط التالية :

(أ) إن الولايات المتحدة، أقوى دول الأرض من الناحية المادية وأن عيونها على مختلف أسمائها، تنفذ إلى أعمق أسرار دول الأرض.

(ب) يوقن الأخوان- والرأي لقادتهم- بأنه من المكن فعلاً وواقعاً أن تغير أمريكا موقفها من المسلمين.

(جـ) يسأل قادة الأخوان لماذا لاتبنى الولايات المتحدة سياسة تصرفاتها على أساس العدالة الطيبة والإنصاف النزيه».

ويضيف الباحث «إن الدلالة المستقاة من هذه العبارات هي إيمان مرشد الأخوان بأن للأمريكان دوراً في كل بقعة من بقاع الأرض. وبالرغم من أن هذا تفكير واقعي ووزن عقلاني للأمور، إلا أن الإتجاهات الإسلامية الأخرى أدانته ورأت فيه تخاذلاً وتراجعاً عن جوهر دعوة الإسلام التي لا تخشى في الله أحداً(28).

3- لكن الخطاب السائد في أدبيات الحركات الإسلامية المعاصرة هو خطاب العداء للغرب الإستعماري وللولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد. ولعل أبرز من يمثل هذا التيار هو الإمام آية الله الخميني. إذلايخلو خطاب من خطبه أو حديث من أحاديثه من هجوم على الغرب. فالغرب عنده استعماري بطبعه، وهو الذي يبث الفرقة بين المسلمين، ولذا فإن مصير المسلمين مرتبط بالنضال ضد الغرب وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

إن الولايات المتحدة عنده هي «الشيطان الأكبر» حيث كل «المصائب التي حاقت بنا وكل مشاكلنا من أمريكا، وكل المصائب التي حاقت بنا وكل مشاكلنا من إسرائيل، هؤلاء النواب من أمريكا، هؤلاء الوزراء من أمريكا، كلهم معينون من قبلها لقمع هذه الأمة المظلومة، واقتصاد إيران وتجارتها في الفقر والإفلاس. أما إصلاحات السادة فقد فتحت سوقاً سوداء لأمريكا وإسرائيل. بل إن أمريكا أسوأ من بريطانيا، والسوفييت أسوأ منهما معاً. الكل أسوأ من الكل

وأكثر قذارة من الكل، لكن صدامنا في هذه المرحلة مع أمريكا»(29).

ويخاطب الخميني المسلمين محذراً «أنا أقول لكم إنه إذا كان همنا الوحيد أن نصلي، وندعو ربنا ونذكره، ولانتجاوز ذلك، فالإستعمار وأجهزة العدوان كلها لاتعارضنا ماشئت فصل، ماشئت فأذن، وليذهبوا بما أتاك الله... هم يريدون نفطنا هم يريدون معادننا، يريدون أن يفتحوا أسواقنا لبضائعهم ورؤوس أموالهم...»(30) «يريدون إبقاءنا على تخلفنا وضعفنا وبؤسنا، ليستفيدوا هم من ثرواتنا ومعادننا وأراضينا وقوانا البشرية»(31).

وهو يدين الإستعمار بيثه الفرقة بين المسلمين «إن الأيدي القذرة التي تبث الفرقة بين الشيعي والسني في العالم الإسلامي لاهي من الشيعة ولامن السنة. إنها أيدي الإستعمار التي تريد أن تستولي على البلاد الإسلامية من أيدينا. والدول الإستعمارية والدول التي تزيد نهب ثرواتنا بوسائل مختلفة وحيل متعددة هي التي توجد الفرقة باسم التشيع والتسنن»(32) ونلمس الخطاب نفسه لدى جماعات إسلامية أخرى أيضاً. فهذا عباسي مدني، زعيم الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر يعيب على الغربيين أنهم «طلبوا رفاهيتهم في إفقار غيرهم، نشدوا حريتهم باستبعاد الآخرين، ووسعوا نطاق إستغلالهم لكنوز المعمورة ومجالات الفضاء بمضايقتها على غيرهم. فرفعوا شعار تحرير العبيد لتغطية استعبادهم لأمم استباحوا استعمارها...» كما أنهم عملوا على «فرض ظروف تاريخية مفتعلة من التبعية ليبقوا متبوعين، ووضع شروط سياسية واقتصادية وثقافية وتربوية من التخلف ليحافظوا على سبقهم الإقتصادي وتفوقهم الحضاري...»(33)

ويعتقد راشد الغنوشي أن النماذج السائدة في العالم الإسلامي «ظلت بناء فوقياً لم يستطع أن يتغلغل في أعماق الجماهير» لأن هذه النماذج مستوحاة من الغرب»(34).

ويشن منظرو حزب الله في لبنان حملة شعواء على الغرب والولايات المتحدة، وينفذ مقاتلوه عمليات انتحارية ضد الوجود الغربي والأمريكي والإسرائيلي في لبنان...

4- لكن ماهو الحل الذي تطرحه الحركات الإسلامية المعاصرة للتخلص من التبعية للغرب، وللولايات المتحدة الأمريكية خاصة؟

يفاجأ الباحث بعدم وجود أي برنامج حول هذه المسألة، لدى أي من الحركات المذكورة. وكأن لسان حالهم يكرر ماقاله حسن البنا منذ ثلاثينات هذا القرن من أن الأخذ عن الغرب لن يؤدي إلا إلى مزيد من الضعف والتبعية، إزاء هذا الغرب، وأن بناء مجتمع قوي، لن يتحقق إلا بالعودة المطلقة وغير المشروطة للنظام الإسلامي وبقدر مايتلمس المجتمع روح

النصوص الشرعية، في القرآن والسنة على الصعيد النظري، وبقدر مايتمثل نظام ومؤسسات المجتمع الإسلامي الأول في المدينة، على الصعيد العملي، يصبح مجتمعاً إسلامياً ويمتلك عناصر القوة والنهوض(35).

«إن العالمية والقومية والإشتراكية والرأسمالية والبلشفية، وتوزيع الثروة والصلة بين المالك والمستهلك، كلها خاض فيها الإسلام»...

«نحن مسلمون وكفى، ومنهاجنا منهاج رسول الله وكفى، وعقيدتنا مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله وكفى»(36).

وإذا قلت أن الحركات الإسلامية المعاصرة لم تضف شيئاً إلى هذا القول أكون متجنياً. فلقد أضافت أشياء هامة، لكنها ماتزال بعيدة جداً عن أن ترقى إلى مستوى تعقيد المسألة المطروحة.

-فالإمام الخميني، الذي بذل جهداً كبيراً في تحليل الجوانب الإقتصادية والإجتماعية والحضارية للإستعمار من سلب وسيطرة وعنصرية ومحو للثقافات الوطنية للشعوب المستعمرة، وأشار في أكثر من مكان إلى الأساليب المختلفة لمقاومة الاستعمار عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً، يرى أن أعقد القضايا يمكن أن تحل «بالأخلاق الإسلامية الحقة».

فهو عندما يبحث في المشكلات الإقتصادية التي تواجه عالم الإسلام يرى أن مواجهة هذه المشكلات تكمن في الأخلاق.

«فالنظام الإقتصادي الذي يصبو إليه لايرتكز إلى قوانين السوق ولا إلى التخطيط ورقابة الأنشطة الإقتصادية من قبل الدولة وإنما إلى الأخلاق: أخلاقية في الدوافع وأخلاقية في المبادلات. وهو يطلب من شعبه احتقار المال والربح(...) إن فكرة السياسي بسيط. إن حاجة كل فرد والقيمة الإستعمالية لسلعة ماستعود وتتغلب على قيمتها التجارية»(37).

ومادام الهدف الأصلي للدول الإستعمارية- في رأي الخميني- «هو القضاء على القرآن ومحوه، والقضاء على الإسلام وعلماء الإسلام»، فإن مواجهة هذه الدول تكمن في «إعادة تربية علماء الأمة وإعداد فقهائها لهذه المسئولية الجسيمة، ويتركز هذا الإعداد على نزع حب الدنيا من القلوب والتربية الخلقية وتزكية النفس وتهذيب السلوك وتنظيم المناهج وتربية الإنسان»(38).

- ولا يختلف عباسي مدني عن هذا الإتجاه. بل هو يرى، فوق ذلك، أن «غياب عامل الدين القويم» هو الذي «أفضى بالتجربة الحضارية الغربية إلى التورط في أخطاء استعصى حلها على عبقرية الإنسان الحديث، وجعل حضارتها تهدد بالسقوط والإنهيار»(39). واستبعاد الشعوب

وإفقارها وفرض التبعية عليها من تلك «الأخطاء» في رأي مدني.

- ويطالب الأخوان المسلمون في سورية بـ «تحرير الإقتصاد من التسلط الداخلي والتبعية الأجنبية(...) وإعادة الثقة إلى رؤوس الأموال العربية، وسحب جميع الأرصدة العربية والإسلامية لتوظيفها في بلادنا العربية والإسلامية، وعدم اللجوء إلى الإقتراض من الدول الأجنبية في بناء الإقتصاد وتشييد المشروعات، وحظر السرف والترف...»(40)، إلى غير ذلك من الشعارات السائدة في أدبيات معظم الحركات السياسية الوطنية، دون أي بحث في الآليات والوسائل التي تؤدي إلى تحقيق أهداف صعبة كهذه.

- ويدعو حزب الدعوة العراقي إلى «استخراج النفط وتسويقه وتصنيعه وطنياً»، وبيعه «حسب حاجتنا لاحاجة السوق الرأسمالية»، واستخدامه «كأداة سياسية لضرب النفوذ الإستعماري في العالم الإسلامي»(41). دون أن يقول لنا كيف سيتم ذلك، وماهي العوامل التي تحدد أسعار النفط وكيف يمكن لنا أن نتحكم بها...

- ولعل أهم مؤلف لمنظر إسلامي يطرح المسائل موضوع البحث، وبخاصة جوانبها الإقتصادية، هو مؤلف السيد محمد باقر الصدر «إقتصادنا» : دراسة موضوعية تتناول بالنقد وبحث المذاهب الإقتصادية للماركسية والرأسمالية والاسلام في أسسها الفكرية وتفاصيلها».

في هذا المؤلف الهام يؤكد السيد الصدر في أكثر من مكان على أن الإقتصاد الإسلامي «يعتبر قواعد التوزيع التي جاء بها ثابتة وصالحة في كل زمان ومكان، لايختلف في ذلك عصر الكهرباء والذرة عن عصر البخار، ولاعصر البخار عن عصر الطاحونة الهوائية والعمل اليدوي»(42).

وجهاز التوزيع في الإقتصاد الإسلامي يتكون وفقاً للصدر من أداتين رئيسيتين : العمل والحاجة. «فالعمل في نظر الإسلام سبب لملكية العامل لنتيجة عمله، وهذه الملكية الخاصة القائمة على أساس العمل تعبير عن ميل طبيعي في الإنسان إلى تملك نتائج عمله. ومرد هذا الميل إلى شعور كل فرد بالسيطرة على عمله، فإن هذا الشعور يوحي طبيعياً بالميل إلى السيطرة على نتائج العمل ومكاسبه»(43).

أما فيما يتعلق بالحاجة فهي تدعو- وفقاً لمبادئ الكفالة والتضامن- إلى أن تحصل الفئات العاجزة وغير القادرة على العمل على نصيب من التوزيع يضمن حياتها كاملة على أساس حاجتها(44).

يعلق الإقتصادي المصري محمود عبد الفضيل على ذلك قائلاً «ولعل هذه الرؤية توائم وتناظر الإنتاج السلعي الصغير «ذي الطبيعة الحرفية»، حيث هناك شعور لدى الفرد (الحرفي)

بالسيطرة على ظروف عمله(...)، وكذا على نتائج عمله ومكاسبه. ولكن في ظل التقسيم المعقد والمطرد للعمل في المجتمعات الحديثة، وفي ظل الأشكال المختلفة «للعمل الأجير» (...) يصبح من الصعب تصور كيف يتملك العامل نتائج عمله وكيف يسيطر على نتائج العمل ومكاسبه. وهكذا يتضح أن هذه المقولة حول علاقات التوزيع إنما هي مرتبطة بشكل معين من أشكال الإنتاج الحرفي والإنتاج السلعي الصغير، ولاتطابق الواقع خارج هذا الشكل الإنتاجي»(45).

فكيف يمكن تصور تملك العامل نتائج عمله «في مجتمع تابع تهيمن على معظم ميادين الإنتاج فيه الشركات الأجنبية العملاقة، متعددة الجنسية، حيث لايستطيع المجتمع كله، والدولة نفسها، السيطرة على نتائج العمل ومكاسبه، فتذهب معظم هذه المكاسب إلى خزائن الشركات الإحتكارية الكبرى؟

5- من اللافت للنظر في وثائق جميع الحركات الإسلامية المعاصرة، بما فيها تلك التي تدعو إلى تقييد الملكية الخاصة وربطها بالعمل، كما في كتاب السيد الصدر، أو الداعية إلى الإستثمار الوطني للثروات ورفض الإقتراض من البنوك والدول الأجنبية، وتحديد الإستهلاك الترفي، كما في بعض وثائق الأخوان المسلمين وحزب الدعوة، وتلك التي تطالب «بتحقيق التوازن بين الإنتاج والإستهلاك وبين الصادرات والواردات لحماية البلاد الإسلامية من التضخم والمديونية والتبعية»، كما ورد في برنامج الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر(46)، في جميع هذه الوثائق تركيز على أهمية النشاطات التجارية، ومشروعية «الربح التجاري» ودفاع عن حرية التجارة وتنقل رؤوس الأموال، وهجوم على احتكار الدولة للتجارتين الداخلية والخارجية، مع شرط واحد يتكرر باستمرار : أن تكون الأموال «إسلامية» وأن لاتتعامل بالربا.

فالأخوان المسلمون في سورية يدعون إلى «إعادة الثقة إلى رؤوس الأموال العربية والإسلامية»، وحزب الدعوة في العراق يدعو إلى «حرية تنقل رؤوس الأموال بين البلدان الإسلامية»، وبرنامج الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر يدعو إلى «منع احتكار الدولة للتجارة، وتشجيع ظهور الشركات التجارية الحرة لتنشيط الإقتصاد، وإزالة الإحتكار والربا عن طريق إنشاء بنوك إسلامية وصناديق للقرض خالية من الربا بكل أشكاله»(47). لن أضيف شيئاً هنا إلى الردود البليغة التي أوردها عدد من المفكرين الإقتصاديين العرب، أمثال فالح عبد الجبار، ومحمود عبد الفضيل، ومحمد دويدار وفؤاد مرسي(48) وغيرهم، ممن أكدوا أن إضافة صيغة «إسلامي» أو «عربي» إلى رأس المال لايغير شيئاً من طبيعته الإستغلالية. فالرساميل السعودية أو الكويتية أو التركية أو الإيرانية ليست

أقل نزوعاً للربح من الرساميل الفرنسية أو الأمريكية لأنها «إسلامية». لقد صار رأس المال منذ أوائل هذا القرن، وبخاصة في نصفه الثاني، دولياً، عالمي النشاط، مترابطاً ترابطاً عضوياً بغض النظر عن جنسية أصحابه أو نواياهم. وإن «إخفاء حرية تنقل رؤوس الأموال تحت ستار «الإسلام»، لايمكن له أن يحجب حقيقة أن هذه الحرية تتجاوز حدود البلدان الإسلامية نفسها. فهذه البلدان تشكل جزءاً من النظام الرأسمالي العالمي، وترتبط به بألف وشيجة ووشيجة. وإدراج الإسلام كدين رسمي في دولة من الدول لا يكفي لإخراجها من إسار هذا النظام»(49).

إن تجربة «البنوك الإسلامية» و«شركات توظيف الأموال الإسلامية»(*) ماتزال ماثلة للعيان. فلقد بيّنت الفضائح التي أثيرت حول هذه الشركات أنها قد «لجأت في عديد من الأحوال إلى أسلوب «الحيلة» في تعاطي الربا وأكل أموال الناس بالباطل، فممارسات شركات الريان في مجال الاتجار بالسيارات الحديثة والمستعملة تنطوي على «ربا الفضل» بالمعنى الدقيق للكلمة»(50).

وإذا توقف الباحث عند العوائد العالية التي تقدمها هذه الشركات للمودعين، والتي تحدد سلفاً في العادة (بين 20- 30٪ سنوياً) إضافة إلى مبلغ «خرافي» في نهاية العام يقوم على أنه من حساب الربح، يثير التساؤل حول ماإذا كانت هذه الوحدات :

- تمارس نشاطات عادية بطرق عادية.

- تمارس نشاطات غير عادية (المضاربة، جلب المخدرات...)

- تقوم بتوزيع أجزاء من النقود المودعة... أي توزع رأس المال الأحداث في التلقي.

- أو أن تعمل كأدوات لقوة ماخصصت عدداً من المليارات للسيطرة على الإقتصاد المصري وتحويل غالبية أفراده إلى ريعيين، يبعدون عن النشاط الإنتاجي.

خاصة إذا تذكرنا أن هذه الوحدات تمارس نشاطها في إطار الإقتصاد الرأسمالي الدولي. وأن وزنها النسبي في هذا الإقتصاد يكاد لايذكر، وبكفاءة أداة تكاد تعادل الصفر...»(51). إن البنوك والشركات الإسلامية هي من رأس المال الدولي وإليه. ففي ظل سيطرة هذا الرأسمال تنشأ الأموال التي تودع في هذه البنوك أو الشركات (البترو دولار بوجه خاص). كما أن «أجزاء كبيرة (إن لم تكن الأجزاء الأكبر) من الأموال التي تجمعها تلك الشركات تودع في الجهاز المصرفي للبلدان الرأسمالية المتقدمة (سويسرا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة وكندا..)، كما تمارس أنشطة مضاربة في أسواقها المالية»(52). إن رأس المال الدولي هذا، الذي يستفيد من تلقي ودائع الشركات والبنوك «الإسلامية»

واستثمارها، هو نفسه الدائن لاقتصاد البلدان العربية والإسلامية، وفي فترة تاريخية تلعب فيها المديونية الخارجية لهـذه البلدان واحـدة من الآليـات الأساسية لاستنزاف فائضها الإقتصادي، وإعادة إنتاج تبعيتها وتخلفها.

لاأظن أن الحركـات الإسلاميـة المعـاصرة كلها توافق على مثل هذا النهج أو تعدّه إسلامياً. لكنني، بعد أن أطلعت على عدد كبير من أدبيات هذه الحركات، مقتنع تماماً بما قاله أحد المفكرين الإسلاميين بمناسبة فوز الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الإنتخابات التشريعية في الجزائر:

«هذا الواقع الدولي الراهن لانملك- نحن في الحركة الإسلامية - في تصور واضح نحوه، ولم نكون موقفاً شرعياً إزاءه أو أي نشاط فقهي يحدد لنا معالم التعامل مع هذا النظام. كل مانملكه في هذا الصدد هو التراث الفقهي القديم الذي تأسس إبان عهد الهيمنة الإسلامية كـ «السير الكبير» لأبي يوسف وشرحه للسرخي، والذي يقسم العالم إلى دار حرب ودار سلام. نحن عندما ننادي بالمشروع الإسلامي الحضاري لم ننصرف لحظة واحدة إلى أنفسنا لنتساءل عن مضمون هذا المشروع وتصوراته إزاء القضايا الكبرى»(53)

الهوامش

1- إبراهيم السيسوي، معنى التبعية، (قضايا فكرية)، الكتاب الثاني 1986

(1) الكتاب السنوي لمعهد الدولي لبحوث السلم في ستوكهولم (SIPRI) لعام 1990 ص 194 (بالإنكليزية).

(*) استناداً إلى معطيات عام 1990. أما بعد حرب الخليج الثانية فربما احتلت السعودية مكان العراق أو صارت أكبر مستورد للسلاح في العالم.

(2) المصدر السابق، ص 196-197.

(3) جورنال أوف بيس ريسرتش (مجلة بحوث السلم)، المجلد 26/ العدد 4-1989، ص 399-412.

(4) أنظر فانينشال تايمز، لندن 17/8/ 1988.

(5) زرق الله هيلان، المديونية- حصان طروادة الجديد في البلدان المخلفة، دمشق 1987، ص 12.

(6) اليوم السابع، باريس العدد 2,256 نيسان 1989.

(7) الفيغارو، باريس 1986/11/28.

(1) الأهرام، القاهرة 1989/3/29 (*) تجدر الإشارة هنا إلى أننا لانتحدث عن الإسلام كدين، بل عن حركات سياسية تهدف إلى إقامة سلطة سياسية تستند إلى المبادئ الإسلامية في الحكم التشريع. وبهذا فإن تحليلنا لايبحث في التدين الإسلامي ولا يشمل جميع المفكرين الإسلاميين، بل يقتصر على أولئك الذين يمثلون المنظمات السياسية الإسلامية.

12- وأنظر بهذا الصدد الحبيب الجنحاني «الصحوة الإسلامية في بلاد الشام مثال سوريا»، ضمن كتاب «الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي»، بيروت، 1989، ص 129.

13- حركة الإتجاه الإسلامي، حقائق حول حركة الإتجاه الإسلامي، تونس، 1983، ص 18.

14- أنظر مقاطع من «بيان الثورة الإسلامية في سورية ومنهاجها»، الصادر عن (قيادة الثورة الإسلامية في سورية) عام 1980 في المرجع السابق، الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، ص 145-154.

15- أنظر مثلاً عباسي مدني، أزمة الفكر الحديث ومبررات الحل الإسلامي، مكة المكرمة، بلا تاريخ، ص 90.

16- راشد الغنوشي وحسن الترابي، الحركة الإسلامية التحديث، 1981، ص 34- 35.

17- حركة الإتجاه الإسلامي، مرجع مذكور، ص 23 ذكرها محمد عبد الباقي الهرماسي في مقاله الهام «الإسلام الإحتجاجي في تونس»، ضمن كتاب الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، السابق ذكره.

18- راشد الغنوشي، «تحليل للعناصر المكونة للظاهرة الإسلامية بتونس»، ضمن كتاب الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، مرجع مذكور، ص

.301

19- محمد أحمد خلف الله «الصحوة الإسلامية في مصر، ضمن المرجع السابق ص 66.

20- أميل توما، العملية الثورية في الإسلام، بيروت، بلا تاريخ، ص 106.

21- الحبيب الجنحاني، مرجع مذكور ص136.

22- فالح عبد الجبار، المادية والفكر الديني المعاصر، مركز الأبحاث والدراسات الإشتراكية في العالم العربي 1985، ص 12.

23- المرجع السابق، ص 18.

24- المرجع نفسه، ص 22-23.

25- أنظر بهذا الصدد، المختار بنعبدلاوي، دراسة في بعض الإتجاهات الإسلامية في الفكر العربي المعاصر، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة دمشق 1990، ص 65.

26- عبد الحليم محمود، الأخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ، رؤية من الداخل، القاهرة، 1952 (أنظر المرجع السابق ص 25).

27- محمد عابد الجابري، «الحركة السلفية والجماعات الدينية المعاصرة في المغرب، ضمن كتاب الحركات الإسلامية المعاصرة... المشار إليه.

28- رفعت سيد أحمد، الحركات الإسلامية في مصر وإيران، القاهرة، 1989، ص 99، 100.

29- بيان تاريخي ضد الإمتيازات الأجنبية في إيران، أنظر المرجع السابق، ص 165.

30- آية الله الخميني، الحكومة الإسلامية، ترجمة حسن حنفي، القاهرة، 1983، ص 21-22.

31- أنظرو رفعت سيد أحمد، المرجع المذكور، ص 165. 32- خطبة الخميني 2جمادى الأولى 1384- أنظر المرجع السابق، ص 164.

33- عباسي مدني، مرجع مذكور، ص 14-20.

34- أنظر، محمد عبد الباقي الهرماسي، مرجع مذكور، ص 267.

35- أنظر، المختار عبدلاوي، مرجع مذكور، ص 122.

36- حسن البناء مذكرات الدعوة والداعية، ص 100، أنظر محمد أحمد خلف الله، مرجع مذكور، ص 49.

37- أنظر، رفعت سيد أحمد، مرجع مذكور، ص 161.

38- حسن حنفي، الإمام الخميني، جهاد النفس أو الجهاد الأكبر، ص 13. أنظر المرجع السابق ص 160.

39- عباسي مدني، مرجع مذكور، ص 19.

40- الحبيب الجنحاني، مرجع مذكور، ص 141-149.

41- فالح عبد الجبار، مرجع مذكور، ص 66.

42- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، بيروت، 1980 (الطبعة 13)، ص 677.

44- المرجع نفسه، ص 353.

45- محمود عبد الفضيل، «ملاحظات أولية حول بعض مقولات الإقتصاد الإسلامي»، قضايا فكرية، القاهرة الكتاب الثامن، أكتوبر 1989، ص 115.

46-47- أنظر مقاطع من البرنامج المذكور في صحيفة الحياة، لندن، 1992/1/7. 48- أنظر لهؤلاء المراجع المذكورة أعلاه وكذلك، فؤاد مرسي، التخلف والتنمية، بيروت 1982.

49- فالح عبد الجبار، مرجع مذكور، ص 70.

*- انتشرت هذه الشركات خاصة في مصر خلال الثمانينات، وقد أسس بعضها قادة سابقون للأخوان المسلمين ابتداءاً من ثروات كوّنت أصلاً في السعودية وغيرها من دول الخليج، وقد سميت هذه الشركات في السعودية وغيرها من دول الخليج، وقد سميت هذه الشركات في الغالب إسلامية، وأعلنت كلها أنها تعمل وفقاً لقواعد الشريعة الإسلامية، وقدر أن هذه الشركات تسيطر على أموال تعادل نصف مايوجد لدى البنوك التجارية المصرية (عام 1987م) وتراوحت هذه التقديرات بين 5 و14 مليار دولار، كما قد عدد المودعين في هذه الشركات بنحو مليون مودع (في مصر وحدها).

أنظر بهذا الصدد، محمد دويدار، شركات توظيف الأموال في الإقتصاد المصري، قضايا فكرية، القاهرة، الكتاب الثامن، أكتوبر 1989.

50- محمود عبد الفضيل، مرجع مذكور، ص 118.

51- محمد دويدار، شركات توظيف الأموال في الإقتصاد المصري، قضايا فكرية، الكتاب الثامن، أكتوبر 1989، ص 141.

52- المرجع السابق، ص 144.

53- إسماعيل الشطي، «فوز الجبهة الإسلامية في الجزائر، الفرحة الخيفة»، الحياة، 1992/1/19.

د. حسن بهلول

سياسة الخوصصة في الجزائر

ملامح وأبعاد

بدأت فكرة الخوصصة تطرح نفسها بإلحاح مع السنوات السبعينية تحت تأثير عاملين أحدهما سياسي وثانيهما إقتصادي.

أما العامل السياسي فيعود إلى أحتداد الصراع الإيديولوجي بين ما كان يسمى قبل تفككه في الثمانينيات بالمعسكر الإشتراكي، الذي يقوم تنظيم الاقتصاد الوطني، في بلدانه أو البلدان المتأثرة بأفكاره، على الإدارة المباشرة للدولة، تحت نظام قانون التخطيط، بإعتبار الدولة قائدة للتنمية بواسطة القطاع العام الإقتصادي إذن بين هذا المعسكر من جهة والمعسكر الرأسمالي من جهة أخرى الذي يقوم بناء الإقتصاد فيه على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج أساسا و الملكية العامة استثناءا. و الذي يتولى قانون السوق تنظيم علاقاته الانتاجية والاقتصادية. و هو تناقض أرعج التفكير السياسي الدولي الذي يرى فيه مصدر وتر عالمي يهدد السلم و الأمن في كوكب الأرض. ولقد كانت للديناميكية الاقتصادية الرأسمالية، التي تميزت بالمرونة و الحيوية، فرة الغلبة في هذا الصراع على حساب الديناميكية الاقتصادية الاشتراكية، التي عجزت عن تطوير علاقاتها الانتاجية بما يتناسب و تطور قواها الانتاجية وما تولد عنها من حاجات اجتماعية جديدة و قوية.

وأما العامل الاقتصادي فيعود بالدرجة الأولى إلى مشكل المديونية العالمية المتراكمة في نفس الوقت على العالم الاشتراكي (قبل تفككه) و العالم الثالث. ولقد كان العبء أكثر ثقلا على هذا الأخير حيث نما الدين الخارجي بسرعة سنوية فائقة، نظرا لعلاقات التبعية الاقتصادية للخارج التي ما انفك يرزح تحتها، فقفز حجمه من 80 مليار دولار أمريكي سنة 1972 إلى 610 مليار سنة 1980 وإلى نحو 1000 مليار سنة 1985 و إلى حوالي 1600 مليار سنة 1990 إلى ما يقدر بنحو 1900 مليار دولار سنة 1994 (1).

ولاشك ان ما يشكل حالة ازمة اقتصادية و اجتماعية و سياسية في هذه المديونية على العالم

الثالث هو المعدل الكبير لخدمات الدين (الاساس + الفوائد) بالنسبة للناتج الداخلي الاجمالي الذي يرتفع الى متوسط 35%، و على الاخص بالنسبة للصادرات الذي يزيد عن 132%(2).

و في هذا المناخ الدولي ، و تحت تاثيراته كان الطرح القوي ، مع الضغط المستمر من اجل التحقيق ، لفكرة الخوصصة التي سنعالجها بالنسبة للجزائر عبر العناصر الاتية بكثير من الاختصار:

= مفهوم الخوصصة
= عوامل الدفع الى الخوصصة
= اتجاهات الخوصصة
= إعادة هيكلة القطاع العام الاقتصادي
= الإستثمارات الإقتصادية الخاصة
= النتائج و الأبعا

أولاً: مفهوم الخوصصة

يعود منشأ مصطلح الخوصصة أو العومة من الناحية القانونية ، لوجود طبيعتين متمايزتين ، للملكية أحداهما تتمثل في الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج ، التي قد تكون ملكية أشخاص طبيعين فرادى أو ملكية جماعات أشخاص طبيعيين تحت نظام شركة من الشركات المختلفة الأنواع كالمساهمة أو التضامنية أو غيرهما ، وثانيتهما تتمثل في ملكية الدولة لوسائل الانتاج أما مباشرة عندما تتولى إداراتها المركزية أو المحلية تسيير الهيكل المعني (المؤسسة او الوحدة) تسييرا مباشراً، وإما غير مباشرة عندما تفوض الدولة مهمة هذا التسيير إلى تنظيم معين متخصص أنشأته لهذا الغرض مثل الشركات العمومية المختلفة.

وهكذا فإن المقابلة بين هاتين الطبيعتين المتمايزتين للملكية يطرح مايسمى، عرفا و في المداولات الجارية، بالقضاء الخاص وقدامه القطاع العام . و يترتب عن تنقل ملكية وسائل الإنتاج بين القطاعين ، تحت التفاعلات الإقتصادية وغير الإقتصادية، حدوث عملية الخوصصة ، عندما يكون نقل الملكية هو من القطاع العام إلى القطاع الخاص أو حدوث عملية العومة عندما يكون نقل الملكية من القطاع الخاص إلى القطاع العام.

إن هذا المفهوم التشخيصي للخوصصة مبسط . لأن الفكر الاقتصادي المعاصر الذي تزايد إهتمامه بفكرة الفعالية الإقتصادية، و بنتائج العمل المنظم تحت أساليب تسيير مختلفة، لم يعد يتقيد، في مفهوم الخوصصة بالطبيعة القانونية للملكية وحدها، و إنما بنظام تسيير وسائل الإنتاج، الذي يبدو أنه راح يحتل حيزاً متنامياً من الإهتمام وعناية البال(3) ويعود ذلك إلى الدور المتزايد للبراغماتية Le Pragmatisme، التي تستمد قوتها من القيمة التطبيقية في تحديد سياسات التنظيم، أمام الدور المتراجع للإيديولوجية l'idiologie التي تقوم على اعتناق أفكار مسبقة خاصة بمرحلة تاريخية معينة، أو بقيم اجتماعية خاصة أو بمصالح طبقية محددة.

ولا شك أن هذا الوزن المتزايد للبراغماتية، في سياسات تنظيم الاقتصاد وادارة المجتمع، على حسابات الإيديولوجية التي كان دورها مهيمناً قبل السبعينات، ناتج عن التنامي السريع للحاجات الإجتماعية كماً وكيفاً بالنسبة لوسائل الإشباع.

وانطلاقاً من هذه الأفكار يمكن تصور مفهوم الخوصصة أنها العملية التي يترتب عنها إما انتقال ملكية وسائل الإنتاج من القطاع العام إلى القطاع الخاص.وإما تنازل القطاع العام عن تسيير هذه الوسائل لفائدة القطاع الخاص. ويحق لنا اعتبار الخوصصة في الحالة الأولى خوصصة حقيقية كاملة Privatisation achevée وفي الحالة الثانية خوصصة شكلية أو غير كاملة privatisation inachevée؛وباختصار تسمية الحالة الأولى خوصصة الملكية وتسمية الحالة الثانية خوصصة التسيير.

ثانياً- عوامل الدفع إلى الخوصصة

مع أن سنة 1994 كانت سنة الحسم في المرور بالإقتصاد الجزائري إلى مرحلة الخوصصة. بعد أن

وافق مجلس الوزراء في اجتماعه يوم السبت 9 أبريل 1994، تحت رئاسة رئيس الدولة السيّد اليمين زروال، على رسالة النية التي أرسلت ذات اليوم إلى المدير العام لصندوق النقد الدولي السيّد كانديسوسCandessus مع ذلك يجب التنبيه إلى أن الضرورة الإقتصادية هي لتي كانت وراء الدفع إلى هذه النقلة (التحول) الرسمية. وهي ضرورة يمكن تصنيف عوامل الدفع فيها إلى صنفين هما:

1- عوامل داخلية : تتمثل أساساً في الأزمة الإقتصادية الخانقة التي تفاقمت منذ سنة 1996 عندما انهار سعر البترول الخام (البرانت) بأكثر من نصف قيمته (30 إلى أقل من 15 دولار للبرميل) وانهارت هكذا إيرادات الجزائر الخارجية من المحروقات من 12,72 مليار دولار إلى أقل من 7,26 مليار أي بنسبة 43٪.. وهو مايقارب النصف [4]. مع العلم أن وزن المحروقات في الصادرات من السلع والخدمات (الميزان التجاري) مرتفع ويثقب بقوة سقف 97٪ ولقد انعكست آثار ذلك سلباً على التوازن العام لميزان الموارد الخارجية الذي تضاعف عجزه عن تغطية المستحقات للخارج، عن الواردات وخدمات الدين، من 1,67 مليار دولار أمريكي سنة 1985 إلى 6,60 مليار سنة 1993[5]. وهو مايستوجب اللجوء السنوي المتكرر إلى الإقتراض الخارجي لتمويل هذا العجز، مما أدّى حتماً إلى تزايد المديونية الإقتصادية الخارجية للبلاد التي بلغت في هذا التاريخ الأخير حجم 26 مليار دولار منها 13,5 مليار مديونية عامة أو خاصة مؤمنة من قبل الحكومات[6] ويمكن تشخيص تطور اختلال التوازن العام المالي الخارجي للجزائر، خلال الفترة 1985 إلى 1993برسم بياني نورده فيما يلي، حتى نقرب صورة الأزمة المالية والإقتصادية إلى الذهن، لنفسر حدة الضرورة الإقتصادية الدافعة إلى إجراء تصحيحات اقتصادية هيكلية، بما فيها سياسة الخوصصة، للإستفادة من الإمكانيات الكامنة عند القطاع الخاص:

وفي تقديرنا أن هذا الوجه المالي الخارجي للعجز الإقتصادي للجزائر يمكن تفسيره بثلاثة عوامل رئيسية هي:

أ- الخلل Le Dysfonctionnement في تسيير الإقتصاد من ناحية ترشيد التنمية التي اتكأ سيرها أساساً، في المرحلة الأولى- من التخطيط من سنة 1967 إلى سنة 1979- على قدم الإستثمار، مع الإستخفاف بقواعد التسيير الإقتصادي، والتي اتكأ سيرها في المرحلة الثانية- من سنة 1980 إلى سنة 1989- على قدم التسيير، مع كبح واضح لحركة الإستثمار الإنتاجي في المرحلة الأولى بدعوى حدوث فائض استثماري إنتاجي، خصوصاً في القطاع الصناعي[7] وإذا جعل تطبيق السياسة الأولى (المقترنة بعهد الرئيس بومدين) التنمية تفقد نسبة 40 إلى 50٪ من طاقتها الإنتاجية، بسبب ضعف الأخذ بقواعد التسيير الإقتصادية، فإن تطبيق السياسة الثانية (المقترنة بعهد الرئيس الشاذلي بن جديد) أدت إلى تراجع التنمية بسبب بروز ظاهرة نقص الإستثمار- Le sous investissement[8]. وفي كلتا السياستين فإن التنمية لم تسر متزنة على قدمين، وإنما كان سيرها أعرج متأرجحاً.

ب- الخلل في سياسة تسيير التوازن الخارجي التجاري والتكنولوجي الذي كانت نتيجتها العجز عن تحقيق التحرر من التبعية الإقتصادية والذي هو هدف سياسة التنمية الرئيسي. ويتجلى ذلك من الناحية الإقتصادية في استمرار سيطرة المحروقات على الصادرات الوطنية من السلع بنسبة عالية جداً وهي 97٪ من الإيرادات بالعملة الصعبة. ويدل ذلك على حقيقة بديهية هي أن سياسيات التنمية المطبقة منذ الإستقلال (سنة 1962) قد فشلت في تنويع الإنتاج، الذي هو شرط كسر احتكار المنتوج الواحد للصادرات- وهو منتوج المحروقات- وقبل ذلك إحلال الإنتاج الوطني محل الإستيراد في تموين حاجات المجتمع إلى السلع. ومع الأسف أن السوق الوطنية تزايد اعتمادها على الواردات في إشباع

حاجات المواطنين والإقتصاد. وهو اعتمادها على الواردات في إشباع حاجات المواطنين والإقتصاد. وهو اعتماد بنسبة عالية هي نحو 60٪ في المواد الغذائية والمواد الوسيطية، وأكثر من 80٪ في مواد التجهيز. ولاشك أن هذه التبعية التجارية العالية للخارج، من جهة الصادرات والواردات معاً جعلت وضع الإقتصاد الجزائري هشاً وسريع الحساسية للمؤثرات الإقتصادية الدولية التي كثيراً ما توجه توجهات سياسية. هذا من ناحية التبعية الإقتصادية. أما من ناحية التبعية التكنولوجية فإن الإعتماد على الخارج بنسبة أكثر من 80٪ في تموين التنمية بوسائل الإستثمار (تجهيزات مختلفة) زيادة عن الخدمات التقنية والتكنولوجية في مجالات الدراسات والهندسة الصناعية ناتج عن اختلال التوازن، في سياسة تنمية معرفة الإستعمال المتعلقة بنقل التكنولوجيا، التي ركزت على تطوير وترقية معرفة الإستعمال التقنية le Savoir faire technique وهمشت ترقية معرفة ... التكنولوجية التي تقوم على البحث العلمي. مع أن المعرفة الأولى هي معرفة باستعمال وتسيير التكنولوجية بينما الثانية هي معرفة بصنع التكنولوجيا. وقد ترتب عن استمرار التبعية التكنولوجية للخارج بقاء التنمية في العالم الثالث رهن إرادة السياسات الإقتصادية الدولية.

ب- الخلل في استراتيجيات التنمية المطبقة في مجال تعبئة جميع الموارد الوطنية المتاحة، التي هي جد معتبرة سواء كموارد مادية أو كموارد مالية أو كموارد بشرية. ويعود ذلك إلى سوء تقدير أهمية القطاع الخاص الوطني في سياسات التنمية المطبقة التي كانت قد اهتمت بالقطاع العام وشككت في نية وفعالية القطاع الخاص في المساهمة في التنمية الشاملة تحت دعوى أن رأس المال الخاص هو رأس مال مستغل، ويلهث فقط وراء الكسب العاجل. وهي حقيقة اقتصادية على كل حال. ولكنه توجد سياسات اقتصادية ومالية ونقدية للدولة الحامية l'Etat Providence يمكن بواسطتها توظيف هدف الربح، الذي يحفز نشاط رأس المال الخاص، في اتجاه التنمية. وللإشارة السريعة فقط إلى أهمية إمكانيات هذا القطاع الخاص يكفي أن نذكر أن مدخرات الأفراد (عائلات ومقاولون) تشكل نسبة مقدرة بحوالي 23٪ من دخولهم البالغة سنة 1992 حوالي 677 مليار دج[9] وهو مايساوي أكثر من 156 مليار دج معظمها مدخرات في شكل اكتناز، أو مهربات للخارج، أو استعمالات في أعمال تجارية غير رسمية (ترابندو) ولا شك أن هذه الإمكانية المالية غير المستعملة في التنمية أو الناقصة الإستعمال تمثل أيضاً قوة تعزيز هامة للطاقة البشرية خاصة من الشباب المتخرج من الجامعات أو مراكز التكوين، نتيجة سياسة ديمقراطية التعليم، لتشجيعهم على فتح نشاطات ... للاستثمار والتشغيل، وهذا مايبدو أن الدولة قد وجهت إليه اهتمامها في السنوات الأخيرة.

3- عوامل خارجية: تعود إلى نجاح الاستراتيجية الأمريكية في فرض هيمنتها ... الاقتصادية ... على العالم، وفرض تصورها لنظام العالمي الجديد الذي يقوم على أحادية القطب في مكان الثنائية القطبية المؤسسة بمقتضى معاهدة يالطا في أفريل 1945، والتي تتقاسم فيها الولايات المتحدة الأمريكية، كقطب للمعسكر الرأسمالي، والإتحاد السوفيتي، كقطب للمعسكر الإشتراكي، تسيير العالم.

وفي طريق إنجاح تطبيق استراتيجيتها استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية، بالتنسيق مع بلدان منظمة التعاون من أجل التنمية الإقتصادية OCDE وخاصة البلدان الأوروبية الغربية، الديناميكية الإقتصادية، بعد أن جربت فشل الديناميكية العسكرية في علاقاتها ضد المعسكر الشيوعي (سياسة الأحلاف العسكرية) أو ضد بلدان العالم الثالث التي مارست عليها سياسة إقامة الأنظمة العميلة مثل مافعلت في الفيتنام

الجنوبية. وقد استغلت في هذا المسعى ثلاث أدوات عمل:

أ- بالنسبة للمعسكر الإشتراكي أداة تفاقم اختلال التوازن في مستويات التطور بين الديناميكية الإقتصادية (الإنتاج كماً ونوعاً) والديناميكية الإجتماعية، المعبر عنها بتنامي الحاجات (كماً ونوعاً) خصوصاً مع الترقية الثقافية السريعة (التكوين التعليم) التي تحظى بالأولوية في البلدان الإشتراكية. وهو اختلال بين الديناميكيتين ناتج عن فشل أسلوب الإنتاج الإشتراكي في إحداث التغييرات المناسبة في علاقات الإنتاج (أساليب التسيير وأنماطه) لتواكب التطورات الحادثة في القوى الإنتاجية (الموارد المادية والبشرية) مما أدى إلى حالات اختناق في تطور هذه القوى تمثلت مظاهرها في جمود عمليات التسيير، والبيروقراطية، وكبح روح المبادرة، وتراجع مستوى إنتاجية العامل، وتدهور الفوائض الإقتصادية الفعلية، وانخفاض معدلات الإستثمار والنمو الإقتصادي، وتنامي ظاهرة البطالة، وعجز العرض المحلي (الإنتاج) عن تغطية الطلب، وتزايد الحاجة إلى استيراد السلع من الخارج لتغطية هذا العجز مع ما يرافقه من تزايد الحاجة إلى الإستدانة الخارجية. وهي تشكل مفتاح ضغط خارجي أدى إلى تفكيك المعسكر الإشتراكي.

ب- أداة المؤسسات الدولية المتمثلة على الخصوص في صندوق النقد الدوليFMI والبنك الدولي للتعمير والتنميةBIRD والمنظمة العالمية للتجارةOMC. وكانت السياسة المتبعة إزاءها منذ السبعينات هي تعديل قوانين تسييرها من مجرد مؤسسات اقتصادية دولية، للتشاور حول قضايا تسيير النظام الإقتصادي الدولي، وتنسيق العمل من أجل الإستقرار الإقتصادي الدولي، ودعم البلدان الأعضاء في سياساتها النقدية والمالية والإنمائية والتجارية، إلى مؤسسات اقتصادية دولية متدخلة في سياسات البلدان الأعضاء على صعيد التحضير وعلى صعيد رقابة التطبيق، خاصة تجاه سياسات البلدان السائرة في طريق النمو... حدث هذا التعديل بالنسبة لقوانين تسيير Statuts صندوق النقد الدولي في أفريل 1978، الذي ينسّق أعماله كاملة ومتكاملة مع البنك الدولي؛ وهما مؤسستان أنشئتا عام 1944 بمقتضى اتفاقية بروتون وودزBretton- Woods وحدث هذا أيضاً بالنسبة لقوانين تسيير المنظمة التجارية المعروفة باسم الإتفاقية العامة للتعريفات والتجارة GATT التي أنشئت في أكتوبر سنة 1947 والتي أخذت في اتفاق مراكش شهر أبريل 1994، بعد ثماني سنوات من مفاوضات جولة أورغواي التي بدأت سنة 1986، اسم المنظمة العالمية للتجارةW.T.O. وهي تسمية تذكرنا شكلاً ومضموناً بمشروع إنشاء المنظمة الدولية للتجارة I.T.O، الذي ظل حبراً على ورق، بعد التوقيع على مشروعها النهائي في ميثاق هافانا سنة 1948، لرفض أغلبية الدول التصديق على مشروعها[10]، وقد شكلت التنظيمات الإقتصادية الدولية الجديدة هذه مفتاح ضغط خارجي قويّ على صياغة السياسات الإقتصادية للدول النامية التي تعاني كلها مشكل التخلف والإستدانة الخارجية.

جـ- أداة المديونية التي قسمت العالم المعاصر إلى شطرين هما عالم الدائنين المتمثل في البلدان الرأسمالية المتقدمة مقابل عالم المدينين المتمثل في بلدان العالم الثالث. ولا مراء أن أقوى عبء في هذه المديونية يقع على هذه الأخيرة بحجم إجمالي يزيد عن 1900 مليار دولار أمريكي، والتي أصبحت غير عاجزة فقط عن تمويل التنمية، وإنما عاجزة أيضاً عن تمويل حاجاتها إلى المواد الإستهلاكية. فهي تعيش أزمة إقتصادية حقيقية جعلت منها موضوع طروحات فكرية ثرية ومتنوعة، من رجالات الدول الدائنة وحكوماتها والمؤسسات الدولية المذكورة أعلاه، في شكل توصيات أو شروط للخروج من الأزمة، ويمكن بهذا الصدد أن نذكر ثلاثاً منها، على سبيل الإشارة، هي[11]:

جـ1- خطة بيكر (جيمس) J. BAKER كاتب

الدولة الأمريكي للخزينة التي اقترحها سنة 1985 والتي تدعو البلدان السائرة في طريق النمو إلى إجراء تصحيحات في تنظيماتها الإقتصادية تقربها من قوانين السوق، وكشرط لذلك يدعو البنوك الخاصة الدولية والمؤسسات المالية الدولية إلى دعم هذه البلدان بمضاعفة القروض لأحداث النمو.

جـ-2- خطة برادلي (بيل) B- BRADLEY سيناتور نيوجيزي الأمريكي التي عبر عنها سنة1986 في ثلاثة اقتراحات هي أن تحدث الدول المدينة تغييرات هيكلية محلية في تنظيماتها الإقتصادية بحوررة التجارة وحركة رؤوس الأموال، على أن تدعم بنوك التنميـــة (وليس البنوك التجارية) الدولية هذه السياسة بالقروض لتنشيط النمو، وعلى أن يتبع هذا العمل كل سنة بعقد لقاء قمة، حول التجارة والدين، بدعوة من البنك الدولي للتعمير والتنمية وتحت رئاسته، لتقييم الإصلاحات المطبقة من قبل الدول المدينة، وتشجيع الدول المدينة المنضبطة في برامجها الإصلاحية بتسهيلات مالية.

جـ 3- سياسة صندوق النقد الدولي التي تربط مساعداته المالية، ومساعداته لدى المؤسسات المالية الدولية الخاصة Privées والمتعددة الأطراف Multilatérales للحصول على القروض أو التسهيلات المالية، تحت صيغة إعادة الجدولة أو غيرها من الصيغ الأخرى للتسهيلات بضرورة تطبيق برنامج إصلاح اقتصادي يقوم على قواعد اقتصاد السوق والذي يكون محركه هو الخوصصة الإقتصادية.

ثالثاً- اتجاهات الخوصصة

لقد ضغطت جميع الدوافع المذكورة أعلاه على الجزائر لتمر إلى الخوصصة. ويمكن أن نتبين فيها اتجاهين هما:

1- اتجاه خوصصة المؤسسات العامة الإقتصادية التي أنشئت لها، في التعديل الحكومي، الذي جاء بحكومة السيد مقداد سيفي بتاريخ 16 أفريل 1994، وبعد التوقيع على اتفاق الإمتثال Stand by مع صندوق النقد الدولي قبل ذلك بأسبوع، أنشئت لها وزارة خاصة هي وزارة إعادة هيكلة المؤسسات الصناعية والمشاركة. وهي تحدد مجال الخوصصة في النشاطات الإقتصادية ذات الطابع التنافسي، أو التي هي (ليست من الإحتكارات الطبيعية ولا تتحكم قوى السوق في تنظيمها بصفة مناسبة.)[12] ومن أمثلة هذه النشاطات الأخيرة، التي تبقى فيها الدولة مالكة لها بنسبة 100٪ مباشرة أو عن طريق مؤسساتها العمومية، النشاطات التي تتضمنها المادة 17 من دستور 1989 كالمناجم، ومصادر الطاقة الطبيعية، والنقل الجوي والبحري وبالسكك الحديدية، والبريد والمواصلات السلكية وغير السلكية إلى آخره. وماعدا هذه النشاطات فإن سياسة الدولة، في خوصصة المؤسسات العمومية هي الإمتناع عن تمويل نشاط المؤسسات العمومية ،واستثماراتها من جهة والتنازل التدريجي عن ممتلكاتها في هذه المؤسسات، التي تمارس إنتاج السلع والخدمات في النشاطات التنافسية عن طريق البيع للأسهم أو للأصول أو للوحدات، أو عن طريق التنازل عن التسيير من جهة أخرى وهذا كله بهدف استرجاع رؤوس أموال الدولة بعد مدة زمنية، في هذا النوع من النشاطات[13]، وينتظر قريباً صدور قانون الخوصصة الذي يحدد الإجراءات التنظيمية (التشريعية) لتطبيق هذه السياسة وكذا قانون المنافسة (صدر هذا الأخير بتاريخ 25 جانفي1995 تحت رقم الأمر 95-06)

2- اتجاه الإنفتاح على الإستثمارات الخاصة التي أنشأت الدولة لها وزارة مكلفة بتنشيطها هي وزارة الصناعات الصغيرة والمتوسطة PME. وفضلاً عن إمكان توسع القطاع الخاص على حساب القطاع الإقتصادي العام، بالإستفادة من بيع بعض ممتلكاته المعروضة في إطار التصفية أو الشراكة أو التسيير من خلال تطبيق سياسة إعادة الهيكلة، توجد أيضاً أمام القطاع الخاص الوطني والأجنبي فرص كثيرة للتوسع بالإستثمارات التي يمكن له أن ينفذها في مختلف فروع النشاط الإقتصادي ذي الطابع

التنافسي. وبعد إنشاء وكالة ترقية الإستثمارات ودعمها ومتابعتها APSI لـدى رئيس الحكومة وبعض التنظيمات التي ينتظر أن ترى النور، في مجال تأمين الإستثمارات وفي مجال الدعم بالقروض وفي مجالات أخرى، تدابير تشجيعية لتوسيع القطاع الخاص ونشر سياسة الخوصصة في الإقتصاد الوطني.

رابعاً- إعادة هيكلة القطاع العام الإقتصادي

النظرة السياسية الإقتصادية التي تقود إعادة هيكلة القطاع العام الإقتصادي الجزائري، منذ التوقيع على اتفاق الإمتثالStand By مع صندوق النقد الدولي في العشرية الأولى من شهر أفريل 1994، هي حـوررته La libéralisation وجعل آليات السوق وقوانينه هي المتحكمة في تنظيم النشاط الإقتصادي العام للبلاد. ومن التدابير المعتمدة في هذا المجال ثلاثة هي:

1- تحرير الأسعار من التحديدات الإدارية ومن الدعم المالي للخزينة العامة للدولة، عدا ثلاث مواد هي: القمح الصلب واللين، والمستورد من الدقيق (السميد) والفرينة، والحليب التي خصصت لها ميزانية 1995 العامة دعماً مالياً هو 17 مليار دج.

2 تخفيض سعر صرف العملة الوطنية (الدينار الجزائري) بنسبة قريبة من 50٪، مع تقرير حرية التجارة الخارجية بجعل الإستيراد والتصدير في متناول الأعوان الإقتصاديين، وإلغاء سياسة قوائم السلع المحظور استيرادها (التحصيص) وإحلال سياسة التعريفات الجمركية محلها، طبقاً لاتفاقية المنظمة العالمية للتجارة (الغاتGATT سابقاً) التي انضمت إلى عضويتها الجزائر في اجتماعها الأخير (أفريل 1994) ووقعت على الإتفاق ضمن 117 دولة عضواً أخرى.

3- تحرير المؤسسات العمومية الإقتصادية من قيود المادة 5 من قانونها 88-01 التي تجعل منها شركات مساهمة أو شركات محدودة المسؤوليات تملك الدولة أو جماعاتها المحلية مباشرة أو غير مباشرة جميع الأسهم والحصص، وذلك طبقاً لنص المادتين 24 و25 من قانون المالية الإضافي في عام 1994 الذي يسمح لهذه المؤسسات أن تبيع بعض أصولها الثابتة أو كامل الوحدة وأن تفتح رأس مالها للمشاركة الخاصة في حدود 49٪.

إن مفهوم إعادة هيكلة المؤسسات العمومية الإقتصادية، كما هو جار تطبيقها حالياً على 460 مؤسسة من المؤسسات التي أفرزتها سياسة إعادة الهيكلة العضوية خلال التخطيط الخماسي الأول 1980/1984وعلى 1583 مؤسسة محلية، (14) هو انسحاب الدولة Le desengagement من الإنتاج، كعون إقتصادي وجميع النشاطات ذات الطابع التنافسي، لفائدةالقطاع الخاص كمالك أو مسير، لتبقى فقط محافظة على ممارسة ثلاثة أدوار هي: دورها كمنظم Régulateur يسهر على وضع الشروط القانونية والتنظيمية، التي تسمح للإقتصاد الوطني أن ينشط بانسجام، مع فرض احترامها، ودورها كحامي Protecteur للمواطنين للحصول على السلع والخدمات بسهولة وبعدالة وبعيداً عن الإستغلال الجشع لرأس المال، ودورها كمنشط Animateur للتنمية عبر السياسات المالية والنقدية والتشريعية التي تملك زمام أمور تنظيمها وتطبيقها.

وفي هذا التوجه لإعادة هيكلة المؤسسات العمومية الإقتصادية تم تمرير مايقرب من 400 مؤسسة إلى الإستقلالية المالية، التي يعني بها تخلي الدولة عن التدخل تماماً في أمور تسييرها المالي، فتتحمل المؤسسة نفسها مسؤولية نتائج تسييرها الذي يخضع لقواعد التجارة. وباعتبار أن صناديق المساهمة، وعددها ثمانية، هي نفسها أيضاً شركات مساهمة تتولى تسيير مالية الدولة (القيم المنقولة) باستثمارها اقتصادياً لحسابها، لاسيما في المؤسسات العمومية الإقتصادية، بهدف تحقيق الربح، كما جاء في المادة2 من قانون رقم 88-03 المتضمن صناديق المساهمة، فإن تمثيلها (تواجدها)

على مستوى الجمعية العامة للمساهمين في المؤسسة وكذلك على مستوى مجلس إدارتها يجعل مسؤوليتها كاملة عن نتائج التسيير.

أثبتت التقارير المالية عن المؤسسات العمومية الإقتصادية أن صحتها بصفة عامة سيئة؛ سواء منها تلك التي لم تَمُرّ بعد إلى الإستقلالية، بسبب عدم الإنتهاء من دراساتها وهي حوالي 23 مؤسسة، أو تلك التي مَرّت إلى الإستقلالية، أو تلك التي تتبع القطاع العمومي المحلي؛ وهي كثيرة، ويبلغ رقمها حالياً 1297 مؤسسة وتشغل عدد 232204 عامل، وتعاني عجزاً مالياً جعل الدولة سنة 1994 تصفي منها 88 مؤسسة محلية(15)

وفي الحقيقة أن هذا الوضع المالي السيئ للمؤسسات العمومية الإقتصادية أصبح يلح على الدولة أن تسرع بتمرير ما يمكن تمريره منها إلى الإستقلالية لتحرر ميزانية الدولة من العبء المالي الكبير الذي ترتب (بالنسبة للمؤسسات التي مرت إلى الإستقلالية) ويترتب (بالنسبة للمؤسسات الأخرى) عن شراء ديونها من البنوك، وهو عبء ثقيل خصص له قانون مالية 1995 مقدار 148,5 مليار دينار جزائري بعنوان صندوق تطهير المؤسسات العمومية. ويمثل هذا الحجم مقدار عجز الميزانية العامة للدولة.

إن اتجاه سياسة إعادة الهيكلة المطبقة حالياً بالنسبة للمؤسسات العمومية العاملة في النشاطات الإقتصادية التنافسية (باستثناء تلك العاملة في النشاطات التي تدخل في حيّز أملاك المجموعة الوطنية المحددة بالمادة 17 من الدستور) كالمؤسسات المنجمية أو تلك التي تحدد الدولة مسبقاً أسعار منتجاتها ودفاتر شروط العمل رغم أن نشاطها ذو طابع صناعي وتجاري (مثل مؤسسة الكهرباء والغاز) هو من جهة خوصصة المؤسسات القابلة للحياة أو القادرة على الإستمرار في الإنتاج والتطور ومن جهة أخرى تصفية المؤسسات غير القابلة للحياة أو لا يرجى منها النجاح في مواصلة النشاط الإقتصادي.

خامساً - الإستثمارات الإقتصادية الخاصة

لا شك أن الوجه الآخر لخوصصة الإقتصاد الوطني يتمثل في سياسة الإنفتاح على الإستثمارات الخاصة سواء منها الوطنية أو الأجنبية. ويحدد المرسوم التشريعي رقم 93-12 بتاريخ 1993/10/5 المتضمن ترقية الإستثمار مبادئ هذا الإنفتاح في أربعة رئيسية هي:

1- إنشاء أدوات ترقية هذه الإستثمارات ممثلة في إنشاء وكالة للدعم والمتابعة APSI تابعة لرئيس الحكومة، وتمارس مهامها عبر مكتب موحّد -gui chet unique. يضم المصالح الإدارية والهيئات المعنية بالإستثمار، قصد تجنب التعطيلات البيروقراطية في دراسة ملف التصريح بالإستثمار وطلب الإستفادة من الإمتيازات المنصوص عليها في القانون.

2- وضع امتيازات مالية تشجيعية متمثلة بالإعفاء من دفع الضرائب أو تخفيض معدلاتها سواء في فترة الإستثمار، فيما يخص تحصيل الأصول واستعمالها، أو في فترة الإستغلال، بالنسبة للأرباح والمداخيل. وذلك لمدة زمنية متفاوتة حسب مكان أو منطقة الإستثمار.

3- حق استفادة رؤوس الأموال المستثمرة بالعملات الصعبة القابلة للتحويل -Converti bles، من التحويل للخارج لرأس المال، والمداخيل المتولدة عن استثماره، ونواتج التنازل عنه أو تصفيته، بشرط مزاولة عملياته المالية (نشاطه) في علاقة منتظمة مع البنك المركزي الجزائري كبنك البنوك وتحت إشرافه.

4- قابلية اللجوء إلى التحكيم الدولي، بالنسبة لرأس المال الأجنبي المستثمرة في الجزائر، في فض النزاعات مع الطرف الجزائري إذا طلب ذلك.

ويجدر بهذا الصدد لفت الإنتباه إلى أنّ هذا النص التشريعي المتعلق بترقية الإستثمار الخاص تم تعزيزه أيضا بنصوص التشريعية أخرى متمثلة في تلك الواردة في المرسوم التشريعي رقم 93-8

المعدلة والمكملة للأمر رقم 75-59 المتضمن قانون التجارة، وفي المرسوم التشريعي رقم 93-9 المعدلة والمكملة للأمر رقم 66-154 المتضمن قانون الإجراء المدني، وفي المرسوم اتشريعي رقم 93-10 المتعلق ببورصة القيم المنقولة.

إن هذا الإنفتاح الرسمي على الإستثمار الخاص سياسة تستهدف إحلال القطاع الخاص محل القطاع العام في تنشيط الحركة الإقتصادية وإحداث التنمية في البلاد، ومن ثمة الدخول الكامل في اقتصاد السوق الذي يخضع تماما لقانون العرض والطلب.

وحسب المعلومات الرقمية الصادرة عن وزارة الصناعات الصغيرة والمتوسطة أن الإستثمارات الخاصة المصرح بها منذ بدء تطبيق مرسوم ترقية الإستثمار الصادر في أكتوبر 1993 حتى نهاية ديسمبر 1994، بلغت 90,62 مليار دج موزعة، من حيث طبيعة العملة التي تم بها التمويل إلى:

- التمويل بالعملة الوطنية 33,8 مليار دج منها 29,2 مليار ملك للمستثمرين.
- التمويل بالعملة الصعبة 1,76 مليار دولار أمريكي منها ما يقرب من 252 مليون دولار ملك للمستثمرين Fonds Propres.

وهي استثمارات خاصة بعدد من المشاريع المتحصلة على قرار الإستفادة من الإمتيازات هو 648 مشروعا يبلغ اجمالي مناصب التشغيل الجديدة فيها نحو 56100عامل

سادسا- النتائج والأبعاد:

الخوصصة سياسة اقتصادية تجعل القطاع الخاص، بعد أمد، يتولى الصدارة في النشاط الإقتصادي العام على أصعدة الإستثمار والإنتاج والتجارة والخدمات، وهي بهذه التسمية سياسة تنطبق على التغييرات الهيكلية التي تحدثها الدولة في تنظيم اقتصادها من اقتصاد موجه يهيمن عليه القطاع العمومي الإقتصادي إلى اقتصاد حر يهيمن عليه القطاع الخاص الإقتصادي. وبعبارة أخرى هي سياسة تنطبق على البلدان التي تعمل على نقل اقتصادها من اقتصاد تتحكم فيه علاقات الملكية العامة لوسائل الإنتاج، ومسير تسييرا إداريا، باستخدام قوانين التخطيط، إلى اقتصاد تسوده علاقات الملكية الخاصة، وأساليب التسيير الخاصة، وينظم السوق علاقاته تلك من خلال قوانين القيمة.

إن هذه العملية التحويلية غير بسيطة، وتطرح مشاكل واشكالات عديدة على عدة أصعدة منها الإقتصادية المرتبطة بالإنتاج والتجارة والتنمية، ومنها الفنية المتعلقة بالإنسان الذي يتولى المهمة الإقتصادية الجديدة من ناحية معارفه Know-how الفنية والتكنولوجية ومنها الإجتماعية المنعكسة على المجتمع في شريحتيه الكبيرتين للعمال والمستهلكين. وسنعالج فيما يلي باختصار هذه المشاكل بالنسبة للخوصصة في الجزائر.

1- الإقتصادية:

المعروف عن الحالة الإقتصادية للقطاع الخاص الجزائري أنه في طور النشوء، ولم يكتسب بعد-رغم مرور مايقرب من ثلث قرن من الإستقلال السياسي- قوة تؤهله لقيادة التنمية الإقتصادية الشاملة كطبقة رأسمالية، والدليل على ذلك مايتميز به من صفة القزمية في حجم وحداته من جهة وطبيعة النشاطات التي يمارسها في الغالب من جهة أخرى.

فبالنسبة لحجم وحداته يلاحظ من الإحصائيات المتاحة أن أزيد من 91٪ هي وحدات صغيرة أو مجهرية في كثير من الحالات تشغل أقل من 10 عمال في حين أن تلك التي تشغل أكثر من 20 عاملا يقل وزنها تقريبا عن 4٪ كما هو مبين أدناه في هذا الجدول(16):

الفئات	10-	20-10	20+	المجموع
العدد	20550	1180	820	22550
الوزن	91%	5%	4%	100%

أما بالنسبة لطبيعة النشاطات التي تمارسها هذه الوحدات فهي في الغالب نشاطات حرفية صناعية أو في أعمال التصليح عند تلك التي تشغل أقل من 10 عمال. ونشاطات صناعية لإنتاج مواد

الإستهلاك النهائي عند الفئات التي يزيد عدد عمالنا عن هذا الرقم الأخير. ولعل ما يشخص هذه الظاهرة أكثر هذا الجدول من توزيع نشاطات الإستثمار الخاص للمستفيدين من قرارات الإمتياز عن الطلبات المقدمة خلال عام 1994 طبقا لقانون ترقية الإستثمار رقم 93-12 والتي بلغ عددها 650 طلبا (17):

النشاط	صناعات غذائية زراعية وصيد بحري	مواد ال	مواد بلاستيكية وكيميائية ومطاطية وزجاجية	مواد حديدية ومعدنية وميكانيكية وكهربائية وإلكترونية	مقاولات البناء والأشغال العمومية والري	مواد الصح	الباقي
الوزن	36%	17%	14%	13%	8%	5%	7%

بحيث يشمل الباقي الاستثمار في نشاطات النسيج والتفصيل، والصناعات الجلدية والأحذية، والورق والمشروبات، والخدمات كالنقل والفندقة والسياحة وغيرها بأوزان نسبة تتراوح بين 1 و 2. بالمائة

ويجدر بهذا الصدد أ نلاحظ ملاحضتين هما :

الملاحظة الأولى أن الإستثمار الخاص بدأ يتوجه إلى النشاطات التي كان شبه غائب فيها مثل الصناعات الزراعية التي يكاد يحتكرها القطاع العمومي الإقتصادي، ومواد البناء، والمواد البلاستيكية والكيميائية والمطاطية والزجاجية، والمواد الحديدية والمعدنية والكهربائية والإلكترونية، نظرا للضغط الموجود عليها من الطلب المحلي، بينما لاحظنا تراجع استثماره في النشاطين اللذين يهيمن عليها بنسبة 70 بالمائة واللذين يتمثلان في التفصيل والأحذية. وهو توجه اقتصادي إيجابي للتقليل من الإعتماد على السلع الأجنبية ولاكتساب معرفة تقنية أكثر تطورا، ولكن الملاحظة الثانية تدل على توجه سلبي هي استمرار ظاهرة تركز الإستثمار الخاص في المدن الكبرى، وبالأخص في منطقة متيجة (الجزائر وبومرداس وتيبازة والبليدة) التي يمثل عدد مشاريعها الإستثمارية البالغة 255 مشروعا نسبة أكثر من 39 بالمائة من مجموع المشاريع 648 المعتمدة، مما يستدعي تنشيط عوامل الدفع إلى الإستثمار في المناطق الداخلية من البلاد في إطار سياسة فعالة للتهيئة الإقليمية.

إن طبيعة الإستثمارات المذكورة أعلاه من النوع الموجه أساسا إلى إنتاج وسائل الإستهلاك العائلي وليس إلى إنتاج وسائل التنمية المتمثلة على الخصوص في التجهيزات، ويدل ذلك على محدودية الإستثمار الخاص الوطني ماليا وتقنيا وتكنولوجيا لخوض معركة هذا الإنتاج الأخير الذي هو حيوي وحاسم بالنسبة للتقدم الإقتصادي الجزائري، ولو أن ذلك لاينقص على كل حال من أهمية النوع الأول من الإستثمارات الخاصة في مسار تطبيق سياسة احلال الواردات، وتشجيع التصدير وتنويع مواده. وإنما لابد من ترقية النوعية في الإنتاج وتحسين الإنتاجية للوقوف أمام المنافسة الدولية وهي شروط اللازمة لتنمية الفوائض الإقتصادية المتاحة (رأس مال) وتنمية الرصيد الوطني من التجربة والمعرفة الفنية والتكنولوجية الصناعية في المرحلة الأولى من التنمية الشاملة.

إن رقم 90,6 مليار دج التي تمثل الحجم الكلي للإستثمارات الخاصة المعبر عنها عن سنة 1994 تدل عن امكانيات مالية معتبرة عند المدخرين. وهي في الحقيقة تمثل ثلث الإمكانيات المتاحة عند هذا القطاع لو أخذنا بعين الإعتبار أيضا تلك المتوفرة عند المغتربين، خاصة من المستثمرين. وهي مدخرات لم تهتد الدولة لحد الآن إلى طريقة ناجحة لجلبها إلى المشاركة في التنمية الوطنية، رغم أنها مدخرات بالعملات الصعبة ويملك أصحابها تجربة ومعارف تقنية جيدة. ثم كذلك لو أخذنا أيضا بعين الإعتبار الإمكانيات المالية الموزعة في الإقتصاد غير الرسمي (أو الموازي) بين اقتصاد منتج ولكنه بدون رخصة رسمية ويتستر من القوانين التي تنظم النشاط الإقتصادي، واقتصاد تجاري يعمل في الظلام (السوق السوداء)، واقتصاد مهرب للسلع أو العملات عبر الحدود مع الخارج، واقتصاد مكتنز

للدخول بعيدا عن شبكة الهياكل المالية. فإن تعبئة هذه الإمكانيات المالية الخاصة تعد إحدى مهام سياسة الخوصصة.

لا نعتقد، حسب جميع التوضيحات المقدمة أعلاه، أن إطلاق سراح القطاع الخاص، بما في ذلك الإستثمار الأجنبي المباشر، يستوجب إعفاء الدولة من المشاركة في الإستثمار الإقتصادي عامة والتنافس خاصة. لأن الإشكالية في الإصلاحات الإقتصادية ليست بتعويض (طرد) القطاع العمومي بالقطاع الخاص أو العكس، وإنما البحث على الفعالية l'éficacité والكفاءة l'éficience في الإستثمار والإنتاج والتوزيع، وهما هدفان يستوجبان تطبيق قواعد اقتصادية، وقوانين القيمة، وميكانيزمات السوق في إطار علاقات التنافس. وكما يمكن لرأس المال الخاص أن ينشط في هذا المناخ الإقتصادي لا نجد أيضا ما يمنع رأس المال العام أن ينشط فيه!! فالمهم هو استبعاد كل أشكال التمييز الإقتصادي أو المفاضلة بين القطاعين. وتشجيع التنافس بين جميع الأعوان الإقتصاديين باختلاف طبيعتهم القانونية، وفتح مجالات التعاون بينهم في إطار الشراكة. لأن اقتصاد السوق في النهاية هو هذا. وفي تقديرنا أن الأفيد للإقتصاد الجزائري وللتنمية أن تطبق هذه السياسة التي يجب أن لا يعنى بالخوصصة إقصاء القطاع العمومي الإقتصادي بإمكانياته الهامة من الساحة الإقتصادية الخاضعة لقواعد التنافس. كما قد توحي به سياسة إعادة الهيكلة التي سبق شرحها أعلاه، ولا شك أن مما يدعم هذه النظرية هي الضمانات التي يقدمها رأس المال العام، خصوصا في اقتصاد نامي مثل الإقتصاد الجزائري، أكثر من رأس المال الخاص على صعيد التنمية المنسجمة، وعلى صعيد الإستثمار بالمناطق الداخلية (المتخلفة) من البلاد، وصعيد سياسة التهيئة الإقليمية والتوازن الجهوي، كما وضحنا ذلك أعلاه في تحليل التوزيع الجغرافي للإستثمارات الخاصة.

2- الفنية: إن هناك أيضا مشاكل فنية تطرحها سياسة الخوصصة لا بد من أخذها بعين الإعتبار في التطبيق وهما اثنتان على الخصوص:

1- مشاكل فنية متعلقة بتحويل نظام الإنتاج (الملكية والتسيير) الموجه، الذي سار تطبيقه على مدة زمنية طويلة، إلى نظام إنتاج خاص حر جديد. لأن علاقات الإنتاج في النظامين مختلفة تماما في جميع حلقات الإداء الإقتصادي مثل التمويل الذي يخضع جهازه المصرفي لطريقة عمل معينة في كل نظام إنتاج، وكذا التموين والإستثمار، والإنتاج، والتجارة. ولا يخفى أنه ليس من السهل محو قواعد تسيير نظام إنتاجي معين لتعويضها بقواعد مخالفة كي تحدث ذلك بمجرد قرار، فإن مثل هذا الفعل سيخلف آثارا سيئة على المسار التنموي. ولعل تجربة إعادة الهيكلة العضوية المستعجلة للمؤسسات المقررة في المخطط الخماسي الأول 1980/1984 وما خلفته من نتائج محبطة على مستوى تفكيك الجهاز الإقتصادي وتخريبه وتعجيزه على الإستمرار في التنمية، بحيث تتحمل هي نفسها مباشرة العبء الأثقل من مسؤولية الأزمة الإقتصادية الراهنة. تجربة قاسية لابد من استحضارها في البال وفي كل وقت. ولذا يجب التدرج، في سير تطبيق سياسة الخوصصة هذه، لتمكين الإطارات المسيرة من التحكم في عمليات التحويل، وفي تكييف عقلياتهم، وعقليات جميع الإطارات الفنية والإدارية، بأقل التكاليف مع عقليات (قواعد) التسيير الجديدة، ولتمرير التحول بأقل أوجاع ممكنة.

2- مشاكل فنية متعلقة بالقطاع الخاص الوطني الذي نعلم جيدا أنه يتوفر على رؤوس أموال (مدخرات) هامة أو أنّ من السهل عليه تدبيرها، ولكنه يفتقر إلى المعرفة الفنية والتكنولوجية للإستعمال. وهي ملاحظة أكدها السيد رضا حمياني وزير الصناعات الصغيرة والمتوسطة على حق(18) وأكد أن القطاع العمومي الإقتصادي هو الذي يتركز فيه أصحاب هذه المعرفة وهي حقيقة أكيدة نظرا للتجربة الطويلة المكتسبة في العمل

بهذا القطاع باعتبارهم مسؤولين على التسيير (مدراء ورؤساء مصالح) أو مكلفين بالأعمال الإدارية (خصوصا الأعمال المالية) أو إطارات فنيّة (مهندسين وفنّيين) أو عمال باختلاف مستويات تأهيلهم وتكوينهم.

فإن مايخشى من احداث التحويل السريع للملكية أو التسيير، من القطاع الإنتاجي العام إلى القطاع الخاص (الخوصصة) هو تفعيل الجانب المالي، باسترجاع الدولة لرؤوس أموالها، وخنق الجانب التقني، باغراق القطاع الخاص بالمشاكل التقنية، وتعجيزه، في تسلّم قيادة التنمية عن السير الإقتصادي الوطني نحو التقدم، فيؤزم ذلك وضع الأزمة الإقتصادية في البلاد.

وعليه، ونظرا للنوعين من المشاكل معا، فإن الأفضل لسياسة الخوصصة أن تكون مرنة، وتشجّع صيغة المشاركة عن صيغة البيع الشامل للأصول. ونعتقد أن السياسة التي صادق عليها مجلس الوزراء شهر جانفي 1995 حول التدرج في خوصصة القطاع العمومي الإقتصادي من جهة، وتطبيق مختلف تقنيات الخوصصة خصوصا في مجال المشاركة الخاصة في رأس المال العمومي الإقتصادي، التي تكون مفتوحة في نفس الوقت أمام ثلاثة أصناف من المساهمين هم الإطارات والعمال، وأصحاب رؤوس الأموال الوطنية والأجنبية، وأصحاب المدخرات الفردية من السكان، من جهة أخرى سياسة حكيمة إذا نظمت الدولة تطبيقها تنظيما عقلانيا[19] لأنه يمكن الإستفادة في آن واحد في هذا الجمع من مزايا تفعيل عامل رأس المال (وفرة المدخرات الخاصة) وتفعيل المعرفة التقنية والتكنولوجية المكتسبة لدى مستخدمي القطاع العمومي الإقتصادي ولدى المستثمرين الأجانب من الشركات.

3- الإجتماعية: لاشك أن المشاكل الأكثر تخويفا للمجتمع الجزائري من سياسة الخوصصة، هي المشاكل الإجتماعية. وهي لاتستقطب فقط قلق العمال المشغلين، خوفا من البطالة التي قد تتولد عن التسريح، وإنما أيضا قلق المستهلكين، خوفا من التهاب الأسعار الناتجة عن تفاعلات العرض والطلب.

إن هذا الإنزعاج مشروع. وهو مشروع أيضا لأن خوصصة الملكية العامة تشعر المواطن، وخاصة منه العامل، أن الملكية التي ساهم بأمواله (الضرائب) وجهده في انشائها تنزع فجأة منه لتحوّل إلى ملكية شخص أو جماعة أشخاص، وتخرج هكذا من الإستفادة العامة الواسعة إلى الإستفادة الخاصة الضيقة. فهذه هي عناصر اشكالية الخوصصة التي يجب فيها البحث عن الصيغ التي ترفع في التطبيق هذا الشعور بالإجحاف الإجتماعي وتسمح بنشر قناعات عدالة التحويل، وفعاليته بالنسبة لمستقبل التطور والتنمية الإقتصادية والإجتماعية.

1- بالنسبة للعمال. إن مجموع العاملين في القطاعين الإقتصادي والإداري معا يقدر بحوالي 4,61 مليون عامل موزعين بين فروعيهما تقريبا كما يلي عن سنة 1994[20]:

- القطاع الإقتصادي:
  * الزراعة 22,5٪
  * الصناعة 13,5٪
  * البناء والأشغال العمومية 13٪
  * النقل 6٪
  * التجارة والخدمات 16٪
- القطاع الإداري: 29٪

وحيث أن وزن عمال القطاع العمومي الإقتصادي يشكل نحو 70٪ من مجموع العمال المشغلين في الأنشطة الإقتصادية للبلاد -بمعنى حوالي 2,3 مليون عامل- فإن إقناعهم بسياسة الخوصصة وطرق تطبيقها مهمة أساسية لإنجاح العملية. وهو موضوع يبدو أن الحكومة جادة فيه، من خلال اشراك الإتحاد العام للعمال الجزائريين وإتحاد المقاولين العموميين UNEP في الحوار، إلى جانب ممثلي أرباب العمل الخواص، ولعل إحدى النتائج الإيجابية المتمخضة عن هذا الإهتمام هو إدراج مبدأ مشاركة العمال في

رأس مال المؤسسات المخوصصة، وذلك في مشروع القانون المتعلق بالخوصصة، مع التنصيص على بعض الإمتيازات التي هي ثلاثة أنواع: من جهة أولى تخصيص 5٪ من رأس مال المؤسسة لهم مجانا، ومن جهة ثانية الإستفادة من شراء رأس مال المؤسسة (المتنازل عنه) بسعر تخفيضي لا يجب في جميع الحالات أن يزيد عن 25٪ من قيمته الحقيقية، ومن جهة ثالثة وأخيرة الإستفادة من قرض للدفع (التخليص) لدى البنوك قابل للتسديد في أجل أقصاه ثلاث سنوات[21].

لا ريب أن هذه التدابير تقدم ضمانات جيدة للعمال للحفاظ على مصالحهم في مسار تطبيق سياسة الخوصصة، وتوفر شروط تفعيل المعرفة الفنية المكتسبة للعمال، بما فيهم الإطارات، بما يضمن للمؤسسة الإستمرار في الإنتاج مع امكانيات التحسين.

لكن كل هذا لا يجب أن ينسينا أن العمال يمثلون طبقة اجتماعية معينة هي أنها تلك التي تدفع الجهد العضلي والفكري في الإنتاج، وأن مشاركتها في رأس مال المؤسسة لاينبغي أن تكون منفذا للتملص من هذه الطبيعة، بل الأنجح هي أن تكون وسيلة لتعزيز شعورها بأنها مرتبطة عضويا ومصلحيا بالمؤسسة ونجاحها، وأنها معنية مباشرة بنتائج عملها ليس فقط من جهة الأجور وإنما أيضا من جهة الأرباح المحققة وتراكم رأس المال. ونعتقد أن تأطير القانون المتعلق بالخوصصة في هذا الموضوع ضروري لتفادي الإنزلاقات التي يكون من شأنها، في سير التطبيق، تفريغ هذه المشاركة العمالية في رأس مال المؤسسة من محتواها الإجتماعي، واستغلالها كوسيلة للتحايل قصد الإستفادة فقط من الإمتيازات المخصصة لها، فتكون الخسارة خسارتين إن للمؤسسة التي قد تفقد طاقات منتجة، وإن للدولة التي تضيع منها قيم رأس المال المتنازل عنه مجانا أو بأسعار منخفضة عن القيمة الحقيقية.

الأكيد هو أنه من الضروري في هذا المجال ترقية الثقافة العمالية بشرح أبعاد هذه السياسة. وهي مهمة المنظمة النقابية التي يجب أن تدافع على هذا المبدأ للحفاظ عليه كمكسب عمالي. كما أنه من الضروري أيضا للدولة أن تثري منظومتها التشريعية بنصوص ملائمة لحل التناقض الذي تطرحه المشاركة العمالية في رأس مال المؤسسة بين طبيعة العامل كمنتج وطبيعته كمالك لرأس المال. وهو تناقض قد يفرض وجوده على صعيد النزاعات الفردية والجماعية بين طرفي المؤسسة وهما الإدارة من جهة والعامل أو العمال من جهة أخرى، ويؤثر سلبا على الإنسجام والتعاون بين المساهمين.

2- بالنسبة للمستهلكين: لا شك أن مصدر الخوف والقلق من الخوصصة عند المستهلكين هو التضخم في الأسعار، بمعنى ارتفاعها. لأن السوق الذي يصبح منظّمها (ومحدّدها) يخضع فقط لتفاعلات قانون العرض والطلب. وهو تخوّف شرعي في ظرف أزموي اقتصادي حاد مثل الذي تمر به الجزائر، والذي تميّز، حسب تقويم المجلس الوطني للتخطيط في ميزانية الدولة للتجهيز العام 1995، بظاهرتين متناقضتين هما: من جهة معدل النمو السكاني السنوي الذي هو في حدود 2,5٪، وما فرضه هذه الزيادة على السوق من طلب جديد، مقابل نمو اقتصادي يساوي معدله 0,2 في المئة بالنسبة لعام 1994، وما نتج عن هذا الركود من عجز الإنتاج الوطني (العرض) على تغطية الحاجات الجديدة للمستهلكين من جهة أخرى. وفعلا حدث ماكان يتوقع وهو أن نسبة التضخم عن هذه السنة بلغت 40٪.

لا تجهل الجهات الرسمية المسيرة في جهاز الدولة لملف الخوصصة، هذا التخوف الشرعي للمواطنين، ويبدو ذلك من اهتمامها بالبحث على الصيغ التقنية المفيدة لإشراكهم في العملية، باعتبار أن القطاع العمومي الإقتصادي هو من أملاك المجموعة الوطنية la collectivité nationale. ومن بين الصيغ التي ترى امكانية تطبيقها عرض أذونات (سندات) جزء من رأس مال المؤسسة المراد خوصصتها على المواطنين للبيع بأسعار

منخفضة[22]. ويمكن لهذه الصيغة أن تحقق غرضا واحد هو تشجيع الإدخار العائلي.

وفي تقديرنا أن المشكل الأساسي، في علاقة المستهلكين بالخوصصة هو حمايتهم من الإستغلال الإقتصادي عن طريق الأسعار: بمعنى التوفيق بين الضرورة الإقتصادية للعارضين في تحقيق الأرباح، لمواصلة نشاطهم الإنتاجي وتوسيعه، والضرورة الإجتماعية للمستهلكين، للحصول على وسائل اشباع حاجاتهم بأقل التكاليف الممكنة. فهما مركزا قوة مدّ وجذب تشغل كثيرا اهتمام الإقتصاديين بحثا عن سياسات جعلها تخدم التنمية الإقتصادية والإجتماعية معا بشكل عادل ومتوازن، وليس على حساب إحديهما، لأن الخطورة في هذه الحالة الأخيرة، هو اختناق التنمية تحت تأثير التضخم الإقتصادي أو انكماشه.

إن مسؤولية الدولة في هذا المجال، للحفاظ على التوازنات الإقتصادية العامة أو لتحقيقها، مسؤولية أساسية، باعتبارها، في التنظيم الإقتصادي الجديد، سلطة عمومية لها صلاحيات التنظيم والحماية والتنشيط. ومن التدابير التي يجدر بالدولة الحرص على اتخاذها أو تشجيعها أربعة رئيسية هي:

1- تقوية نظام الرقابة على احترام اخلاقيات المهنة مع دعم إجراءات الردع لقمع المخالفات القانونية والتنظيمية، التي يمارسها الأعوان الإقتصاديون عادة على مستوى الأسعار، بهدف نقل الأعباء المالية (الجبائية) إلى المستهلكين أو بهدف الكسب السريع والفاحش.

3- تشجيع النظام الجمعوي وسط المستهلكين للدفاع عن قدراتهم الشرائية كقوى مجمعة ومنظمة قادرة على التأثير في علاقات السوق المهددة دوما بظاهرة احتكار البائع.

4- نشر علاقات التنافس بين الأعوان الإقتصاديين على جميع أصعدة العملية الإقتصادية كالإستثمار والإنتاج والنقل والبيع. لأن أقوى سلاح للتحكم في السوق، وترويض نفسيات الطمع والإستغلال عند العارضين، هي المنافسة. فهي لا تدفع الأسعار فقط نحو الإقتراب من القيم الحقيقية للسلع، وإنما تحفز على تخفيض متوسط هذه القيم، عبر تحسين الإنتاجية، وعلى ترقية نوعيات المنتجات.

5- الإستعانة بنظام المساحات الكبرى للبيع بالمناطق العمرانية نظرا لمزاياها في تنويع العرض، وتنويع مستويات الأسعار، وحرصها على إعلان اسعارها للجمهور. وهي صفات تبعث الثقة في نفوس المشترين. وإنما يجب فتح الباب في هذا المجال لكلا القطاعين العام والخاص أو المختلط منهما قصد تدعيم روح التنافس الإقتصادي.

الخاتمة

لعل أهم النتائج التي يمكن استخراجها من دراسة سياسة الخوصصة في الجزائر -في ملامحها وأبعادها- هي من الناحية النظرية العامة، تخليص مفهوم الخوصصة من الإنطباع السياسي والإيديولوجي، الذي يسبغ عليه طابع الإستغلال، وكأن كل نشاط اقتصادي خاص هو فقط نشاط مستغل ومحبط للتنمية الإقتصادية والإجتماعية المنسجمة، وهي نظرية مرتبطة بالتفكير الماركسي المبني على الدراسة التاريخية لتطور المجتمعات في علاقة صراع طبقي أساسه هو الإقتصاد: أي المادة. وبطبيعة الحال فإن الهدف من هذا التخليص هو إعطاء العمل الإقتصادي مفهوما براغماتيا مبنيا على الفعالية والكفاءة في الأداء دون التقيّد بالطبيعة القانونية للملكية على وسائل الإنتاج. وهذا التوجه في السياسات الإقتصادية العامة في العالم الرأسمالي والإشتراكي معا يجسّد العنصر الجديد في نظريات التنمية، والتي أصبحت تخضع صلاحية العمل الإقتصادي لمقياس الفعالية والكفاءة سواء وهو عمل عام تقوم به الدولة أو عمل خاص يقوم به الأفراد. لأن كل واحد من العملين يتضمن مزايا ومساوئ. فإن كسر حائط التجافي بينهما من شأنه دمج النظرة الإقتصاديّة -الغالبة على النظرية الرأسمالية- في النظرة الإجتماعويّة- الغالبة على

النظرية الإشتراكية- في نظرة اقتصادية واجتماعية واحدة.

هذا من جهة أولى ومن جهة ثانية فالنتائج التي يمكن استخراجها أيضا من هذه الدراسة، على مستوى التطبيق، هي على الأخص هذه النتائج الثلاث:

1- إنّ توجّه سياسة الخوصصة في الجزائر، على الأمدين المتوسط والبعيد، هو إلى انسحاب الدولة كليا من ساحة الإنتاج التنافسي للسلع والخدمات، والعمل على استرجاع رؤوس الأموال العمومية المستثمرة في المؤسسات، مقابل ممارسة ثلاث صلاحيات فقط هي: التنظيم، والحماية، والتنشيط باعتبارها سلطة عمومية.

2- إن العامل الأساسي الذي دفع الدولة إلى تطبيق سياسة الخوصصة هي الأزمة الإقتصادية الحادة التي طفقت ترزح على كاهل البلاد، والتي برزت صورتها القاتمة في المديونية الخارجية، والتي تقدر الدولة أن مفتاح الخروج منها هو بإعادة هيكلة النشاط العمومي الإ قتصادي في اتجاه الخوصصة للتخلص من الأعباء السنوية المالية التي يكلف بها خزينة الدولة، بفعل عجزه المالي الناتج عن نقص الفعالية والكفاءة في الأداء. ثم كذلك أيضا بدعوة رأس المال الخاص الوطني والأجنبي إلى استثمار امكانياته المالية والفنية في التنمية الشاملة كأعوان اقتصاديين أساسيين.

3- تشجيع العمال والإطارات العاملين في المؤسسات العمومية الإقتصادية الخوصصة على المساهمة في شراء رؤوس أموالها، وكذا العائلات على توظيف مدخراتها بشروط تفضيلية تحفيزية.

أما من جهة ثالثة فإن هذه الدراسة العلمية قد مكنتنا أيضا من التوصل إلى نتيجتين تقييميتين رئيسيتين يجب التنبيه إليهما هما:

1- لا ينبغي تصور أن رأس المال الخاص يملك مفتاح سليمان لإخراج البلاد من الأزمة، نظراً لسببين قويين هما: أنه بالنسبة لرأس المال الخاص الوطني لم ينضج بعد ماليا وفنيا ليشكل طبقة رأسمالية قادرة على تحمل مهام التنمية، كما هو الحال في البلدان المتقدمة، إذ مازال النشاط الإقتصادي الطفيلي هو الطابع الغالب عليه، وأنه بالنسبة لرأس المال الأجنبي، أن ما يشد اهتمامه للإستثمار هو التفكير التجاري Mercantiliste من أجل الربح المضمون في الأمد القصير أو المتوسط. وهذا ما يفسر إلى حد بعيد ميول الإستثمارات الأجنبية في الجزائر إلى قطاع المحروقات، رغم الجهود المبذولة معها من قبل الحكومة لحملها على الإستثمار في قطاع إنتاج التجهيزات التي هي أساس التنمية الإقتصادية والتكنولوجية.

وتأكيدا لهذه الفكرة تدل أرقام الجدول الوارد أدناه(23) عن الإستثمارات الخاصة المعتمدة، خلال سنة 1994، طبقا للمرسوم التشريعي رقم 93-12 المتضمن ترقية الإستثمار، أن 56,5٪ من مجموع الإستثمارات البالغة 90,6 مليار دج تركزت في المدن الكبرى بثماني (08) ولايات، مشهورة بوجودها في مناطق غنية مثل متيجة ووهران وعنابة، من مجموع ولايات البلاد الثمانية والأربعين، وأن نوع المشاريع المستثمر فيها بالولايات الثماني هي في المتوسط من حجم أكبر نسبيا بحوالي 11,5٪ عن متوسط حجم المشاريع التي تم الإستثمار فيها بالولايات الأخرى، التي هي عادة ولايات ريفية فقيرة، وبحوالي 5٪ عن الحجم المتوسط لمجموع المشاريع المستثمر فيها بالبلاد.

مليار دج	عدد الولايات	حجم الإستثمار	عدد المشاريع	متوسط الاستثمار في المشروع	% الاستثمار
1-	29	17,7	137	0,129	19,5
3-1	11	21,8	163	0,133	22,0
5-3	2	7,9	29	0,272	8,8
7-5	4	25,4	191	0,133	28,0
+7	2	17,8	128	0,139	19,7
المجموع	48	90,6	648	0,140	100

2- لا ينبغي تشخيص سياسة الخوصصة كحل تعويضي اقصائي للقطاع العمومي الإقتصادي في منظور سياسة اقتصاد السوق عموما ، ومنظور سياسة التنمية على الخصوص، لأن ذلك التشخيص بالنسبة للمنظور الأول، خطأ، باعتبار أن نظرية اقتصاد السوق هي اخضاع السلوكات الإقتصادية لقواعده وقوانينه، وعلى رأسها قانون العرض والطلب، في إطار نظام منفتح على التنافس مشجع عليه، ولايوجد بهذا الشأن ما يمنع الأعوان الإقتصاديين العموميين أن ينشطوا في إطار هذا النظام، أو مايجعلهم يسيئون إلى ميكانزماته مادامت الدولة حريصة على التزام الحياد في أمور تسيير المؤسسات. بل إن المتصور، في اطار احترام القواعد الإقتصادية، لنظام اقتصاد السوق، هو أن كثرة الأعوان الإقتصاديين، وتعدد طبيعات الملكية لوسائل الإنتاج، وتنوع أساليب التسيير الخاص والعام والمختلط من شأنها جميعا تنشيط التنافس في جميع الأعمال الإقتصادية، وترقية التعاون والتكامل بين القطاعين الخاص والعام، كطاقتين اقتصاديتين للمجتمع وليس كقوتين متضادتين. وإلى جانب هذا لاننسى أيضا بأن التشخيص السالف ذكره بالنسبة للمنظور الثاني، الذي هو سياسة التنمية، خطر. لأن الدولة، خصوصا في المجتمع النامي مثل الجزائر، ليست فقط سلطة عمومية وإنما أيضا قوة اقتصادية أكبر من القطاع الخاص نفسه من ناحية الإمكانيات الإدخارية، والقدرة على تعبئة الموارد واستخدامها. ويعتبر التفريط بعدم استخدام هذه الطاقة اهدارا لقدرة انمائية معتبرة، تترتب عنها انعكاسات سلبية على صعيد معدل الإستثمار، وسرعة التنمية بصفة عامة، وصعيد التهيئة الإقليمية (تنمية المناطق الفقيرة) التي يتهرب رأس المال الخاص عن الإستثمار بها كما رأينا أعلاه بصفة خاصة.

قائمة المراجع

- مؤتمر القمة لرؤساء وحكومات البلدان غير المتحازة المنعقدة في الجزائر سنة 1973، النصوص الأساسية، برنامج عمل من أجل التعاون الإقتصادي.
- د. محمد بلقاسم حسن بهلول. الجزائر بين الأزمة الإقتصادية والأزمة السياسية، مؤسسة دحلب سنة 1993 الجزائر. ص58
- رقم مديونية العالم الثالث سنة 1994 مقدر على أساس معدل نمو سنوي هو 4٪.
- يومية le Matin بتاريخ 21 فيفري 1995 أوردت رقم 1700 مليار دولار أمريكي مديونية كلية للعالم الثالث.
A.Ighemat: la crise de l'endettement. Edi-
2- tions ENAP. Alger 1990 P 26 et 27
3- G.R.E.P -U.N.S.P.I.C. Performances des services publics locaux. Litex 1990 Edith Guiglinger, contrats deconcessions et comportements des opérateurs privés de services locaux p 11 à 19.
4- برنامج عمل الحكومة الذي قدمه السيد أحمد غزالي عن حكومته. الجزائر 1992/02/24 ص84.
5- المرجع السابق
- برنامج حكومة السيد مقداد سيفي ملحق بومية المجاهد بالفرنسية بتاريخ 28 و29 أكتوبر 1994.
6- يومية المساء 1994/6/9 تصريح السيد أحمد بيتور وزير المالية.
7- A. Brahimi: l'économie Algérienne. Défit et enjeux. OPU Alger 1991 p 388.
8- المرجع السابق للدكتور بهلول ص 51و52.
9- حسابات مستخرجة من كتاب أحمد هني:
A. Henni: Essai sur l'économie parallèle. cas de l'Algérie ENAG. Editions. Alger 1991 P113 à 123
- الديوان الوطني للإحصائيات، نشرة 1993، الجزائر بالأرقام.
10- اتفاقية الغاط . G.A.T.T في مراكش أفريل 1994
د- محمد لبيب شقير العلاقات الإقتصادية الدولية. دار النهضة العربية القاهرة 1961 ص 433- 446
- المرجع السابق للدكتور بهلول ص 220 و221
11- المرجع السابق الأرزقي ايعمد ص 116 121

12 - وزارة إعادة الهيكلة الصناعية والمشاركة. تصحيح الإقتصاد الوطني وسياسة إعادة الهيكلة الصناعية 1994 و1995

13 - المرجع السابق

14 - وزارة التخطيط والتهيئة العمرانية 1980/84.
Rapport d'éxécution du P.Q

15 - يومية الشعب 1994/10/4 ويومية liberté 1994/12/1

P.N.U.D Le développement de la P.M.I. en Algérie dans le contexte de l'ajustement structurel, étude prérarée par MR. Rédha Hamiani Ministre de la PME Paris octobre 1994 p64

16 - المرجع السابق ص 7 و33

17 - إحصائيات مشتقات من وزارة الصناعات الصغيرة والمتوسطة

18 - المرجع السابق PNUD

19 - المرجع السابق لوزارة إعادة الهيكلة الصناعية والمشاركة

20 - أرقام مستخرجة من معطيات الديوان الوطني للإحصائيات الجزائر بأرقام. نشرة 1992 على أساس نمو سنوي هو 0,5٪

21 - يومية Le Matin 1995/02/20 حول مشروع قانون الخوصصة.

22 - المرجع السابق لوزارة إعادة الهيكلة الصناعية المشاركة.

23 - استخرجنا هذا الجدول من أرقام وزارة الصناعات الصغيرة والمتوسطة عن سنة 1994.

د. جواد بشارة

أسئلة للمفكر إدوارد غولد سميث

غولد سميث

* كاتب ومفكر إنجليزي معروف حجة في علم المستقبليات وحماية البيئة أستاذ جامعي مرموق يتقن تسع لغات وهو مرجع دولي في أمور البيئة مؤسس مجلة «البيئوي The Ecologist»، وصاحب كتاب بالأنجليزية بعنوان «الطريق» الذي صدرت ترجمته الفرنسية قبل أسابيع قليلة تحت عنوان «تحديات القرن الواحد والعشرين». كان لنا معه هذا اللقاء بمناسبة تواجده في باريس للمشاركة في الندوة السياسية حول موضوع «اليمين، اليسار: نهاية نظام» التي نظمها مركز الدراسات والبحوث «غريس» في 27/ نوفمبر 1994 في باريس تحت إشراف وإدارة الأن دو بنوا.

س- أثار كتابك «تحدي القرن الواحد والعشرين» في بريطانيا جدلاً واسعاً في الأوساط الثقافية والسياسية هل لأنك تقدم فيه لوحة مأسوية وسوداوية متشائمة لعالم الغد؟

ج - إن عالم اليوم هو المقدمة لما سيكون عليه مستقبل الإنسانية المنظور. وعالم الغد ماهو إلا النتيجة المنطقية لما نعيشه اليوم من مآس. ففي كل مكان عنف وحروب وانتهاك للقيم الانسانية ولحقوق الإنسان وفقر ومجاعات وكوارث طبيعية وتفاقم معدلات الجريمة والحروب الأهلية والأزمات الإقتصادية والاجتماعية والهوياتية. كنت أول من تنبأ بسقوط جدار برلين لكني لم أحدد له تاريخاً، وأول من قال بانهيار الإتحاد السوفيتي ولكن ليس بالصورة التي حصل فيها لأني توقعت أن يحصل صدام محدود يؤدي بالنتيجة إلى انقلاب في الوضع الداخلي. الشيء الذي لم أكن أعرف تفاصيله، لكني كنت أعرف أنه سيحدث استناداً إلى وثائق ومشاريع تخطيطية مكتوبة ومحفوظة بسرية، هو حرب الخليج.

س- سنعود إليها بعد قليل. لكن

المعروف أنك لاتتحدث عن إحداث ستقع غداً أو خلال عام أو عامين بل تتحدث عن وقائع ستحدث بعد حقبة زمنية طويلة لاتقل عن ربع قرن على أقل تقدير.

ج - إن أدواتي في استقراء المستقبل هي تحاليل الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية السائدة اليوم وجذورها الزمنية في الماضي ومااأحاطها من مؤثرات وعوامل تأثير وتحفيز. يعيش العالم اليوم على سبيل المثال كارثة بيئية متمثلة بالإنفجار السكاني وقلة الإنتاج الزراعي، أو عدم عدالة توزيع الثرواث العالمية وشحة المياه بالنسبة لحاجة البشرية ووجود الأسلحة الفتاكة والإشعاعات النووية إلخ...

أنا لم أكتب كتباً في الإستراتيجية السياسية والعسكرية بل تناولت تطورات الوضع البشري من الناحية البيئية التي لها تأثير عميق على مستقبل الإنسانية جمعاء. هذا لايمنعني من التحدث عن الأوضاع السياسية في العديد من البلدان خصوصاً القوى العظمى منها التي أعرفها جيداً هل تعلم أن العالم يُدار اليوم على يد حفنة من الجهلة الخطرين الذين لا يرون أبعد من أنوفهم ولايهمهم سوى المصالح الآنية والإعتبارات الداخلية والذاتية في كل مكان؟ هذا هو الخطر الأول الذي يتربص بالإنسانية. جهل الحكام. فبلد مثل الولايات المتحدة يستعرض عضلاته وقوته في جميع أنحاء العالم وينتج الأسلحة الفتاكة التي تكلف المليارات ونسبة كبيرة تعد بالملايين من شعبه تعيش تحت عتبة الفقر المدقع بلا مأوى أو ضمان معاشي أو صحي، فأين الحكمة من أمثال هذه الأنظمة؟.

س : أنت تتحدث عن قوة عظمى تتحمل مسؤولية دولية وتمتلك قدرات كبيرة ألا ترى أن في هذا الكلام مفارقة ملفتة للنظر؟

ج : لايمكن كقاعدة عامة، لأي أمبراطورية أو قوة عظمى أن تكون لها سياسة خارجية كبيرة وسياسية داخلية كبيرة. من البديهي أن تكون واحدة منهما على حساب الثانية وهذا هو واقع الحال في الولايات المتحدة اليوم، وكان أيضاً واقع حال الإتحاد السوفيتي الذي لم يصمد فإنها تحت وطأة ثقل مثل هذه المهمة المستحيلة.

س : هل ستنتهي الدولة القومية قريباً بنشوء الكتل أو الأقطاب والفيدراليات العالمية؟

ج - كلا فبوجود مفاهيم ومؤسسات مترسخة في تلافيف التركيبة الإجتماعية.

القومية كمفهوم السيادة الوطنية والهوية الوطنية والبوليس الوطني والجيش الوطني والحدود الوطنية واللغة الوطنية والثقافة الوطنية إلخ... لا يمكن أن تنتهي الدولة القومية لتحل محلها نزعات فيدرالية مشتركة تذوب في داخلها هذه المفاهيم لتحل محلها مفاهيم بديلة. الدولة القومية تمتلك سلطة، والسلطة لاتتنازل بسهولة، مهما كان الدافع وراء مثل هذا التنازل. عن السيادة أو السلطة.

س : مــاهي مــلامح النظام العــالمي الجـديد الذي بدأت بوارد تكونه إثر حرب الخليج الثانية؟

ج - إن النظام العـالمي الجـديد لم يكن وصفة جاهزة قدمت لتحل محل نظام قـديم. عند انتهاء الحرب الباردة وانسحاب الإتحاد السوفيتي من سباق التسلح بات واضحاً أن خروجه من حلبة المنافسة أصبح أمراً مفروغاً منه ولم يعـد سـوى مسـألة وقت عندئذ انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة العالم لكنها لم تضع بعد أسس لعبة الأمم وحل النزاعات وانتشار أسلحة الدمار الشامل وصيغة التبادلات التجارية الدولية وغيرها من المسائل الشائكة... أما حرب الخليج فقد كرّست الهيمنة الأمريكية وفتحت الطريق أمام الولايات المتحدة لتحدث عما أسمته بالنظام العالمي الجديد الذي لم يكن جديداً أبداً وليس أكثر من إعادة توزيع الأوراق والأدوار لنفس المسرحية الدولية. باعتقادي أن النظام العالمي الجديد سيفرض نفسه عندما تبرز إلى الوجود شبكة دولية من رجال الأعمال والمال يجهلون الحدود والقوانين الوطنية الخاصة بكل بلد ويفرضون معاييرهم على الإقتصاد العالمي، فهؤلاء هم الذين سيحكمون العالم. إن بداية مثل هذا النظام كانت في لامركزية الإنتاج وانتقال عمليات الإنتاج إلى مناطق نائية وفقيرة في العالم مع بقاء الإدارة والتمويل موزعة في مناطق محددة في العواصم الكبرى. فمثلاً تقوم مجموعة من رجال الأعمال في مجال الصحافة العالمية وباستخدام وسائل التقنية الجديدة كالكومبيوترات والشبكات العالمية التي تربط بينها وأجهزة الفاكس وغيرها، بتحرير مواد المجلة في مكاتبهم في باريس أو نيويورك أو لندن بينما يتم صفها وإخراجها وطبعها وتوزيعها في ماليزيا أو الفلبين. وهناك رجال أعمال ومال يشترون امتيازات زراعة الموز أو القطن أو التبغ في مناطق كثيرة من العالم الثالث ويقومون باستثمارها لحسابهم.

س : في كتابك الأخير، تحدي القرن الواحد والعشرين، إلحاح كبير على المشكلة الديموغرافية السكانية.

ج - لأنها مسألة جوهرية. فمعدل تكاثر السكان في العالم الثالث إضعاف مايحصل في العالم المتقدم اليوم رغم سياسات تحديد النسل والتوعية التي تقوم بها بعض الأنظمة هناك. ففي إفريقيا يوجد في كل عائلة كحد أدنى من 6 إلى 7 أطفال بينما انخفضت معدلات الإخصاب في أوروبا من 1,7 إلى 0,7 وهذا يعني أن المجتمعات الغربية المتقدمة سوف تشيخ خلال بضعة عقود وتنخفض الأيدي العاملة المنتجة، أي ستصبح مجتمعات متقاعدين خصوصاً مع انخفاض معدل الوفيات، فلا يمكن للمصريين مثلاً بلوغ المائة مليون في رقعة زراعية محدودة لاتتجاوز مساحة بلجيكا. الجماهير الإفريقية التي تتكاثر بصورة مهولة كل عام توجد على أبواب أوروبا وتدخل متسللة

ـــواء عن طريق جبل طارق أو عن طريق إيطاليا أو عن طريق اليونان أو عن طريق فرنسا، إن الصعوبات القائمة حالياً عند المهاجرين المكسيكيين والإفريقيين القادمين من إفريقيا الوسطى، في الولايات المتحدة، من ناحية اللغة الإنفصام الثقافي، يعطينا صورة عما ستكون عليه الأمور في أوروبا مستقبلاً وهي تواجه منذ الآن أقليات مهاجرة أغلبها إسلامية والكثير منها ناطق باللغة العربية. فوصول هؤلاء سيطرح مشاكل عويصة أقلها مشكلة الهوية والبحث عن الذات والخصوصية الثقافية حتى فرنسا التي تستند الهوية الوطنية فيها إلى حق الأرض وليس حق الدم.

س - من الناحية الإستراتيجية هل ستبقى الولايات المتحدة القوة الأعظم في العالم أم تتوقع ظهور قوى عظمى تنافسها ثم تتجاوزها اقتصادياً إن لم يكن عسرياً؟

ج - هناك أصلاً الآن قوة اقتصادية عظمى تتجاوز الولايات المتحدة وهي اليابان وقوة عسكرية لاتقل كثيراً عنها هي أوروبا المتحدة إذا أضفنا إليها القوة الروسية الوارثة للقوة السوفيتية. لكن المستقبل يشير إلى تشكل مجموعة من المراكز تتوزع فيما بينها مهمات قيادة العالم وستكون في بداية القرن القادم مكونة من القارة الأمريكية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والقارة الأوروبية بقيادة ألمانيا والقارة الآسيوية بقيادة اليابان.

وهناك الصين التي هي عملاق أو تنين نائم لكنها قوة هائلة بشرية وتكنلوجية مستقبلية قد يكون لها مكانها وكلمتها في عالم الغد. إن المستقبل للدول التي تخطط منذ الآن للمستقبل ككوريا واليابان على سبيل المثال وأوروبا إلى حد ما. أما الولايات المتحدة الأمريكية فتعيش سياسة اللحظة الآنية مما يؤدي إلى خيبة كبرى من السياسة اللبيرالية الإقتصادية. فإذا كان التخطيط الإقتصادي السوفيتي كارثة على المجتمع السوفيتي إلا أن التخطيط في اليابان فعّال ومتقن جداً.

س: وأوروبا؟ يبدو لي أنها لا تحتل مكاناً جيداً في تفكير الجيوستراتيجي؟

ج: على العكس. لكني أرى أن أوربا تتخبط اليوم وتعيش معضلة الخيارات الصحيحة فهي مضطربة، راغبة، لكنها خائفة، تريد كل شيء ولاتريد التضحية بأي شيء خصوصاً حماقة السيادة الوطنية والهوية الوطنية والخصوصية الوطنية، إلا أنها مع ذلك تتقدم. إن مصيرها مرتبط بتنمية اقتصادية قوية تنقصها في الوقت الحاضر وهي تواجه بصورة حادة أكثر فأكثر مشكلة المهاجرين الأجانب كما كان عليه الحال في الولايات المتحدة في سنوات العشرينات وتصاعد حدة العنصرية والتمييز العنصري.

س - إن سياسة التكتلات الدولية تشكل تحدياً لبقية المجتمعات التي تريد الإستقلال والحفاظ عليه، فماذا

ستكون عليه سياسة التكتلات في القرن الواحد والعشرين؟

ج - إن القرن العشرين كان عموماً قرن الأمريكيين وسيادة نمط التفكير والحياة الأمريكية. وبفعل الصناعة الثقافية المهيمنة عبر وسائل الإعلام سيبقى شطر كبير من القرن الواحد والعشرين قرن الثقافة الأمريكية التي تغزو كافة مجتمعات الكرة الأرضية. وإن ثقل الولايات المتحدة سيظل كبيراً لفترة طويلة قادمة من الزمن، ولكن، ومن ناحية أخرى، ولأسباب ديمغرافية وإيديولوجية، فإن الإسلام سيؤثر أكثر فأكثر على بقاع كثيرة من العالم وستكون له إنطلاقة جديدة بعد ركود وجمود استغرق عدة قرون. أما المنطقة الباسيفيكية فستزداد قوتها الإقتصادية. هناك قلق مشروع من الصحوة الإسلامية ومن تفاقم النزعة الأصولية الدينية. ولم تفلح سياسات ستالين في إخماد الشعور الديني في الجمهوريات السوفيتية الإسلامية التي سيكون لها وزنها في المستقبل القريب وتؤثر على تقدم الإسلام في العالم. لقد بدأ انهيار الشيوعية في الواقع بموت ستالين وإن العالم الإسلامي اليوم بانتظار المنقذ الذي قد يكون رجلاً أو يكون دولة.

س - لنعد الآن إلى حرب الخليج التي تطرقت إليها في بداية المقابلة، يبدو أنها تحتل أهمية خاصة في تفكيرك التحليلي، لماذا؟

ج - لأنها أكبر من حجمها وهي أكثر من مجرد حرب أو قتال تكتيكي بين طرفين.

إنها تحمل دروساً وإشارات وتفسيرات كثيرة لايتسع المجال للخوض فيها الآن وسأكرس لها ولأخطارها البيئية وتبعاتها المستقبلية كتاباً خاصاً. فمن المفارقة أنها كانت حرباً على أوروبا نفذت بيد الأوروبيين أنفسهم أو بمشاركتهم. لقد فهمت الولايات المتحدة الأمريكية أنها إذا أرادت تفادي المصير المؤلم والإنهيار الفظيع الذي عاشه الإتحاد السوفيتي فعليها أن تستعد منذ الآن لمواجهة خصوم المستقبل أي اليابان وأوروبا المتحدة التي يشكل الإقتصاد الألماني عصبها الحيوي والقوة الفرنسية البريطانية ذراعها العسكرية الضاربة. فأمريكا لاتحمل وجود أوروبا موحدة ومنافسة لها ومستقلة عنها، لذا فقد راهنت على ورقة الشرق الأوسط والسيطرة على منابع النفط الشرق أوسطي، الذي يعتمد عليه كلياً كلّ من ألمانيا واليابان وبقية دول أوروبا لسنوات طويلة قادمة، حتى تتمكن في المستقبل من إيجاد الطاقة البديلة والأرخص، هذا علاوة على الموقع الإستراتيجي الذي تتمتع به منطقة الشرق الأوسط وقد سنحت الفرصة للولايات المتحدة الأمريكية عام 1991 بفضل غياب سياسة ملموسة وواضحة للإتحاد السوفيتي في هذه المنطقة. كان هناك مخطط مكتوب على شكل سيناريوهات، تحدث عنها العديد من الكتب المتخصصة، بدأت بخطة إنهاك وتعطيل موسكو وإخراجها من حلبة

المنافسة منذ عهد ريغان وفبركة حرب النجوم الوهمية في سباق تسلح مكلف ثم الإلتفاف نحو الشرق الأوسط واستغلال قضية الكويت العالقة ودفع صدام حسين رغماً عنه أو بجره إلى الفخ بحيلة ذكية ومدروسة لايمكن بموجبها أن يحيد عن الخط المرسوم له، وكان ذلك في عهد جورج بوش. لكن تاريخ هذه الخطة يعود إلى أيام كسينجر تحت عنوان «الإستيلاء على نفط الخليج وتركيع القوى المنافسة. أي أوروبا الموحدة واليابان المتعمدة عليه»، لذا فإن المندحر الحقيقي في هذه الحرب، إلى جانب العراق الذي أخرج من لعبة التوازنات الإقليمية، هو أوروبا واليابان أي الحلفاء الحاليين لأمريكا التي صارت تملك مفاتيح تطورهم وازدهارهم.

عن مجلة النهج

احمد شاهين

بختي بن عودة: غياب الحب

للحلاج، لسيد قطب، لعلي فـودة، لكمـال خـيـربك، لنـاجـي العلي، لحـسـين مروة، لمهدي عامل ولبختي بن عودة.

وتطول القـائمـة لو أردنا الحـصـر، لكن المنارات التي استعرضنا بعضاً منها، قتلت: بعضهـا عبثاً لضـراوة السلاح، بعضهـا قـصـداً لأنهـا إبداع مـشـوش سكون تلك «القـيلولة الشـرقـيـة» التي غرق فيها الشرق الإسلامي العربي منذ القـرن الخـامس للهـجـرة، حسب بعض المؤرخين، لكننا، إذا أردنا الدقـة، فـقـد بدأت تلك «القـيلولة الشـرقـيـة»، مع خـلافـة المأمـون (سـيـاسـيـاً) في القـرن الثـاني للهجرة (198هـ)، ومحنة «خلق القـرآن» التي قـادها «العـقـلانيـون» آنذاك على طريقـتـهـم (المعـتـزلة)، فـمـحنة الخلق تلك كـانت حـربـاً مع التفكير مدعومة من السلطة السياسية، ظنهـا البـعض أمـراً عـرضـيـاً، لكننا كمثقفين مازلنا عند ذاك وحتى اليوم نواجـه في كل عـصـر «محنة خلق» يدعو لهـا مثقـفـون ذوو عين واحـدة، سعداء، لأن «أميراً ما» شهر سيفه لينحر من يخالفهم.

مشهد القتل:

كان يشهد مباراة كرة قدم بين حيه وحي آخـر، بعـد أن شـارك في قـسـم منهـا ضـمن فـريق حـيـه الذي يدربه أيضاً، وكـان فـرحـاً حين اكـتـشف أن الباحث الأمريكي بول كينيدي، يدرب فـريق أشـبـال لكرة القـدم، فلم يفـعل بختي بن عودة من كونه مثقفاً يجري خلف كرة».

مـسلحـان مـدربان على اسـتـخـدام السلاح طلبا ممن حوله الإبتعاد عنه. كانت الشمس على غروب. قيل حاول الهرب، لكن رصاصـة كانت أسرع منه، وقـيـل أن إصـابة أخـرى جـاءته من الخلف. هل كـان هاربـاً أم أن القـتـلة غـدروا به؟ في كل الحـالات لم يكن مقاتلاً ليواجههم أو يخوض معركة معهم. كان يحب الحياة، وقد أقلقه في أيامه الأخيرة البحث عن زوجة، بعد أن فـشل في تجـربة حـبـه التي كنت شاهداً عليها، والتي لم يستطيع بختي بن عودة أن يفهم سبب فشلها. قلت له دفنهـا.. يابختي! ألا تحـاول أن تفـهـم الحب، فهو أمر يتجاوز العقل».

مشهد الدفن:

كـان الدكتـور كـاظم العبـودي آخـر وجـه وقعت عليه عينا بختي بن عودة، في ثواني عمره الأخيرة، كما نقل لي كـاظم هاتفيـاً وهو يروي لي تفـاصيل «قـتل بختي»، وكـعـادة بلداتنا، خـيـر

عـمل نقـدم للمـيت به دفنه، لكن أصدقاء بختي يعرفون مشواره اليومي بين داره وقـصر الثـقافـة في وهران بحثاً عن نشاط ثقافي يشارك فيه أو يحرض عليه، إلى الجامعة حيث يدرس، وحيث درس، فقد كان أستاذاً في الجامعة، لكنه ينشط كطالب فيها. حمل جسد بختي إلى قصر الثقافة، ومنه إلى الجـامـعـة. كـان الطلاب والأسـاتذة بانتظاره. تنقلوا به إلى كافة أقسام ومعاهد جامعة السانيا؛ تظاهروا حوله، هتفوا له؛ استمر الموكب لأكثر من ساعتين ليحط بعد ذلك أمام إدارة الجـامـعـة، ليؤبنه عميدها، الدكتور محمد عبّو. كل أقسام الجامعة ومعاهدها تعرف بختي بن عودة.

في مـقـبـرة وهران كـان ينتظره آخرون لوداعه، مشيعة كل اللحظات الأخيرة: صلاة دفن، ويعاد الجسد إلى أصله إلى التـراب. رحل بخـتي بن عودة؛ ومنذ رحلة «تموز» إلى العالم السفلي، والإنسان يبحث عن طريقة للعـودة للبـعث. لن يعـود بخـتي بن عودة؛ لكنه ترك ماسيذكرنا به.

بطاقة شخصية:

الإسم: بن عودة واللقب بختي؛ لكننا قلبنا الحال معه، فصار لقبه إسماً له، وهكذا تعاملنا معه منذ عرفناه، حيث استقام لنا الأمر لغوياً بالعربية، وقبل ذلك، فلم يكن مشاكساً، مع أنه لايخلو من غد.

المواليد: ولد في وهران في ٢٨ (أغسطس) ١٩٦١، حيث يقيم والده، وهو الإبن الأكبر لأسرته؛ لكنه كان يصر على انتسابه إلى معسكر، بلد عائلته، ويعلن في حـالات انفـعـاله «أنا معسكري». هل كان ذلك لأن معسكر بلد الأمير عبد القادر الجزائري؟ أم لأنه كان ذا مزاج معسكري، ساخن سخونة تلك البلدة (الولاية) التي تقع على حدود الصحراء.

الوضعية العائلية: مطلق، لأنه، كما قال لي، لم تحتمل زوجته السابقة اهتمامه بالكتب والكتابة، كما لم تحتمل فوضاه، فهي لم تستطيع تنظيمه، وهو لم يستطيع جرها إلى عالمه. أنجب منها طفلة سماها اسمهان، أكملت سنتها الرابعة يوماً قبل قتله. كان يبحث عن زوجة أو حبيبة تحب ابنته. نقل عن الخطيبي: ...... كلمة سرية، لنحفظها قرب القلب.

بطاقة فنية:

كان آخر نشاط ثقافي تولى إدارته رئاسة تحرير مجلة «التبيين»، التي تصدرها جمعية «الجاحظية» الثقافية التي يرأسها الروائي الطاهر وطار.

جمع مواد العدد التاسع، وأشرف على إعداده للإصدار؛ كتب افتتاحية العدد، ومقالاً آخر فيه بعنوان «مقاربة الحب... التجارب في مساءلة الآخـر»؛ وكـان ينتـقل بين وهران والعاصمة للإشراف على إصدار العدد. إنه العدد الوحيد الذي أصدره بختي

بن عودة، بعد أن انتخبه عشرون مثقفاً أعضاء في جمعية «الجاحظية» رئيساً للتحرير ؛ وهو تقليد ديمقراطي لإدارة الثقافة تعمل «الجاحظية» على تكريسه ؛ وكان اختبار بختي مظهره الأول.

وعلى الرغم من أن بختي بن عودة من المعجبين بـ «تفكيكة» جاك دريدا، لكنه لم يكن أحادي الإنتماء الثقافي. كان يقرأ كل مايقع تحت يده، ويناقش فيه. كان مسكوناً بالقلق الثقافي. كتب كثيراً، لكن ماكتبه لم يتعد المقالات النقدية لبعض الكتب، والقليل من النصوص والقصائد ؛ لكنه شارك كثيراً في الملتقيات الفكرية التي كانت تعقد في بلدان العربي ؛ ولم يكن يجد حرجاً في المشاركة في أي نشاط إدلاء دلوه فيه ؛ من الشعر إلى الموسيقى إلى المسرح إلى الفلسفة. لم تكن لغته الكتابية مفهومة حتى لدى المقربين منه، كان يزاوج الجملة العربية بجملة فرنسية. وكانت الأخيرة موضع احتجاج أصدقائه المعربين. حاول شوقي بغدادي (الشاعر السوري) تصويت إحدى مقالات بختي في مجلة الآداب. كان بختي سعيداً بما قاله له شوقي بغدادي ؛ فقد قدم لي مقال شوقي قائلاً : لو أستطيع أن أكتب بالطريقة التي جعل شوقي مقالي فيها عربياً. إنها مشكلة الثقافة في الجزائر.

«كان بختي مؤلفاً باستعراض الأسماء التي قرأ لها دون إيراد نصوصها، أو مافهمه منها ؛ تلك كانت نقطة ضعفه، لكن الأسماء تلك لم تكن تقتصر مع مثقفي أوروبا المشبع بهم بختي، فكان مثقفو العربية والإسلام حاضرين أيضاً. كان معجباً بأدونيس وعبد الكبير الخطيبي ومحمد أركون وهشام شرابي وابن رشيد وغيرهم كثر. مع ذلك كان يعمل على أن يخلق نصه الخاص به، وكنا نتحاور في ذلك كلما زارني في العاصمة، حيث كان يقيم معي حيث أسكن.

رحل بختي بن عودة، وهو في بداية مشواره الإبداعي. ومع أن الموت حق، فإن الثقافة خسرت بغياب بختي مجتهداً بدأ يفتح طريقه الخاص. هل قتل بن عودة عبثاً، أم قصداً؟ لم يكن له أعداء ؛ لكنه كان قد بدأ يصعد الجبل، جبل ينقشه، وعلى السفح اصطاده القناصون.

الجزائر،
1995-5-24

بختي بن عودة

مقاربة

العلوم الإنسانية في الجزائر في فوضى الدال ونكوص المعنى

ذات يوم قد يصبح القرن دولوزياً،
[ميشيل فوكو]

سأبقي على صيغة التساؤل في مفصلها الأساسي أي في القرن مقروناً بالتجاوب بين الإسم والغرض قائلاً «ذات يوم، قد يصبح القرن ابستمولوجياً»، ثم أعود إلى هذا الفيلسوف- القارة في مدخل من الداخل كي أبرز لهذا المنفذ، المنفذ المتواضع لإيقاع القراءة هاهنا في حضرة العلوم الإنسانية حيث النسق والخطاب والمفهوم ستكون كلها محل استنطاق بالمعنى الذي يحفظ للمعنى تمتعه الشبه يتيم بتاريخية غير منزوعة القوة. تاريخية تسديد مديونية ماإزاء التقدم والحداثة الجليلين.

صحيح أن المشهد لايوفر الحد الأدنى من مكشوفية الأساسات الراهنة لفرض صرامة أكثر شمولية، تكون هي نفسها المهماز الذي يضع أمام المنهج أو التصور أو المبحث مجموعة أوردة يرى بها إلى فاعليته هو، أي قابليته لأن يختار موضوعات بها يراجع توقعاته كما انتظاراته، مابين معطى قال مسبقاً من هو وصيرورة هي بصدد التعاضد.

ستمنحني بعض المتون هيئة لاهي بالوصفة ولا هي بالمفعول الخاص بالعلاج البديل [l'Effet Placebo]، وذلك أن هذه الهيئة هي لوحة، مجرد لوحة تختبر النشأة والتفكير وشجرة النسب، كما لو أن مجال العلوم

الإنسانية وهو يتسع لكل الإضاءات اللاحقة سيقوض كل مبدأ للتطابق مع علم دون غيره. هذا التقويض مؤسس في حق المراجعة وابتهاج التشطيب، بالكيفية التي تتيح للإستبدال [Substitution] بأن يترجم اختراق بنية لأخرى، أي بأن يحفظ للأبناء بأن يكون هو أفق المعرفة، إذن سننتقل من فكرة رؤوس الأقلام، الأقواس، النقاط الإستدلالية والحيل الأسلوبية إلى فكرة المشروع كذروة ماتستظهره ذات مفكرة وراغبة.

المتون هاهنا لاترضي قراءة سكولائية ومحضة، أي أنها لاتعيّن الأسماء والعناوين لتتحرش ضدها، بل تظل قائمة لدينا في التقاطعات التي تستثمر إحالة هنا ونضوباً هناك. وهي بذلك لن تكون سوى أشباح مادامت لم تتحول (ونحن هنا لانمارس ضدها أي نفي) إلى سلطة تثير ميلاً أو نشوة أو انقضاضاً.

متون تتربص بها عيون الباحثين عن غيرها للإنشباك الأحمق بالمعضلات.

البحث عن المفهوم أو غبن الإبستمي :

من الضروري إذن الإعلان عن كون المفهوم صناعة، تركيب متضافر الأطراف، لاصمت له سوى في عزلته، عزلة التفكير أصلاً على غرار تجربة العالم وهي نادرة. فكلما تابع مسار السؤال التالي «إلى أي حد؟»، سيكون مسموعاً، متحملاً لأكثر من إجراء procédé، إذ ستسمح له ثراءات علوم الإنسان ليس بالتجلّي فقط وإنما بالإتساع، إنه إذن في تقاطع السبل منشداً قوته اللاارتجاعية غير ضال لا من جهة ذاته ولا من جهة موضوعه.

هو إذن حقل وليس برهة أو التماعة، لأنه يكون قد انبثق عن اختبارات مثله مثل «العود الأبدي»، أو «اللامفكر فيه» أو «الميميزيس» (Mimesis)أو «جامع النص» -l'Archi (Texte». هناك في العمق حلقات بل تنضيدات المهوى (Abime)، وكلها تجسيدات للأقصى. إن المفهوم إذن، لايتحرك بمفرده، كـ «Inconoclaste»، غير شغوف، بل غير راغب، وإنما قابل لكي يتم تشغيله ضمن منظومة، نسق، جهاز، دورة، هي جزء من النظام المعرفي (Epistémé).

يقول فرانسوا شاتليه «إنه لممكن دوماً بناء بمساعدة أو بغير مساعدة الموسوعية، ميثولوجيا جينياجولوجية والتي بوضعها لكل مذهب في موضعه، تعيد بناء النظام الفاتح للفكر»(1). الموسوعية هاهنا (L'Erudition) غير مرهونة بالكم سانكرونيا، ولابلغة واحدة [Monoglotte] على الأقل في مايضع اللسان أمام حقيقته التاريخية، بل هي مرجع ولايحضر، مادامت مسألة الحد قد استوقفت هذا النهر.

إذن المفهوم لاتحدده القدرة على الإحالة أو المرجعة، الخيانة أو الإقتباس، الضم أو الإقتطاع، بل الإساءة إلى هذه الطرائق، واللعب في

تخوم المواجهة الشرسة لأشكال الشعور بالتقلص والإستنفاذ والهذيان. إذ مامعنى أن يكون مورد هذه الأشكال هو اللعب، من دون أن تضاعف لغة الآخر من حجم الأشكلة [Problèmatisation] الخاصة بالذات، أشكلة اليقين الذي نملكه عن هذه الذات وإقلاقها المستمر.

سيظل أساس ذلك هو الفقدان والخسارة. نفقد لنتحسس الحاجة إلي، ونخسر لنعاود التمسك بالربح. ألا نعتبر هذين الإجراءين مخلصين لمبدأ السؤال، بداية مالفك الإرتباط مع «القراءة للقراءة»، الإنضمام إلى حلقة التجريد [Abstraction] كمقدمة للتنظير، إذن التفكير من خارج الإصطلاح، ضخامة الدال وهستريا التعميم.

وللترجمة جدوى معينة ستكون كما يقول والتر بنيامين مفيدة «في التعبير عن العلاقة المتبادلة بين اللغات». هذه العلاقة ستتكرس لتنتج معرفة بالأصل المختلف، حوار مكين يوضح قصديته في عدم الإنسحاب أمام مايسميه الخطيبي بـ: «-L'être bi langue». والترجمة أداة الهجرة تلك، تصحيح لمبدأ الإستقلالية، روح التأكد من فراغ الأصل أو نضجه، كما لو أن فعل الإستضافة جزء من استراتيجية التأمين.

إذا كانت القرابة بين اللغات يقول بنيامين «تتمظهر في الترجمات، فإن هذا لايتحقق من خلال تشابه مبهم بين الشكل الجديد والأصل. ومما يقره العقل أن القرابة لاتتضمن بالضرورة التشابه»(2).

سنرى أن ذلك لاينسحب على راهن العلوم الإنسانية في الجزائر، واللغة الثانية لاتكاد تسحر علمياً ومنهجياً هذا الباحث أو ذاك على الأقل في النماذج التي تختفي وراء علة الواحد وتكاد تجعل منه جوابها الغير قابل لأي شك.

فحين نترجم على هذا المستوى نضمن لعبور الأنساق والعلامات حرية الإنفصال ليرى المترجم أن ذلك لا يخص مهمة تقنوية، بل إعادة رسم لخريطة تتوفر على الحد الأدنى من شروط الإستضافة، وهي مؤهلة لأن تتحمل الإنحرافات المحتملة.

صحيح أن العلوم الإنسانية تغذي حقل المفهوم ولكنها تتغذى أيضاً من الآلام، آلام الذات المفكرة وتنصت لترددتها أمام المشكليات الكبرى، والعوائق المركبة والعطالات المستعصية على الفهم الخام. فليست هنالك من علوم إنسانية سوى لاستبدال قيمة بأخرى وحضور بآخر، كما لو أن شغلها ينتهي ليبدأ مع الغموضات التي تنبثق عند احتدام الأزمنة واصطدامها بالسري والخارق والمتعذر ترجمته [L'intraduisible]. فالأمر لايخص وضعية المفهوم العاملة على إبراز إجرائيته الضرورية كلما حصل تفصل متدرج داخل سياق مايقرأ نفسه من خلال التوليد والتدليل، وإنما

يخص أيضاً وضعية المستخدم، بما هي قدرة أو مهمة أو إلزام أو توريط. كل ذلك صـــالح لأن يراهن على المشي صوب إحداثيات جديدة تفي الإنسان المتعدد حقه في إعادة النظر والتساؤل حول إمكانية تصديق وجه في إعادة النظر والتساؤل حول إمكانية تصديق وجه جزائري ألسنياً أو أو تحليلنفسياً أو انثروبولوجياً أو منطقياً أولاهوتياً أو فلسفياً. التصديق معناه البحث عن نمذجة، وعن توقيع مشترك يضع أمام تاريخ العلوم الإنسانية فرصة لعرض مشروع ميثولوجيا مسؤولة ونابغة، ليست متعلقة بالخيلة الأثينية ولابالأنوارية، وإنما بما يتـــجـــزأر [S'Algerianise]، أي بما يقـــتـــرح على هذا المكان الخصوصي واجب تأثيث مخيلته هو باتيكاما وجده ومايوجده.

إن لواحق مثل «Isme»، أو «ité»، بل وحتى «Logie»، ستتمتع هي الأخرى بانعطافات حاسمة مثل أيضاً «Able»، أو «Dé»، أو «Dy». إذن أدوات لامناص منها (فرنسيا على الأقل) لكي نتأملها في صورة الإنشاء العربي ومايستوعبه من مماثلات على هذا الصـــعـــيـــد. الإنعطافات الحاسمة لحظة خطيرة ستسم مجال الترجمة أو قابليتها (Traductibilité)، إذن مـــاهو القـــابل للترجمة [Traduisible]. غرامـيـشي يقول «قابلية الترجمة (أو ممكنيتها) تفـتـرض كـون مـرحلة مـعطاة من الحضارة لها تعبير ثقافي هي، «أساسيا»، مـتطابقـة، حـتى ولو كـانت اللغـة

تاريخياً مختلفة، محـدّدة بتقـاليد خاصة بكل ثقافة وطنية، وبكل نسق فلسفي، وبهـيـمنة نشـاط فكري أو ممارسة، إلخ...» [غراميشي في النص].

إذن، المفهوم يجرب حياته أو لنقل سيرته الذاتية ويستحقها بهجرته من حـضـارة إلى أخـرى، إذن من نظام معرفي إلى آخـر. فكل حديث بهذا المعنى عن مفهوم لنقل محلّي، خارج كل تضمين سياسي، ليستحق (مرة أخرى) بهذه الصفة وطناً متميزاً، مثله مثل النظرية التي تستوعبه أو تحتفل به.

لكن ضمانات الهجرة هاته، ليست سهلة ولامبتورة عن مكان النشأة، مهد الميلاد، وهي معقدة إلى درجة يصعب فيها تكليل جهد المترجم أو المحوّل، أو الناقل، أو المقتبس وتقدير حسه إزاء المفهوم.

ثمة مطلب آخر نستشفه لدى الإستقبال، هناك في الأرض التي يهاجر إليها المفهوم، مطلب يساوي الضيافة وكفى، ضيافة غير قابلة لأي تذويب.

لكن مـاذا عن هذه المسألة في المتن الجزائري؟. كيف تتغذى منه وتنفصل عنه، إذ كل تماه هو تجربة انفصال، سيظل مطروحاً على النحو التالي: «إن عدم كفاية حاضرنا تفرض علينا التنظير لنقصاننا»(3).

هذا الطرح الذي يقترحه الأستاذ محـمـد مـولفي وهو «الإنسانيـة»، ليواجهنا وبعنف في العتمة نفسها

للمعرفة، حيث النقصان، هذه الوقفة البريئة من كل احتدام مجاني على حدود الحقيقة، هو مايلزمنا، على مستوى اقتضاءات الإنسان، بمتانة تنظيرية تخترق تصدعات المتوارث، على الأقل في الشؤون المدعية امتلاك ناصية العلم من غير أقطاب أي علماء. فالإنتقال من النقصان إلى الكفاية هو انتقال من الفكرة إلى المقولة، ومن الإفتراض إلى قوة الإنجاز[Performance].

إن مهمة العلوم الإنسانية مطالبة بأن تعيد تعريف العلم فيما هي تضيء كون الإنسان، ترميه خارج البديهة، موفرة له شرطي النقد والإستقلالية، علماً أن ذلك لن ينسينا الإشارة إلى تاريخ 1971 (إصلاح التعليم العالي) و1980(التعريب الشامل للعلوم الإجتماعية). لحظتان للتأمل، خصوصاً إذا ألحقنا بهما الهموم الموازية لهما وقد ظهرت مضاعفاتها على المستويين المنهجي والتعبيري.

إن التعامل الجدي يقول الأستاذ مدين بن عمر مع الأبعاد الثلاثة والمعقدة جدلياً لعلوم الإجتماعية وهي : المعرفة، الإيديولوجيا، والبراكسيولوجيا «معناه الحذر من الخطأ الكبير للواحديين [Monistes] والمناطقة الشكليين والبنيويين المتصلّبين»(4).

في غمرة البحث عن سؤال مركزي لوضعية العلوم الإنسانية في الجزائر، تبدو هذه الأخيرة سجينة تاريخها المشوش، أي المفصول عن اختيارات عريضة يبدو أنها لم تتجل لا في أرضية منهجية ولا في أفق اصطلاحي يجددان هوية الأنواع والأشكال والممارسات الإستثنائية. ولكنها بالمقابل سجينة عزم الحرص المؤسس [Institutionalisé] والذي يظفر بتسجيلها ضمن رصانة رسمية تبدد سياسة اليوم، الآن، الحادث أو الجائز [Contingent] وتقترح سجالات مقتدرة ومفكّرة، تجمع بين الهم النظري والنقد الضروري للسلوكات وردود الفعل والإحتماءات اللاتاريخية.

لعل كفاية من هذا الطراز، لنقل مثلاً كفاية العلموية [Le scientisme] المحصورة في افتخار دولويFierté étatique، والتي (لنعد إلى الأستاذ مدين) تكون مطروحة بين رفض الغموض أو رفض الفلسفة. إذن «وهذا التوصيف مصرح به ضرورياً وعلى الدوام من قبل نظامين للخطاب : الخاص بالسلطة وبالعلوم. فمكان الإلتقاء هو الموضوع الذي يتعلق به النظامان وبنقاط القطيعة الممكنة وهي المقاصد والملفوظات وأشكال التأويل الخاصة بالمشروع. مع الأول، هناك الشرعية الإيديولوجية المؤسسة على قيم غير قابلة لأي اختراق (...) والمترجمة وضعياً إلى صيرورات تغييرية للمجتمع، ومع الثاني، هناك التبرير العلمي الصدفوي والإستئنافي بشكل دائم»(5).

تزداد هندسة السجن اتضاحاً

ولاتقول غير أسباب الإضمحلال، عدم القـدرة على الشك، علمـاً أيضـاً أن الفلسفـة والتـاريخ سيتم تدريسهـمـا بالعربيـة ابتداءاً من عام 1969، فيـمـا سيتواصل تدريس علم الإجتماع وعلم النفس والحقوق والعلوم الإقتصادية باللغتين إلى غاية 1984.

أما الإختـلال الفـعلي فـيـمكننا إخضاعه بعد هذه الإشارة إلى الثنائية المريضة التالية :

أ- دال، هو التعليم العالي.

ب- مدلول، هو التوجه الوطني.

إن عـدوى ذلك لحـقت بالممارسـة الإبداعيـة والفكرية ، وكـان لزامـاً أن توضع اللغـة أمام محك هذه الثنائية وتضطرها لأن تتـحـمل الإسـاءة إلى «الإنسان»، وتضمن حلول المدلول فيها نسقاً وبنية وخطاباً من غير انفصال ولاخلخلة.

ثم ماذا!؟

* هل هي سـخـرية القـدر، كـيف سـتـواجـه العلوم الإنسـانيـة سيميولوجيات العصر، وتتبدل عبر منشـأ وتسـارع تاريخ الأفكار والعلوم والفلسفـات؟، كيف يكون لهـا مكان مـا بين «الشبـكات الدلاليـة» وابتكارات «الميديولوجيا العامة»(*)؟.

* ماجدوى التحديق في جغرافيا صورة من صورها لا تفكر مثلاً الفكر، وتفجر هيئة الإختصاص والمجاهدة الجماعية وممكنية الأسلوبيات المرئية؟

حفريات الخجل :

إن مسـؤوليـات أخرى ستـستـوقف العلوم الإنسانية عندنا، مسؤوليات من النوع الذي يرابط لدى الميثولوجيات والكتابات العتيقة وتعايشات الحواضر (Les Cités) على نفس التـراب وبقـايا الرمال والجماجم والعبادات المقصيّة!؟. كيف يكون لهـا هذا الكل قبل الوحي وبعـده، من دون الإخـلال بالقـواسـم المشـتـركـة والتـرحـالات بالمفـهـوم الدولوزي الحـامـلة للفـجـوات والإنهمامات؟. كيف يصلح الإنباء بهذا الحـقل لحـقل آخـر من دون ترويع ولاتوتر، إذا مااعتبرنا هرمس أو أوديب أو أورفيوس أو أمبيدوقليس أو إيكار، مـرجـعيـات تتـزود منهـا المقـاربات الحديثة وتنحت منهـا أدلة ومواعـيد، سواحل وطرائق، وينتظم حولها فكر بعـينه، وتجـديد كـوني يعـثـر على مـلاءمـتـهـفي المناخ الذي به سيـخـرج الغرب من (مـثـلاً) حـرب الأديان إلى التقنية، أو من اللاهوت إلى العقلانية؟.

لنتأمل هذا الإفتقـاد في حـفـريات الخجل، ونستبصر التخصيص الفذ بدل التعميم والمفاتحة الإشارية، كما لو أن تاريخاً طويلاً من التوقع قد استبد بالتماسك الرؤيوي المبحوث عنه باسم المتـعـاليـات تارة والإقـتـضـاءات الإجتماعو-سياسية تارة أخرى.

فحيث تتوسد الحاضرة الرومانية شـفـراتهـا وبلاغـاتهـا على مـقـربـة من الحـاضـرة العربيـة الإسلامـيـة، يكون تحليل التـفـاعليات [Interactions] عـلـى

المستوى الأنثروبولوجي مثلاً، حركة بانتجدد إعادة ترتيب شجرة النسب، تمثيل الأدوار البشرية في إنتاج وجودات وقيم، متطورات وحساسيات، هي الأصول الأخرى لما هو عليه الإسم اليوم.

إنه الذي يخون العلوم الإنسانية هو عدم تمييزها الإستعجالي والمفهومي بين موضوعات المعرفة المحضة والتفسيرات الملصقة بها من خارج مبدأ العلم.

كيف سيكون الحوار ممكناً (مثلاً) بين «مادور» و«تيهرت»، بين «جميلة» و«بوجي»، بصرف النظر، مع موقع الإلحاح، عن التمايزات المعهودة؟.

إن «الشيء نفسه يتوارى دوماً» حسب دريدا، ونفسه، [Le même] لاينطلي على العلوم الإنسانية، وهو المحسوب سابقاً أو لاحقاً على الميتافيزيقا. إذن سنفهم لماذا ظلت الحداثة قادمة من أمكنة متباينة،فاتحة لأخرى مجهولة من غير تردد ولااستعظام. هي بهاته الكيفية معيش قدمت له العلوم الإنسانية المفاتيح النادرة، لأنه ينصت إليها ويستشيرها. إنه رهان الرهانات فيما يبدو التعامل مع أشباح المناهج هو التفويض ذاته لحفريات الخجل، أي حالة فيتيشية عاجزة عن تلغيم معجمها بتواضع، والذهاب نحو المهمّة المخصبة للأنسقة [Systématisation] والتعليل، والبحث عن «الندرة» كما يلتقطها «Paul Veyne» لدى فوكو.

ليست العلوم الإنسانية إذن مفصولة عن نسق المعارف المضوية تحتها بالكيفية التي، حتى وإن رجعنا إلى دالمبير مثلاً [D'Alembert] ستطرح نفسها بالمنطق الذي يؤهل العلائق التالية:

- تاريخ = ذاكرة.
- عقل = فلسفة.
- خيال = شعر.

لكي تنادي اليوم على الأقل في ذات المشكلة طرح الآن باديو من غير أن نحسب تلك المسافة مابين ١٧٥٩ وبين ١٩٨٩ أي من «الخطاب التمهيدي للأنسكلوبيديا» إلى «بيان لأجل الفلسفة» حيث الشعر (ضمن الفن) والسياسة المبدعة والرياضيات والحب كتجربة الإثنين.

ماذا يعني هذا الإثبات، الربط المتباعد على أساس من التوضيح المتسلسل كحفاظ فقط على معنى النسق ثم السلطة التي تنتشر في تفاصيله وهي هنا مجالات مفكر فيها شمولياً، انتظامياً، وربما بتقدير متزن ظل على مستوى الخطاب الغربي يعلن عن مدينة جديدة، عن إنزال قراءة الإنسان إلى الأرض، في الكيمياء نفسها لشروط ثنائية الحداثة والتحديث.

هذا الحـ ـ ص على إدراج هذا الكل ـي متسغ هذه الثنائـ ـنهر أيضـ من ـ لال الرموز المـ ـ رة في عنوان ـ ـاص مـ ـ ـلات ـ ـ جين،

الأزمنة الحديثة، اللانهائي، بوليفونيا، وغيرها. ألسنا أمام مشاريع هي رأس تخطيطات لما هو عليه العرفي Le cognitif كبديل لكل تكريس من النوع المضطرب والقائم عندنا أساساً على سذاجة الهوة بين العلوم والإنسان، والتي أكاديمياً مرهونة بتضييق فسحة التأمل في تلك العلائق، في مدى تخريبها للمتوارث، للسانكروني وللمهادن.

إن التوارث والسانكرونيا والمهادنة شبه قوانين تتحكم في الخيار وفي التسمية، ويعاد ضبطها بالإصرار على الفرق الحاد مثلاً، بين الآداب واللغة العربية، بين التاريخ والفلسفة، بين علم النفس وعلم الإجتماع. إذن واقعياً لايزال هذا الفرق صالحاً لأن يتجمهر الدال، والدال الألسني فقط هو عصبة التعليم، ذهنية الموتى، حالة من التفقه القصوى.

سيبدأ العمل ضد هذا الواقع انطلاقاً من غطرسة الدال، المرادف للشعار، بزحزحة يقظة لتفرعاته، من داخل مانسيه، أي ماتم إرغامه على نسيانه، والإنفتاح على لقاءات عاشقة بالجماليات الأخرى لها في القصيدة أو في اللوحة أو في المشهد أو في [illegible] أو في الطبيعة مفردات [illegible] المتجاذب وتفرح به.

[illegible] نص موجود أو [illegible] من حقه أن [illegible] فيخرج تارة [illegible] أن يتقطط

من جهة اللاوعي حرارة يغمر بها الإشتعال على الذات، أو على المخيال أو على العصاب.

إن النص جسد وهو مفترق طرق هذا الشغف المتعدد، ويستحق أن ينتمي لهذا المعهد أو ذاك، نقول المعهد، لنحافظ على تضمينات العهد والعهدة والمعاهدة والتعاهد، والإستعهاد، والعهدان (الكفالة) والعهادة (أول مطر الربيع). هنا مجال للهروب من المركز وكفى، والنص مدمر له، على الأقل حين لايبقى رهين تفسير واحد، إذن المعهد فقط. سيضمن هذا التدمير للمفهوم ذاته للنص بأن يصبح محل تنقيب، يتفادى إرجاع الشيء إلى أصل بعينه أو ضمه إلى سلالة متعبة فيما يتكثف بالبحث في طرائق أخرى يكون بها قد ضمن التحول إلى مرتبة «الفيلوزوفيم». عند هذا المستوى فقط [illegible] عن وجود فعلي للعلوم الإنسانية، عن فضاء جامعي تكون فيه التوجيهات الخاصة بالعقل المستقيم وتجربة الألم البشري كما يقول ميشيل سير هما العمودان الأساسيان للتعليم. فضاء منه ينبثق خطاب عالم حول المصير والغد. خطاب لايراوغ نفسه بالإختفاء وراء إواليات منعزلة أو غير ناضجة أو التي تم تمييع محتوياتها [illegible] عن استعمالتها المتجاوزة.

[illegible] المتذرع بالمنطقية، والوضعية والأمانة العلمية في [illegible] مثلاً، لم يعد [illegible] على [illegible]

هناك ضمن مشاريع واستراتيجيات لاتتوانى عن فتح قارات جديدة ليس شرطاً أن تحمل عنها أفكاراً ناجزة ومقاييس حارسة.

عود على فرق :

بلعبة لاتكاد تكون سوى دولوزية أيضاً حيث سؤال «ماالفلسفة؟» سيلطخ وضعية قائمة على العلاقة الصداقية بين الفيلسوف والمفهوم، تتهيأ الأعضاء لإعادة فحص مآل العلوم الإنسانية وجعلها في مواجهة مالم تتعرف عليه بعد، والذي ليس شرطاً أن يكون مادة أي بنياناً بكامله. لنقل مثلاً: المجتمع أو الدولة أو الحضارة أو الإقتصاد، ولكن وضمن برنامج يؤول المعنى ويترجاه، يتقرب منه بألفه في المجالات الأكثر استعصاء على التحديد التجريبي. لنقل، الآن مثلاً: الحق، الخيال، الصورة، الموت، الكارثة، العزلة، الوحشية، و...و.

يقول موريس بلانشو: «صحيح، بالنسبة إلى الكارثة، إننا نموت آجلاً جداً. لكن هذا لايعفينا من الموت، إنه يدعونا، فيما نلفت من الزمن حيث يفوت الأوان دائماً، إلى أن نتحمل الموت في غير وقته، دون علاقة مع أي شيء غير الكارثة بوصفها عودة»(٦). إذاً ظلت العلوم الإنسانية محمية بذلك البنيان (وهم الخلاص من جهة، ثم الوفاء لعهد ما من جهة أخرى)، فإن اللعبة تلك (الدولوزية) ستستوقف المصير خارج الحدود ضمن الرأفة بالأشياء لاهوتياً، أي أن هاته العلوم ستواصل العجز في عدم استباق العالم أو زعزعة المراكز، بل ستكرس غفلة الإنسان عن تحسس الفوضى أو الإختلال أو التأزم ليكون الإنسجام هو البقاء ذاته له في النهائي والمضاء أبدياً متعة غير مشتبه فيها.

إذن تفكير الكارثة سيأخذ على عاتقه إدراج الإنسان في تساؤلات مفتوحة، ستتأكد لامحالة من أن العطب والشرح السلبي والمأزقي والضنك هي بعض البسالات المطلوبة لانتزاع الإنوجاد والتهافت على ظل الإقامة في المستحق والإمتيازي.

لنبدأ في الإنصات إلى فكر الغروب، لنخشى ونجعل من الخشية ممراً إلى إنسية جديدة تبرز على الدوام أساسات علوم إنسانية جديرة بتأسيس علامات آتية من المستقبل، مهجوسة بحاضر متعدد أي بأخلاقية حاذقة وغير معذبة.

إنها مطالبة بأن تكف عن إنتاج ماأسميناه بمفعول «آل Placebo»، سواء في حقل نقد الآداب أو الخطابات الجمالية أو في تشريح مكونات الفكر العربي مثلاً. أما محددات ذلك، وبالقوة نفسها للكف، فتكمن في السهر على الإمتلاك وعدمه، حيث يتلألأ انبثاق الفرق بوصفه منفى للعلم أو يتماً له.

إنه الفرق، بمعنى الإختلاف، يتحدث عن نفسه في السياق الذي يتم به اكتشاف ماهيته، لنقل جنسيته، وهذا السياق هو نشاط مزدوج.

لدينا من جهة (مع اللعبة الدولوزية) : «صورة الفكر الذي يمقد تحت صورة الأشجار»(7) أي مع الأرمولة أو الجذمور [Rhizome]، وهو هنا استعارة تمس العلو والعمق والسطح الخاصة كلها بالفكر.

ولدينا من جهة ثانية التوجه نحو أنسنة [Humanisation] العلوم الإنسانية نفسها، إلى الدرجة التي ينصت فيها «الريزيوم» لضرورة العودة إلى حجة رئة الوجود أي الإنساني [L'Humain].

ألا نكتب بهذه الكيفية إمكان التفتح على المسكوت عنه مسائلين طبقاته، مالكين نجاعة تخريب استمراريته؟. إنها كتابة استحقاق تتأمل هذا التفتح كمفارقة كريمة لكي لاتتيقن أو تتذكر.

- اسمحوا لي (مرة أخرى) بهذه الإستعارة / الإعارة :

مامعنى أن نجمع بين :

-Placebo.

-Place (موضع).

- Placenta (ستجد أومشيمة : غشاء الجنين الذي يخرج منه عند الولادة ثم يقص بعدها).

ذلك معناه أننا بالإبقاء على سياسة المعهد سنتفق مع مثال السخد (Placenta) وسيظل الإنسان باحثاً عن موضع [Place] ولو بشكل مرهق، لتتأكد مرة أخرى وبلا هوادة الفكرة المقلقة للـ Placebo.

فلا تأسيس ولاتجذر، لاهنا ولاهناك، والضرورة كل الضرورة هي في الإنتماء إلى النشاط الأرمولي إي (L'activité rhisomatique) أي التعدد المخلص لأصل كتوم.

إن مبدأ «الريزوم» مطروح كنقيض لاستبدادية الجدلية المحضة، الإستدراج الموحد، للواحد الذي ينقسم إلى إثنين فقط والملغي للتكاثر، باعتبار شجرة النسب أي الجينيالوجيا هي التي تسمح بالإنجاب بعيداً عن الثنائيات المانوية والروحية.

الهوامش :

(1) François Chatelet "La Philosophie de Kant: Husserl" Marabout- Histoire- Belgique. 1979. page6.

(2) والتير بنيامين «مهمة المترجم» ترجمة الدكتور محمد الخزعلي. مجلة الثقافة الأجنبية. بغداد العدد 88/4، ص 153.

(3) Mohamed Moulfi "Du sens de l'Accomodation théorique en sciences humaines" In "Colloque sur les sciences Sociales aujourd'hui: 26-27-28 et 29 mai 84" OPU. Alger 1986, page 18.

(4) Mediene Benamar "Quelques idées introductives" Même référence, page 9.

(5) Ibid, Page 107.

(*) Regis Debray "Cours de médiologie générale" NRF. Gallimard. Paris 1991.

(6) موريس بلانشو «كتابة الكارثة» ترجمة مجلة مواقف العدد 56/ 1988. لندن، ص 176.

(7) Magazine Littéraire. Spécial Gilles Deleuze N-257 1988. Paris, page 23.

عبد الله! الرائي ...

وكان أن اختصرت القانون في شبح الكلمات، ليختصرك المطاف الأخير في خطوات، حاملاً ماتناهى إلى دغدغة الملك، والملكية، هبة تمرّ لها الإنغلات من ضجّة أو من أزيز، كي ترى الله بانزواء أولمبّي في المتر النهائي للعجالة حاضناً مايتطفل عليه نفسُ الله، هو الجليل والمنتقم. وتأتي القيامة دفعة دفعة، ابتلاءاً ابتلاءاً، قراراً تتدافع غواياته بالناس واللعب، بالبتلات والورق، كما لو أن جغاف الروح هو عزلته الدّنيا في خفقانها الإيديولوجي.

اليوم ذاكَ، وعلى «مرأى من الرصاص»، بلا تاريخ هيغلي، كنت تضبط إيقاعاً لوطن سيسمي ذاته في العيون، وفي سارة، واليوم إذ تترامى أطرافه فوضى وقبحاً، تتجلى على يمينك المراوغة والإسراف والعماوة.

هنا أقيم على مقربة من رواق الدهشة، [illegible] الخديه [illegible] أعوته.

مجازفين بالجسد النحيف وبالأقاليم الخفيفة لأسباب التراكم، كي نتشهى البكرة والريح، وماتشابه من فرح ومن نعاس.

وها «وطن النبوءات» متمترساً، ظافراً بالحيلة القليلة، بالتهاليل المركبة سبيلاً إلى أبدية كسولة، بفاتحة تنأى في اختبار اللغات كلها، النواقيس الجامعة، الكفايات هاهنا.

ثم يرونك، يدركون سمو الإباء في حائط تاريخي، في ضوء به تتكاثف الأتربة، وتنهض من دمها بانكفاء تتقادم أسماؤه، تلك النواصي الموجعة.

وحين تستنير طلول اعتبارك يتهادى الموعد، البريق، الدمية هناك بأحفاد الإستنارة تلك، بالذي يليق ولايليق، فيما نحن نتكاثر عدداً بكوميديا المفارقة والفاصولياء.

لايبدأ الشكر من الوداعة المترنحة، ولا من غسيل يأتي على بياض الفضاء البليل، هو يبدأ من شراكة موثقة وجذرية، من تجربة المعاودة والتبادل، من مايتبقى وينجزه الشعراء، من دبيب النص الشاطر، مرفوعاً إلى هدنتك التي لاتسمّى.

عبد الله المهاجر، السبنيّ والنادر، هلاّ تواعدنا من غير ضجة ولاجريدة، من غير ولع سابق لأوانه، يستر كل منا دقائق هشاشته، بالأنفاس ذاتها للعروبة واشتقاقاتها.

يطرق كل منا باب الآخر، سريرته التي تتغذّى من الكتمان والمشاغبة، كما لو أن ساحرة مشتركة جاءت لتعضب على عنوان المصاحبة، وتختلس الوداع بالوداع، ثم تعلن بلا استئذان عن ليل يتربص بالكينونة ويرميها في ليله.

قد لاتطول الشراكة ياعبد الله، فقط اعذرني إن كنت زاحمتك في الرؤيا وفي وثنيك الخجولة.

[بختي بن عودة]

خيرة حمر العين

جامعة- وهران

مبنى الحداثة هاجس بختي

إن السؤال الذي يشتغل على التفكيك هو دائماً سؤال الإلهام والالتباس، ولذلك فقد ظل سؤال الحداثة يرتبط طلب الالتباس والفهم، دون أن يسقط في وهم المعيارية ولذلك أيضاً فقد ظل انتسابه إلى فضاء اللامحدودية صفة مباشرة لإنتاجه على المجهول المقبول بالإحتمال. والتعدد، والإختلاف.

ثمة حاجة ملحة تدفعنا إلى استكشاف العالم من حولنا فيما نكشف ذواتنا وفي ذلك تواصل للأنا مع حاضرها من خلال ماتقتضيه من فحوى معرفة متجددة ومتعددة على الدوام من جهة، ومع مستقبلها من حيث استشرافها المستمر لرؤى متعددة، ومت......... لا تمنحك ملامحها وإنما تضعك دائماً موضع السؤال من جهة أخرى وهناك تتموضع الحداثة حتى لاتقول تتموقع.

لقد ظل هاجس الحداثة/ النص الحداثة/ الحسية، الحداثة/ الوجود، الحداثة/ الكينونة على الناقد بختي بن عودة، ويلازمه في حركيته الواعية المنحبسة لفكروية فولكلورية، و........، وفردوية، ولاكانية وقرطاجانية، وجاحظية، ...... وقد تمظهر هذا الوعي لديه في كثير من كتاباته، انطلاقاً من بحثه الذي أعده لنيل شهادة الماجستير، (ظاهرة النقدية الجديدة) إلى مقالاته النقدية المبثوثة في المجلات العربية، والوطنية.... ألقيناه يقول في إحداها بأن «التعلق بموضوعية الحداثة في المستوى الذي يتمسك بجنون الشيء الأدبي كما تسميه شوتلنا جلمان هو تعلق في واقع الأمر بالتاريخ العريض والذي ترعرت عليه هذه الموضوعية انطلاقاً من وضعية الإسم وامتيازية المسمى. منهجياً تفيد هذه اليقظة المستعر في رسم الصورة التقريبية عن مرجع يتحكم فيه ثم يعمل على توجيهه بالكيفية التي تتحول هي نفسها إلى جزء من هذا التاريخ» غير أن الحداثة في هذا المستوى لاتبحث عن اكتمالها في التاريخ. وإنما هي تكملة لجوهر التاريخ فيما تختار الوعي المطابق لوجودها المتسائل. وفي وسعنا أن نتصور مايمكن أن تستقر عنه هذه المساءلة التي قارن الرجل إلى مساءلة الوعي والفلسفة المعاصرين؛ وشكلت الفلسفة النقدية لديه نسيجاً مفهومياً بغية خلق عملية للتواصل المصرفي بين ماضي العقل العربي وحركية الفكر الحديث. حتى لايبقى النقد محض تساؤلات، يرى بن عودة بأن

المجد في ماهية العقل العربي. هو بحث في الماهية والهوية المفقودة، والتي يهتم عددها إلا بالدخول عبر بوابة التاريخ من حيث هوحركية مستمرة تتكفل من خلال موفقها التساؤلي التأويلي. وهو المنظور الذي يمنحني في أفقه بن عودة ......العقل العربي الذي يرى ...... انبثق عن الخيال، والخيال أفهم العقل في سلسلة من الثنائيات..... والخيال يؤدي إلى هوية ناقصة في العقل. وينتهي هذا التفكير عند بن عودة إلى كون :

الثنائيات سحر بياني ، تصف ولاتؤول.

وهي تقع ضمن حدود معرفية ترتبط بالقدس والراهن،

الإسلام/ الزمن الأبدي

الله/ الإنسان

الجنة/ الخلود والأزل

وبذلك فإن العقل العربي لم يقف، جدلياً، وتلك هي المفارقة بين العقل العربي والعقل الغربي : ال....في سحر الثنائيات الأزلية والثاني امتزج بفلسفة التأويل.

وليس بعيداً عن هذا التشظي المصرفي ،فيقدف بن عودة المتسائل أبداً في متاهات الحداثة. دون أن يرغب في العثور على جواب لأن حدود الجواب هي رغبة مدمرة في حين أن أفق السؤال هو لذة متجددة، ولذلك فهو يتساءل : ماالحداثة؟ أو الحداثة ما؟ ولكن دون أن يجيب

يقول : هناك في قلب المعادلة كما علمنا التفكيكيون (من ديردا إلى بول دي مان) أي بضرب المنطقة القابلة للضرب والإنشطار نعثر ليس على ما... السؤال بوصفه أطروحة وانقطاعاً، وإنما على البرنامج المستقر والمنخرط في حركة من التشرذم والتأجيل، فليس غريباً إذن أن هناك دائماً أشياء مؤجلة في أمور الحداثة.

لقد ظل فكر بن عودة منسحباً إلى البحث عن القوى المتجددة لنسوج الفكر الإنساني. وأكثر ماكان يؤرقه هو المعنى والدلالة (Sens et Significa-tion)، لقد بدت له الحياة دائماً علامة كبرى يمارس عليها التجريب والتخريب، والمعنى والإستقراء، لقد كان متأملاً، ورؤيوياً وباحثاً كينونياً، يسائل الوجود عن كينونته الناقصة وكائنيته المفقودة.

لم يكن في وسعه إيقاف زحف السؤال. لقد بدا غامضاً، ومبهماً ولكنه كان قابلاً للفهم.

لقد ظل يقول : «أنا زمان رمزي» ونحن نقول بأنه زمان مفتوح على القراءة، ومعنى قابل للتأويل.

طالب الرفاعي

«وجوه المساء...»

*** وجه أول، السؤال...**

وحدها ضحكة نورة الطفولية، باتت تكسر وجوم مساءاتنا الثقيل..

ليلة البارحة، وصلتُ متأخراً، لذا لم أستطع اللعب معها. تفقدتها في فراشها، فوجدتها تحتضن لعبتها إلى صدرها. وأثار قلق خفي، يلون وجهها الحبيب..

كعادتنا احتل كل منا مقعده: والدة خديجة. وخديجة. وأنا رحنا نفتش في زوايا وجوهنا المستهلكة. نردد على مسامع بعضنا نفس الكلام: شكوى الملل والضيق والحسرة. تخللت جلستنا فترات هدوء لزجة. تسللت خيوط النعاس الماكرة تغلق جفون أم خديجة. غافلها رأسها، سرقها، سقط على صدرها.

نظرتُ إلى خديجة. فانطلق صوتها عارياً:

- ماما! حان موعد نومك!

لم تعترض الجدة. لملمت جسدها المتراخ. بحث بصوتٍ متعثر، داخله نعاس وحذر:

- تصبحون على خير!

- وكذلك أنت!

رددتُ عليها، شيعتها بخطواتها المهدودة، وقامتها المنحنية...

بقينا لوحدنا، شعرتُ أن صمتاً مختالاً، اندس يشاركنا صالة الجلوس، كانت صور مسلسل السهرة العربي، تتوالى خرساء على شاشة التلفزيون..

كدر رمادي لف نظرة خديجة. وكابياً انبعث صوتي. قلتُ:

- موحش العمر دون حبيب!

التفتت إليّ. أومأت برأسها مؤيدة. همست بصوتٍ مصاب:

- صحيح.

وبنبرة حاولتُ أن أجعلها مؤثرة، أوضحتُ:

- يبدو أنني لن أعثر على زوجة؟!

- يبدو!

علّقت هي بلهجة متواطئة.

حدقتُ أنا بوجهها المتعب. تراءت لي عيناها غارقتين في الظلمة. قلتُ بحس ممرور:

- مللت..

تسرب مايشبه الضيق لملامحها. أكملتُ، وصوتي يرشح بالخيبة:

- أألتقط فتاة من الشارع؟!

لوّن الحياد نظرتها، ظل سؤالي معلقاً.

توالت صور التلفزيون المملة. تناولتُ علبة سجائري. أشعلتُ واحدة. قدمتها لها. هزّت رأسها رافضة. أطبقتُ على سيجارتي. أخذتُ نفساً عميقاً. وأطرد حرقتي، نفثتُ الدخان،

وصوتي :
- تعرفين ظروف عملي!
- ...
ظلت ساكتة.

انفتحتُ أنا، أجتر ألمي، وكيف أنني أعمل مثل - حمار الساقية - منذ السابعة صباحاً، وحتى الثامنة ليلاً. وأن أيامي تنسرب خاوية، دون كثير ضجة. وأن عمري قد أشرف على الأربعين، فاحلاً لم تهب على وحشته نسمة باردة. وأني أقضي جل وقتي، أجوب الشوارع ذاتها، أقف عند نفس الإشارات الضوئية. أظل أكرر كببغاء، العبارات التي نطقت بها أول مرة، يوم اشتغلت مدرب سواقة..

xxxx

منذ سنوات امتنع عليَّ الحلم، لم أعد أرى شيئاً في منامي!

أدخل إلى فراشي، فأنزلق في نفق مظلم. أظل طوال الليل محمولاً في الفراغ. وقبل المنبه، أهبّ مفزوعاً. ألمح الساعة قرب رأسي. تمر لحظات مائعة. أصيخ السمع لوقع الصمت، وصوت تنفسي، وحركة صدري. أتأكد بقائي حياً. أعتدل جالساً على حافة سريري... نتف أفكار تعبر بمخيلتي، يطالعني عُري جدران غرفتي. وتكوم الكتب على طاولة مكتبي، أخنس لفترة، قبل أن أغادر فراشي متثاقلاً... أخرج من الحمام، يستقبلني وجه أمي المكدود. وصوتها المسالم :

- صباح الخير.
- صباح النور.

أقعد لاحتساء كوب شاي، أتأمل تصاعد بخاره اللذيذ. تملأني رائحته الزكية... شاياً أمي! أرفع بصري أشرب نظرتها الحزينة.

بعد موت أبي. وزواج أخواني. عشنا لوحدنا : هي وأنا وحوائط بيتنا المحنطة، لم ترضى هي الإختلاط بأحد. اكتفت تقتات على مكالمات أخواتي الهاتفية. وانتظارها لزيارتهن، وعيالهن بين فترة وأخرى.

قل ماتخرج عن طبعها..

تشكو لي وجع مفاصلها. تبثني وحدتها. وحزنها لبقائي وحيداً، دون زوجة وأطفال. بلهجة أقرب إلى الرجاء، تذكرني قبل خروجي ببعض الحاجيات المنزلية، لأحضرها معي عند عودتي. وتدلف إلى حبسها، تلزم صمتها الموجع.

xxx

قبل سنتين ركبت خديجة إلى جانبي لأول مرة. متدربة جديدة..

قرأتُ الهم في نظرة عينيها المنطفئة، ونبرة صوتها المتواضعة، لم يكن في هيئتها مايجذبني : بدانتها، وقصرها، ،ازدحام تقاطيعها.

طوال ثلاثة أسابيع داومنا على اللقاء. أدربها ساعة كل يوم. نثرثر سوياً، قبل أن أعود فأنزلها عند مدخل بيتها.

سقطت هي في اجتياز اختبار القيادة الأول.

يومها جاءت مشتطة، وقد امتقع لون وجهها. تلعن شرطي المرور - الجلف - الذي تعمد تسقيطها. لم يعطها فرصتها كاملة، وحانقة قالت :

- لو كنتُ فتاة مزوقة، لعرف كيف ينجحها!!

- ...

يومها بقيتُ ساكتاً، لم أعلق بشيء.

في المرة الثانية، اجتازت الإختبار. عادت تقود السيارة، وقد طفح البشر بعينيها. فرحة كطفلة... أوصلتها لبيتها. فشكرتني كثيراً. وقبل أن تنزل. قالت بصوت يفيض بالود :

- يمكنك زيارتنا إن شئتَ!

لحق بصوتها بعض تردد. أضافت :

- أهلاً بكَ في أي وقت.

أومأتُ برأسي مبتسماً. وقلتُ :

- شكراً.

ومسرعة، شدت على يدي مودعة..

xxx

فكرتُ كثيراً قبل الإتصال بخديجة!

كان قد انقضى أكثر من شهر على يوم نجاحها. لمحتُ رقم هاتفها بين أوراقي، فجاءت إليّ صورتها، ودعوتها للزيارة. قلتُ أشجع نفسي : لِيكن، أزورها. أمضي بعض الوقت معها. أدرتُ الرقم. وصلني صوتها :

- ألوا!

- مساء الخير!

حذراً انبعث صوتي، أردفتُ :

- .. أنا رمضان.

- أهلاً وسهلاً!

رطب رحب حسها.

تسلّقتني : سألتني عن أحوالي، ومتاعب التدريب، وكأنها تتم حديث انقطع بيننا.

وتدعوني. قالت بنبرة دافئة :

- لتأتِ تتعشى معنا!

وجمتُ لبرهة، وأخفي اندفاعة صوتي. اعتذرت قائلاً :

- مرة قادمة!

- لماذا؟!

فاجأني سؤالها الحنون. تخيلتها تنتظر إجابتي على الطرف الآخر. وأظهر نزولي عند رغبتها. هتفتُ بصوت أخضر :

- كما تشائين!حملتُ معي باقة ورد، بشاشة الزيارة لأولى،وذهبتُ...

استقبلتني قرب الباب متهللة، بينما ناولتني امرأة كانت جميلة ذات يوم، يداً لينة، بحث ونظرة وادعة تشمل وجهها، قالت :

- يامرحبا!

أحنيتُ رأسي أحييها.

لم ترقني فوضى المكان، انتبهتُ لوجود طفلة، غاطسة في أحد المقاعد، تتابع التلفزيون. خزرتني بطرف عينها، فبادرتها خديجة، مشيرة إليها :

- تعالي!

تلكأت الطفلة، قبل أن تنتزع نفسها، لتأتي تسلم عليّ، قبلتها، وصوت خديجة :

- ابنتي نورة!

تلك كانت سهرتنا الأولى... تناولنا طعام العشاء. حدثتني خديجة عن قصتها : مطلقة منذ سنتين، تعيش مع

والدتها، وطفلتها...
غام وجه الجدة بحسرتها!
ولا أعلم لماذا داهمني ظلام أسود، حين عدتُ لغرفتي؟!

xxx

غداً تكون سنة ثانية قد انقضت على صداقتنا...
اعتدتُ على السهر عندهم!
أدخل، فتـرع إليّ نورة راكضة. وصوتها الأليف :
- عمو رمضان!
- حبيبتي نونو!
آخذها لقلبي، أقبّلها. يرتفع مزاحنا.
ندرس سوياً.
لحظة تأوي لفراشها، يخبو نبض المكان.
نجلس خديجة وأنا، نتبادل همومنا.
غداً سأشتري لعبة جديدة لنونو.
ولكن ماذا أقدم لخديجة؟!

الكويت 4 - أيلول/ سبتمبر -1993
وجه ثان : النصل..

الليل يجثم على قلبي!
لاأنفك أقول : ابنتي. أبذل كل جهدي لمراعاة نفسيتها!
لم أعد أطلب منها مساعدتي بأي من أعمال البيت!
مادمتُ بصحتي، فسأتولى القيام بكل شيء الطبخ، الكنس، التنظيف، غسل وكي الثياب.
الإهتمام بنورة، وربما لو أعرف قيادة السيارة، لأحضرت أغراض الجمعية...
لن أتوه عن خديجة. شيء مايشغل بالها!!
أشعر بتوترها، في اللحظات التي تسبق وصول رمضان. لاتكاد السجارة تنزل عن فمها. يقتم وجهها. يرتفع دخانها، وكأنه ينبئ عن نارها المتقدة.
يوم أمس انبعث صوتها معاتباً، خاطبتني قائلة :
- شعر رأسك أبيض!
بقيتُ ساكنة. رأيت الإنزعاج في نظرتها. وصوتها :
- الشيب زحف عليه.
قاطعتها بقولي :
- الشيب أثقل قلبي!
= ...
لم تعجبها جملتي. نهضت وحركتها تفضح ضيقها. دمدمت متبرمة :
- سنعود لنتكلم في نفس الموضوع!
= ...
صباح اليوم، وبعد أن خرجت هي إلى عملها. استخرجتُ أنبوبة الصبغ والفرشاة، وقبل أن أذيب حبوب المحلول. قابلت المرآة. رفعتُ وشاح رأسي. فبرزت لي بقايا صورة امرأة أعرفها...
داخلني حزن حريف، وأنا أمسح شعيرات رأسي البيضاء تحسرتُ متذكرة أيامي الماضية. وكيف أنني كنتُ أتثاقل من غسل شعري الكثيف. وتراءت لي ظفيرتي الفاحمة، تركض خلفي، تنحدر حتى أسفل ظهري.
= جدتي!
- نعم حبيبتي؟!
= هل سيأتي عمو رمضان الليلة؟!

- نعم.
- متى؟!
- بعد قليل... إلعبي مع عرائسك لحين وصوله!

في مثل هذا الوقت من كل ليلة، تضطرب نظرة خديجة، تصفر. تترقب وصول رمضان. مساء دخل علينا أول مرة، تتقدمه باقة وروده. بدا هادئاً وخجولاً، ليلتها، غلف التودد والتحفظ هيئتي. وحين أويتُ إلى فراشي. ترسدتُ هاجسي. حدثتُ نفسي، قلتُ: شابٌ طيبٌ، ربما ساقه الله إلينا، ليعوض صبر خديجة والطفلة؟!

تتالت الأيام، وزياراته...

لم تندّ عنه أية إشارة، تدلّ على عزمه الإقتران بخديجة. استباحني قلقي: أجلس منكمشة. نظراتي تملأ حضني. يجف فمي. أشعر بثقل أنفاسي عليهما. أتركهما. أقتلع نفسي. أبلغ خيبتي. أتعلق بخيط أمل واه. أردد:

- لأنتظر الزيارة القادمة!

دوام على المجيء، وحضوره الأليف.

شيئاً فشيئاً، سقط عني خجلي. غادرني تحفظي. رنّت بصوتي نبرته. أخذتُ أناديه باسمه. صار يساعدني في إعداد المائدة. ولمّ أطباق العشاء، ونقلها إلى المطبخ. ولكنها حسرتي، ظلت تمزق صدري!

أحب هو الصغيرة، فأحابته!

تفتقده إذا غاب. وتستعجل حضوره بحلول المساء!

بدأت أولى خطواتها المدرسية، على يديه... تكفل بتدريسها. وترتيب حقيبتها المدرسية. يهلّ عليها محملاً بهداياه وحبه... يلهوان معاً. يعمّ لغطهما أرجاء البيت. تنطلق ضحكات نورة الصافية. ويقتصر قلبي حزن مفاجئ، لحظة أنتبه لخديجة، فأجدها منسية وراء دخانها الأزرق!

في آخر زيارة لخالة خديجة، تحاشيتُ مناقشة الموضوع معها، ولكنها قذفت بجملتها، وكأنها تجسّني، قالت:

= ماأخبار خديجة ورمضان؟!

وزنتُ نظرتها. قلت بصوتٍ آليّ:

- لاجديد.

وبلهجة من أعدت نفسها سلفاً، سألت متخابثة:

- سيبقى يسهر عندكم؟!

اعترضتها مصححةً:

- ليس دائماً!

وتقفز فوق جملتي، أكملت متهكمة:

= .. ربما طاب له المكان؟!

صرختُ بها:

- اسكتي!

-...

شقّ الصمتُ طريقه لمجلسنا. شعرتُ بأني أرتجف. وتهب ممتعضة أفلتت:

- لتفعل خديجة مايحلو لها!

أسرعت هي نحو الباب.

بقيتُ بجلستي. وندب حظي. ولحظة رفعتُ بصري، ألقيت الباب مشرعاً...

تأتي عليّ أوقات، أحس يهمّ الدنيا يحط على قلبي! تتحرك بصدري عبرتي، ترتفع رويداً رويداً. تمتد

نحظاتي بلا انتهاء. تنشب غصتي في حلقومي. يثقل بي رأسي. فأختلي بنفسي. أدخل في بكائي= لاأعرف ماالذي يبكيني- أنتحب بحرقة. أظل أبكي حتى أفرغ صدري. أريح قلبي...

= جدتي! أنا جائعة.

- تعالي أجهّز لك العشاء!

- متى يأتي عمو رمضان؟!

- لاأدري.

= ماما قالت سيأتي الليلة!

- حسناً. ماذا تأكلين؟!

= سأكل معكم...

- ألستِ جائعة الآن؟!

= كلا.

حين أخبرتُ خديجة بما دار بين خالها وبيني. أشتط بها غضبها. أنبئتني قائلة :

- كان يجب إيقافها عند حدها!

- ولكن...

لم تدعني أكمل. قالت بحس مجروح :

- ... دائماً يخصوننا بنصائحهم الغالية!

انقطعت فجأة عن الحديث. اشعلت سيجارة. غابت خلف دخانها. انسابت دموعها صامتة. تحشرج صوتها :

- ليتهم يكفون عنا!

- ...

- منْ منهم فكر بمساعدتنا؟!

وأواسي انكسارها. قلتُ متماسكة :

- لن تعودنا مساعدة أحد.

- رمضان أحنْ منهم!

وسخية انحدرت دموعها...

xxx

أكره النظر إلى الساعة. لاشيء يوقف دوراتها المستمر. ليل نهار تأكل من أعمارنا... هاهي تقترب من التاسعة.

لم تزل خديجة تلزم غرفتها متأثرة! عصر اليوم، كنا نحتسي الشاي. وكمن يتخلص من حملٍ أتعبه. بادرتها :

- سأكلم رمضان!

أشتعلت نظرتها، قالت بلهجة من يتوقع مكروهاً :

- خيراً؟!

دفعتُ بكلماتي :

- لن أتعرض لأسمك!

زفرت وقد خيّم عليها ملل أسود، هتفت بنفاذ صبر :

- لا فائدة.

أردفت بمرارة :

=... سأظل أكرر : رمضان صديق...

اتسعت عيناها. عشش اليأس بصوتها :

- رمضان لايفكر بالزواج مني!

همهمت نازفة :

- هل أدلل على نفسي؟!

- ...تكسر شيء بداخلي.

جنّ حسها. سألتني محتدة :

- أتريدين قطع علاقتنا به؟!

جرس الباب.

وصل رمضان!

لأنهض أفتح له..

الكويت 20 - أيلول/ سبتمبر- 1993

وجه نورة

- ماما
- نعم ؟!
- ألن تقصّي عليّ حكاية الليلة؟!
- كلا.
- لماذا؟!
- أنا تعبة... غداً سأروي لك حكاية طويلة.
- ...
هيا إلى فراشكِ
- أريد لعبتي!
- تفضلي! تصبحين على خير!
- ماما دعي الباب مفتوحاً!
- حسناً. اغمضي عينيكِ!
خرجت ماما!
سنبقى أنا ولعبتي.
كل ليلة نتكلم معاً!
أمي وعمو رمضان وجدتي، ليسوا صغاراً. لهذا لا ينامون مبكراً، يظلون جالسين في الصالة.
- أتسمعين أصواتهم؟!
- ...
- هيا تكلمي!
سأرد أنا نيابة عنك!
\ماما لم تقص علينا حكاية الليلة.
كانت متضايقة، تعاركت مع جدتي.
حين أجلس أمام التلفزيون. أخنس، أستمع لكلامهم.
جدتي لاتحب عمو رمضان!!
أنا أحب عمو رمضان.
- أتحبينه أنت؟!
- نعم.
- أنتِ عندكِ أب؟!
- كلا.
- مثلي أنا.

خاصمتُ سمّورة ابنة جيراننا، لأنها قال لي :
-أمك مطلقة!
صرختُ بوجهها :
- كلا.
- ردّت عليّ :
- أين أبوكِ؟!
لم أعرف بماذا أردّ عليها. كرهتها.
قلتُ لها :
- لن ألعب معكِ مرة ثانية!
وركضتُ إلى بيتنا، وأنا باكية...
جدتي تقول لأمي :
- أنتِ مطلقة!!
حين سألت جدتي :
- مامعنى مطلقة؟!
غضب وجهها. صرخت بي :
- لا تسألي هكذا أسئلة!
خفتُ. بقيتُ أنظر إليها. فأشارت إليّ :
- تعالي!
لم أتحرك. فجاءت. أخذتني.
بوّستني. قالت :
- حبيبتي.
وقالت :
- ... بابا ليس معنا!
ولم تكمل...

إذا لم يأتِ بابا، ستبقى ماما مطلقة!
عمو رمضان يجيء إلينا كل مساء.
كنا أنا وماما في السيارة، يوم سألتها :
- لماذا لايكون عمو رمضان بابا؟!
انتظرتُ ردّها. قالت :
- عمو رمضان ليس بابا.

لم أفهم قصدها. سألتها ثانية :
- لماذا؟!
- لأنه رجل آخر.
ماما لا تحب الأسئلة الكثيرة. ولا تحبني أن أكلمها حين تقود السيارة!
- متى يأتي بابا؟!
- البنت الحلوة لاتضايق أمها!
قالت لي ماما. فقلتُ لها :
- ستبقين مطلقة؟!
- ماذا؟!
صرختْ بوجهي.
ارتجفتُ. بكيتُ دون صوت.
وبكت ماما مثلي.
مرة سألتها بوجود جدتي :
- منْ عمو رمضان؟!
ردّت علي :
- صديقنا.
ولكن جدتي قالت :
- أحد أقاربنا.
نظرتُ إليهما. اقتربت جدتي مني.
حذرتني :
- قولي : قريبنا!!
حين نخرج أنا وعمو رمضان. أفرح وأنا أسير بجانبه. مرة قلتُ له : بابا.
فضحك.
صرتُ كلما نخرج، أظل أناديه :
- بابا!
بابا رمضان طيب... لايضربني، ولايصرخ علي.
يشتري لي ألعاباً كثيرة.
- لماذا لاتتكلمين؟!
أنتِ لعبتي الحبيبة.
- أمكِ لا تلعب معكِ؟!
- أنتِ ابنتي... سألعب معكِ. ولنا لكِ أصرخ عليكِ، وسأحضر لكِ أباً.
- ...
- سأنهض لأحضر أباً لكِ.
- نورة!
صوت ماما.
- إلى أين أنت ذاهبة؟!
- أريد أن أحضر بابا!!

الكويت في 23/09/93

حمد حميد الرشيدي

الخروج من الذاكرة

كهوفاً تملأ الطّرقاتَ أعيُنَنا
دفوفاً يقرعُ التّرحالُ أرجُلنا
تلبّدنا ذُيولُ الخوف،
تسحلنا على آثارِ حُثالةِ الشّكوى
وفي المنفى
يكدّسنا هراءُ الوقتِ تاريخاً
بلا جدوى
بلا معْنى
ويسخرُ من سذاجتِنا
تعتّقنا بلاهتُهُ
تثرثرُ في ملامحنا البدائيّه
وتلفظنا على الطّرقاتِ أشباحاً
وأرواحاً
زجاجيةْ
ضيوفاً خلفَ أروقةِ المدّى نبقى
رفوفاً تنضدُ الأحلامُ أيدينا
يعشّشُ في مآقينا غباءُ الوجدِ والذّكرى
وفي حرماننا نشقى
نعالجُ فاقةَ الأيّام فينا باجترار الصّمتِ والحيْره
ورائحةَ الزّمانِ الرّثّ في أنفسنا ترقى
ومن نحن...؟
ترى من نحن.... من كنّا؟
وإن كنّا
أيحملنا حمارُ الوقتِ أسفاراً معقّدةً؟
عتيقٌ سرّها عنّا..؟
بليدٌ جُرحُهَا منّا..؟

١٤١٣/١٠/٤
السعودية-الرياض

حمد حميد الرشيدي

حين يندى جبين الشمس

صلبوك في تلك المنابر
مسخوك فيها
ظلموا فؤادك بالمشاعر
حين قالوا : أنت شاعر
قذفوك في دوّامة الورق المدوّر
والحبر أحمر
فتبسّموا كالدّمية الجوفاء في أحد المتاجر
* * * * * *
يا ليتهم صلبوك في جذع النّخيل!!
ليروا جبين الشمس منهم كيف يندى؟
لكنّهم،
في «عبوة» الحقد المرير تنازعوك
، فخلّدوك
تبًا لهم،
حتّى من الموت الكريم تلقّفوك
ليحرموك
آه لهم،
ما أبشع الإنسان حين يصير أجراً من ذبابه
مسعورة بطنينها الشره استباحت حرمة
لدم يسيل
* * * * * *
هوّن عليك،
فإنّ فجرك سوف يولدْ
في عتْمة اللّيل الطّويل
ما أنتَ إلاّ دمعةٌ في مقلة رمداء تحْلُمُ بالشّفاءْ
تهمي إذا طلّت من الشرفات في غيبوبة الفجر البعيد
هوّن عليك
فإنّ للأوهام مهدًا
ستموت فيه سُويعة الفجر الوليدْ

ذو القعدة 1401 هـ
السعودية-الرياض

جاحظيات جاحظيات جاحظيات جاحظيات

الجاحظية في القاهرة

فرقة مصطفى كاتب المسرحية التي يقودها عضو المكتب الأستاذ مخلوف بوكروح سافرت إلى القاهرة في ظروف صعبة ومثيرة لتشارك في مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي، ولئن تضمنت كل وثائق المهرجان فرقتنا ومسرحية الشمعة والدهاليز المقتبسة من رواية رئيس الجمعية الطاهر وطار وصور فوزي بولحية الممثل الذي يؤدي سبعة أدوار في المشهد الواحد بقدرة صوتية فائقة، فإن التحاق فرقة من المسرح الوطني الجزائري جعلت التمثيل يأخذ الطابع الرسمي وجعلت الشمعة خارج المسابقة.

شكرا لوزير التربية

وعد الدكتور عمر صخري وزير التربية وفد الجاحظية الذي زاره والمتكون من الأستاذين الطاهر وطار وعبد الباقي هزرشي، بتقديم دعم للجاحظية بالاهتمام بمنشوراتها وخاصة مجلتيها التبيين والقصيدة، وبعد شهر ونصف ذكر رئيس الجمعية معالي الوزير بواسطة فاكس لطيف، بوعد الحر، وكانت المفاجأة أن جاء الرد بفاكس من ديوان السيد الوزير، يقول إن مذكرة وجهت لمؤسسات التعليم بخصوص المجلتين تمت في نفس الأسبوع الذي استقبلنا فيه. وفعلا ما أن حل الموسم الدراسي حتى بدأت طلبات الاشتراك في المجلتين ترد على الجمعية.

ما أحوجنا لمثل هذا الإرادات الطيبة وهذا الأسلوب الحاسم خاصة في ميدان الثقافة.

رائحة الحبر

طبقا لتوصيات الجمعية العامة المنعقدة في 92/12/10 اقتنت الجاحظية مطبعة محترمة تتكون من أوفسيت تطبع بلونين في وقت واحد، وآلة (بيكوز) تخيط بالسلك ومـاسيكو لقطع الورق وطاوية (بليـوز)، . مضافة إلى الأفسيت الصغيرة التي طبعت عددي التبيين 8 و 9 والعدد الرابع من القصيدة.

لقد أضحى في إمكان الجاحظية الآن إنجاز كتابين في الشهر الواحد.

دار التبيين للنشر

كانت استراتيجية الجاحظية من البداية هي الاعتماد على الآثار المكتوبة، كعمل أساسي للجمعية إلى جانب بعض التنشيط الذي هو في الحقيقة من اختصاص دور الثقافة والمراكز الثقافية.

وبعد التبيين والقصيدة، ها هي منشورات التبيين - الجاحظية في سلسلتين : سلسلة الإبداع الأدبي والتي برمجت لعام 95 ديوان أبي إلياس *قالت السمراء لا*. و*يوميات الوجع* للمرحوم عمار بلحسن ورواية *الشمعة والدهاليز* للطاهر وطار و قصص مفتي بشير *الظل والغياب*،

وسلسلة الدراسات والأبحاث التي صدر منها بعد : *المسرح الجزائري ثلاثون سنة/ مهام وأعباء* للأستاذ مخلوف بوكروح و *شعرية السبعينات/ القارئ والمقروء* للأستاذ على ملاحي. وبرمجت *المرأة والميراث* للأستاذ أحمد ساحي.

موسم ثقافي متأخر

انعقدت بمقر الجمعية وبتاريخ 95/9/28 جلسة ضمت ما يزيد عن عشرين أستاذا وأستاذة وكان جدول العمل كالتالي :

- استعراض الموسم الفارط وما أنجز فيه
- وضع محور لنشاط 95/94.
- اقتراح محاضرات وندوات للموسم 96/95
- إعادة تشكيل هيأة تحرير مجلة التبيين

- وضع تصور لدار النشر
- آفاق عامة.

. لقد كان الموسم متأخرا بعض الشيئ على غير عادة الجاحظية، وهذا يعود بالإضاثة إلى الظرف العام الذي تعيشه البلاد، إلى بعض بلبلة حدثت في علاقات الجمعية مع وزارة الثقافة.

مع ذلك فالعمل جار : المطبعة تدور، والدروس تجري، والإعداد لجائزة مفدي زكرياء المغاربية للشعر على قدم وساق.

المساهمة الجزائرية في التراث الإنساني الثقافي

كان ذلك هو المحور الذي اتفق عليه المشاركون في جلسة 28 سبتمبر، وتطويرا لمحور الموسم الماضي الذي كان : نفض الغبار عن الكتابات الجزاءرية المعاصرة.

ندوة جادة كل شهر

ونظرا للوضعية الأمنية السائدة وغياب الجمهور عن المحاضرات، ونظرا كذلك للظروف المالية التي وضعت الجاحظية فيها، اقترح المجتمعون ندوة جادة كل شهر تسجل وتنشر في التبيين أو في كتاب، مع أمسية شعرية ما تيسر ذلك.

تهاني

كريمة صالحي عضو مكتب الجمعية وعضو أسرة تحرير التبيين والقصيدة، تمت خطبتها، وستنتقل إلى عالم الزوجية قريبا.

باليمن وبالرفاه والبنين.

مبروك.

الأستاذ عبد الرحمن عزوق، عضو مكتب الجمعية أستاذ الأدب العربي بثانوية نجح في امتحان التفتيش العام. للتربية والتكوين

ألف ألف مبروك ومزيدا من التقدم والرقي .

خيرة حمر العين، عضو الجاحظية ناقشت رسالة الماجيستير في موشوع جدل الحداثة في نقد الشعر المعاصر. يوم 29/10/ 95 .أشرف عليها الدكتور عبد المالك مرتاض.

نالت خيرة ماجيستيرها بتقدير مشرف جدا.

ألف مبروك ياخيرة.

الزلزال في ألمانيا وفي أمريكا

صدرت في ألمانيا عن دار الشرق التي سبق وأن نشرت رواية عرس بغل، رواية الزلزال للطاهر وطار ترجمة المستشرقة إيلفا فالتير، وقد دعي بهذه المناسبة لمعرض فرانكفورت للكتاب ونشط عدة نداات في كل من فرانكفورت وكولون برلين.

الزلزال يدرس من طرف الدكتور جابر عصفور في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية، ويقو م البروفيسور بهذه الجامعة الأستاذ في تاريخ الديانات والدراسات الإسلامية الدكتور ويليام جرانار بترجمة الرواية التي أبدى إعجابه بها قائلا : وحين أعبر عن إعجابي بهذه الرواية وأؤكد تقديري لأهميتها، خاصة بعد عشرين سنة من كتابتها، فكلي ثقة أن ترجمتها إلى الأنقليزية سوف تقدم للقارئ باللغة الإنقليزية صورة واقعية عن الجزائر المعاصرة.

الجاحظية أولا وأخيرا

تولت الجاحظية التنسيق بين مؤسسة عبد العزيز البابطين باتصال شخصي منه، وبين المدعوين للإحتفال بصدور معجم البابطين للشعر في 4000 آلاف صفحة وهم بالإضافة إلى رئيس الجمعية السادة : لخضر السائحي والدكتور عبد المالك مرتاض ودراجي سليم.

قريبا:



مجلة تعنى بشؤون القص والقصص تصدرها الجاحظية ويشرف عليها الأستاذ سعيد بوطاجين مع مجموعة من الشباب

منشورات التبيين- الجاحظية

8 شارع رضا حوحو الجزائر
هاتف 02730037 فاكس 02731757

صدر حتى الآن :

1 المسرح الجزائري 30 سنة مهام وأعباء

تأليف الأستاذ مخلوف بوكروح — 79 دج

2 قالت السمراء لا

شعر أبي إلياس — 23 دج

3 يوميات الوجع (مذكرات)

تأليف عمار بلحسن — 130 دج

4 الشمعة والدهاليز

رواية للطاهر وطار — 97 دج

5 شعرية السبعينات في الجزائر

دراسة للأستاذ علي ملاحي — 63 دج

6 ميراث المرأة بين المنع والشرع

(أعلام زواوة 2)

تأليف الأستاذ أحمد ساحي — 89 دج

يمكن شراؤها بالمراسلة، مع العلم إن تكاليف الشحن تتحملها الجمعية
ارسلوا المبلغ على الحساب البريدي التالي :
الجاحظية 35354558